جامعة مولود معمري

تيزي وزو



إسهامات نحاة المغرب والأندلس في تأصيل الدرس النحوي العربي خلال القرنين السادس والسابع الهجريين

يحياوي حفيظة

منشورات مخبر الممارسات اللغوية في الجزائر

2011

الإيداع القانوني: 2465 – 2011
ردمك: 6 – 3 – 9035 – 9931 – 978

المقدمة:

نشأت الدراسات اللغوية عند العرب منذ بدأ اللحن يطغى على ألسنة الناس وذلك بعد دخول الأعاجم في الإسلام، واختلاطهم بالقبائل العربية، التي كانت تقع بمحاذاتهم، أو في الحواضر التي استوطنها الكثير منهم، سواء كان ذلك بسبب التجارة، أو لرغبة من الأعاجم في معاشرة المسلمين والاقتداء بهم في معاملاتهم وسلوكاتهم، ومن أجل فهم القرآن الكريم فهما صحيحا وذلك بتعلّمهم للغة العربية.

وبانتشار الإسلام في شمال إفريقيا والأندلس، انتقل الدرس اللغوي إليهما كما انتقلت اللّغة العربية والكتاب العزيز، فازدهرت العلوم فيهما بسبب ارتحال العلماء المغاربة والأندلسيين إلى المشرق، وأخذهم العلوم عن أهله، وبذلك ظهر نبوغ مغربي وأندلسي أثرى الفكر العربي بفضل علماء أعلوا شأن اللغة العربية لاهتمامهم بمختلف العلوم العربية، لا سيما النحو الذي بفضله استطاعوا حماية اللغة والقرآن الكريم، ونشرهما في الأقطار المجاورة.

ونظرا للدّور الذي لعبه علماء المغرب والأندلس في خدمة القرآن الكريم دراسة وتفسيرا وفي إثراء الدرس اللغوي العربي عامة والدرس النحوي، ارتأيت أن أجعل بحثي خاصّا بهذا الجانب المهم من تراثنا العربي العريق، فكان عنوان المذكرة "**إسهامات نحاة المغرب والأندلس في تأصيل الدرس النحوي العربي خلال القرنين السادس والسابع الهجريين**"، ونظرا أيضا إلى النقص الكبير الذي تشهده الدراسات اللغوية والنحوية في المغرب والأندلس وإلى قلة الباحثين الأكاديميين الذين تناولوا مثل هذه المواضيع، حاولت التطرق إلى جهود علماء هذين القطرين ممّن كانت لهم إسهامات على جانب من الأهمية خاصّة خلال القرنين السادس والسابع الهجريين اللّذين تمكّن النحاة خلالهما من فرض أنفسهم فرغبت في الكشف عن جانب من هذا التراث النحوي في بلاد المغرب والأندلس.

وخلال تناولي عناصر هذا البحث حاولت الإجابة عن بعض التساؤلات التي ألخّصها فيما يأتي:

– هل حظيت الدراسات اللغوية العربية باهتمام علماء المغرب والأندلس، بعد انتقالها إليهما عن طريق الرحلة؟

– هل تميّزت الدراسات اللغوية العربية في المغرب والأندلس عن نظيرتها في المشرق؟

– كان النحو العربي من أهمّ العلوم اللغوية التي اهتم بها علماء المغرب والأندلس وذلك بعد اطّلاعهم على كتاب الكسائي، ثم "الكتاب" لسيبويه، بمن كان التأثّر أكبر، هل كان بأوّل كتاب انتقل إليهم، أم بالكتاب الذي جاء بعده؟

– إذا كان نحاة المغرب والأندلس قد خاضوا مجال البحث في علم النحو، فهل استطاعوا إثبات أنفسهم على الساحة اللغوية العربية؟ وما الذي ميّزهم عن غيرهم من نحاة المشرق؟

– ماذا ألّف نحاة المغرب والأندلس، وماذا تركوا للأجيال اللاحقة من آثار يستطيعون الاعتماد عليها، مثلما اعتمدوا هم على الآثار المشرقية "كالكتاب" لسيبويه، "الجمل" للزجاجي، "الإيضاح" للفارسي و"الأصول" لابن السراج وغيرها من المؤلفات المشرقية، التي تزخر بها المكتبات العربية؟ بمعنى آخر بمن تأثّر نحاة المغرب والأندلس وهل كان لهم تأثير في غيرهم؟

ولقد اعتمدت في معالجة مختلف عناصر هذا البحث المتواضع المنهج الوصفي التحليلي لأنّ آلياته المتمثلة في الاستقراء والتصنيف، ثمّ التحليل والتفسير تناسب طبيعة الموضوع، فهو يقوم في هذا البحث على وصف الظواهر اللغوية وآراء مختلف النحاة، ثم تحليلها وبيان ما لها من تأثير على آراء ومناهج النحاة الذين عاشوا بعدهم سواء كان ذلك في القرون التي تلتهم أو في العصر الحديث.

ولمحاولة الإجابة على التساؤلات المطروحة قسّمت البحث إلى مقدمة ومدخل وثلاثة فصول وخاتمة. تحدّثت في المدخل عن الأوضاع السياسية والاجتماعية للمجتمعين المغربي والأندلسي خلال تلك الفترة التي تناوب على حكمها قائدان عظيمان هما يوسف بن تاشفين خلال العهد المرابطي، وعبد المؤمن

بن علي خلال العهد الموحدي، والثورات التي أنهكت كاهل الناس، بسبب محاولة النصارى اجتياح بلديهما في كل مرّة.

وقد جعلت الفصل الأوّل للحديث عن اتجاهات الدرس اللغوي في المغرب والأندلس واهتمام العلماء هناك بمختلف العلوم اللغوية العربية، فألّفوا في المعاجم التفسير، الحديث، وغيرها من العلوم الأخرى، التي أبدعوا فيها، رغم الظروف السياسية المضطربة التي كانوا يعيشونها من حين لآخر.

فالتأليف المعجمي مثلا رغم قلته، إلاّ أنّ علماء المغرب والأندلس تميّزوا فيه، مع أنّ اللّغة العربية ليست لغتهم، إذ أنّهم استطاعوا أن يجمعوا من الذخيرة الشعرية والنثرية العربية فألّفوا معاجمهم. وقد ذكرت أهمّ المعاجم التي ألّفت منذ نشأة الدراسات اللغوية، وإلى غاية نهاية القرن السابع الهجري، والترتيب الذي اتّبعه أصحابها، أكان ترتيبا خاصّا بهم، أم قلّدوا في ذلك ترتيب المعاجم اللغوية العربية الأخرى؟ وكذلك الوظيفة الأساسية لتلك المعاجم، التي أخذت منها "ألف باء" للبلوي (ت 604 هـ) كأنموذج أبيّن فيه المنهج الذي اتّبعه المؤلف، واللغة التي استخدمها والشواهد التي جاء بها، هل استخدم الشواهد الشعرية أم القرآنية أم الحديث الشريف، أم جمع بينها؟

أمّا التأليف في تفسير القرآن الكريم، فقد أخذت منه تفسير "المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز" لابن عطية، الذي اتّخذ مسارا في تفسيره غير الذي تعوّد عليه المفسرون قبله، حيث اهتم بالجانب النحوي فأعرب معظم آيات الكتاب بعد تفسيرها فقهيا.

ويأتي الفصل الثاني الذي عنونتُه بالتأليف النحوي وأهم النحاة في المغرب والأندلس خلال القرنين السادس والسابع الهجريين، تطرّقت فيه إلى دوافع التأليف، التي كان من أهمّها تطوير اللّغة وحمايتها من اللحن، وهو الدافع نفسه الذي دفع العلماء في المشرق إلى إيجاد علم النحو الذي استطاعوا بفضله الحفاظ على اللّغة العربية صحيحة فصيحة، وبالتالي على القرآن الكريم الذي كان قد بدأ يفسد على

ألسنة الأعاجم، والعرب الذين كانوا يعيشون في المناطق الحدودية معهم أو في الحواضر التي انتقل إليها عدد كبير من غير العرب أيضا.

ثم تطرّقت أولا إلى أهمّ النحاة الذين عاشوا خلال القرن السادس الهجري ومختلف المناهج التي اعتمدوها في دراساتهم، ومختلف آرائهم أيضا، فقد كان لكل نحويّ آراء تفرّد بها، إضافة إلى تأثّره بآراء النحاة المشارقة من بصريين وكوفيين وبغداديين.

ثم تطرّقت بعد هذا إلى أهمّ النحاة الذين عاشوا خلال القرن السابع الهجري فقد بيّنت أيضا مختلف المناهج، التي اعتمدوها والآراء التي ميّزت توجّهاتهم، ثمّ المسائل المشتركة بين نحاة القرن السادس، ونحاة القرن السابع، ونقاط الاختلاف بينهم، وهل هناك ما ميّز مناهج الأوّلين عن الآخرين؟

أمّا الفصل الثالث فقد تناولت فيه أثر نحاة المغرب والأندلس في النحو العربي، وقد تطرّقت فيه لعنصرين بارزين، كان أوّلهما مدى تأثير كتاب سيبويه على النحاة في هذين القطرين وأيضا خصائص النحو العربي فيهما، فقد تميّز هذا العلم في المغرب والأندلس بثلاث ميزات بارزة، خصّ بها النحاة في بلاد المرابطين والموحدين وحدهم دون غيرهم، فأوّل خاصّية كانت استشهادهم بالحديث الشريف، الذي امتنع معظم علماء المشرق عن الأخذ به، أمّا الخاصّية الثانية فقد تمثّلت في اتّجاههم إلى تيسير النحو الذي أبدع النحاة المشارقة في تعقيده بكثرة التعليلات والتأويلات مع تقليد بعض نحاة المغرب والأندلس لهم، وذلك باستخراج العلل الثواني والثوالث، التي رفضها الكثير ونفروا منها. واتّجهوا إلى الحثّ على ضرورة حذف بعض المسائل والقواعد التي يمكن الاستغناء عنها، ومن ثَمَّ دراسة النحو دون الإيغال في الصّناعة النحوية التي ينجرّ عنها الكثير من التعقيد، أمّا الخاصية الثالثة فقد تمثلت في استحداثهم لمدرستين نحويتين كان لكل منهما نحاتها الذين كان لهم حضور قوي في ميدان التأليف النحوي فيما بعد.

الخاتمة:

ذكرت فيها النتائج التي توصّلت إليها، وأهمّها أنّ الدراسات اللغوية في المغرب والأندلس، قد حظيت باهتمام كبير من طرف العلماء، الذين ألّفوا فيها الكثير، خاصة في مجال النحو الذي حاولوا الإبداع فيه فنجحوا، وذلك من خلال مختلف الآراء التي جاءوا بها والكتب التي تمكّنوا بها من ترك آثارهم للخالفين من النحاة والدارسين لهذا العلم، والذين استفادوا منها، وتأثّروا بما جاء فيها.

وقد استعنت في إنجاز هذا البحث المتواضع بمجموعة من المراجع التي استطعت العثور عليها، وهي متنوعة منها القديم والحديث، أذكر أهمّها:

- الدراسات اللغوية عند العرب إلى نهاية القرن الثالث لمحمد حسين آل ياسين.
- البحث اللغوي عند العرب لأحمد مختار عمر.
- النبوغ المغربي في الأدب العربي لعبد الله كنون.
- الحركة اللغوية في الأندلس لصاحبه ألبير حبيب مطلق.
- الدراسات اللغوية في الأندلس لمؤلّفه رضا عبد الجليل الطيار.
- المدارس النحوية لشوقي ضيف.
- تاريخ النحو العربي في المشرق والمغرب لمحمد المختار ولد أباه.
- خصائص مذهب الأندلس النحوي خلال القرن السابع الهجري لعبد القادر رحيم الهيتي.
- قصة الأدب في الأندلس لمؤلّفه عبد المنعم خفاجة.

أمّا كتب التراجم فقد اعتمدت أساسا على كتاب:

- بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة للسيوطي.

وفي النهاية لا يسعني إلاّ أن أتوجّه بشكري الجزيل إلى كل من قدّم لي يد المساعدة لإنجاز هذا البحث وأخصّ بالذكر الأستاذ المشرف الدكتور "صالح بلعيد" الذي لم يبخل علي بالكتب المتوفرة لديه والنصائح التي استفدت منها أثناء مسيرة هذا البحث.

مدخل:

الأوضاع السياسية والاجتماعية في المغرب والأندلس خلال القرنين السادس والسابع الهجريين.

تميّزت الحياة السياسية والاجتماعية في المغرب والأندلس خلال القرنين السادس والسابع الهجريين بنوع من الاضطراب والفوضى أحيانا وببعض الهدوء والاستقرار أحيانا أخرى. وكان لقيام الدولة المرابطية في بادئ الأمر انعكاس حسن على ظروف المعيشة بعدما كانت المغرب والأندلس تعيشان حالة من التشتت والفرقة «إن قرنا ونصف قرن في خضم الفوضى والغموض جعلت المغرب أحوج ما يكون إلى زعيم من طراز يوسف بن تاشفين الذي ما لبث أن استكمل توحيد المغرب الأقصى»[1] كان ظهور هذا الزعيم القائد في المغرب أولا، ثم استنجد به ملوك الأندلس من أجل تخليصهم من خطر النصارى، الذي كان يتهدّدهم.

بعد سقوط الدولة الأموية في الأندلس، وخضوع هذه البلاد لملوك الطوائف ساءت الأوضاع وتدهورت الحياة السياسية والاجتماعية، فأصبحت بذلك هدفا سهلا لملوك النصرانية المحيطين بها، هذا العدو الذي «لا يفتأ يتنقّص بلادهم من أطرافها مهددّا لهم بالاكتساح الشامل عند أول فرصة»[2] ونظرا لهذا الخطر الكبير الذي أحس به مسلمو الأندلس وخوفهم على بلادهم أجبروا ملوكهم على الاستنجاد بيوسف بن تاشفين لإنقاذهم من هذا الخطر الداهم، الذي أصبح يتهدد مصالحهم من حين لآخر، فاضطرّ ملوك الطوائف تحت ضغط الرأي العام إلى طلب المساعدة من يوسف بن تاشفين الذي لم يتوان عن تقديم المساعدة، التي فتحت مجال

---

1 - عبد العزيز بن عبد الله، **تطور الفكر واللغة في المغرب الحديث**، دط. بيروت: دسنة، دار لسان العرب، ص21.

2 - عبد الله كنون، **النبوغ المغربي في الأدب العربي**، دط. بيروت: 1975، مكتبة المدرسة ودار الكتاب اللبناني،ج1، ص66.

التواصل بين القطرين المغربي والأندلسي وجعلت منهما بلدا واحدا، وتحت إمرة حاكم واحد فلولا ذلك الضغط الذي مارسه أهل الأندلس على ملوكهم، لما سعى هؤلاء إلى تخليص بلادهم من خطر النصارى، الذي نغّص عليهم حياتهم، وجعلهم يعيشون حالة من اليأس والبؤس والشقاء.

عبر يوسف البحر مع جيوشه الجرارة إلى الأندلس، حيث لقي ترحيبا واسعا من طرف أهلها وملوكها، فقاتل النصارى «وأحرز في معركة الزلاقة عام 1086م نصرا تردّد صداه في الشرق والغرب»[1] فأصبح يوسف بن تاشفين يلقب "بأمير المؤمنين" نظرا للشبه الكبير الذي يحمله هذا القائد الفذ لأمراء المسلمين من قوة لمواجهة النصارى، وورع في الدين وبعد عودته إلى المغرب عاد ملوك الطوائف إلى سابق عهدهم، إلى حياة اللهو والمجون فتجددت أطماع النصارى في بلاد الأندلس وأصبحوا يتربصون بها، ويتحّيلون الفرصة للهجوم عليها.

وكان يوسف قد نقل كرسي المملكة إلى مراكش بعدما كان في فاس وخلص إلى توحيد المغربين، وانضوى الجميع تحت لوائه كقائد وأمير للمسلمين، بعدما كان أهل المغرب يعيشون فسادا دينيا وأخلاقيا «فقد طهّر المغرب من الظلم والفساد وتوحّدت أقاليمه بعد طول الفرقة وقطع دابر الخلاف المذهبي والسياسي الذي كان سببا في كثير من الحروب الداخلية العنيفة»[2] بذلك أصبح المغاربة يتطلعون لبناء مستقبل أفضل لبلادهم تحت ظل العروبة والإسلام، ووفقا للمبادئ الإسلامية السمحة التي عمل بها يوسف بن تاشفين، وحرص على نشرها، وترسيخها في بلاد المغرب.

عاد يوسف مرة أخرى إلى الأندلس، بعدما استنجد به أعيانها وفقهاؤها، فقضى على ملوك الطوائف، وبسط نفوذه على الأندلس مملكة بعد أخرى، وخلّص سكانها من الملوك الفاسدين الذين كانت حياتهم مقصورة على العبث واللهو

---

1 - عبد العزيز بن عبد الله، **تطور الفكر واللغة في المغرب الحديث**، ص21.

2 - عبد الله كنون، **النبوغ المغربي في الأدب العربي**، ج1، ص115.

والمجون. وبعد وفاة يوسف بن تاشفين سنة (500هـ)، توالى أمـراء المـرابطين على الحكم، فتولّى ابنه علي سيادة البلاد منذ سنة (500هـ) إلى سنة (537هـ) وقد كان مثل أبيه «يتسم بنوع من الورع والزهد ويميل إلى إيثار الفقهاء ومشاورتهم»[1] فسار على نهج أبيه في محاولة لمّ شمل المسلمين في المغرب والأندلس، وقد شهد حكمه الطويل ازدهار الدولة المرابطية لأنه كان قائدا طغت عليه مبادئ الدين الإسلامي الحنيف، استطاع بذلك أن يوفر لسكان المغرب والأندلس نوعا من التطور والازدهار في جميع مناحي الحياة، خاصة الاجتماعية والاقتصادية منها فقد أصبحوا يعيشون حالة من الرخاء المادي بعد أن أتعبهم دفع الجزية للنصارى، الذين لم يتوانوا عن طلبها، هذا الوضع افتقرت إليه كثيرا في عصر ملوك الطوائف الذين تخلوا عن واجباتهم نحو الرعية وذلك بتوفير أدنى شروط الحياة الكريمة لهم، حيث كانوا منغمسين في مستنقعات الفساد والفسوق تاركين بلادهم للنصارى ينعمون بخيراتها، ويمارسون على سكانها مختلف أنواع الاضطهاد.

بعد وفاة علي بن يوسف، توالى أحفاده على حكم البلاد، التي حاول الحفاظ عليها زمنا طويلا تمكّن فيه من بسط نفوذه على معظم البلاد الأندلسية، التي سئم أهلها من مطاردة النصارى لهم، فساروا على طريق أجدادهم واستطاعوا بذلك أن يحافظوا على رقعة المغرب والأندلس تحت سيادة المرابطين الذين حاولوا الحفاظ عليها بشتى الطرق «استطاع المرابطون على وجه العموم حتى أواخر عهدهم الذي استطال بالأندلس زهاء خمسين عاما، أن يحافظوا على رقعة الوطن الأندلسي»[2] إلاّ أنّهم لم يستطيعوا الصمود أمام الثورات التي كان الموحدون يشنونها من حين لآخر، لأنه وبعد وفاة يوسف لم تعد الدولة المرابطية كما كانت في عهده قوية

---

1 - محمد عبد الله عنان، **عصر المرابطين والموحدين في المغرب والأندلس**، ط1. القاهرة: 1964 مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، ق1، ص78.

2 - المرجع نفسه، ص27.

ومحافظة خاصة بعدما «وقع في قرطبة حادث كبير الدلالة، عميق الأثــر... هــو إحراق كتاب "إحياء علوم الدين" للإمام أبي حامد الغزالي»[1] وذلك سنة (503هـ) الإمام الذي كان على صلة طيبة بيوسف، أضرمت النار في كتبه، والنـــاس بـــين مؤيد ومخالف، هذا الحادث هزّ نفوس الكثير، حتى رأوا أنّه لا خيـــار إلا الثـــورة على هذا النظام، الذي لم يعد كما كان في عهد مؤسسه، الذي اختفى من الميـــدان بعد أن كان قد أمسك بزمام الأمور السياسية والاجتماعية في كـــل مـــن المغـــرب والأندلس، فقد كان اليد الموجهة المرشدة، التي كانت تقود بلادها بكل قوة وشجاعة إلى الظفر بمختلف المعارك التي كان يخوضها، ضـــدّ الأعـــداء مـــن النصـــارى المحيطين به. هكذا كان يوسف رجلا عظيما وحاكما عادلا، وقائدا فذًّا، اســـتطاع بهذه الصفات أن يكسب حب واحترام أهل الأندلس، إلاّ أنّ خلفاءه من بعده، ورغم محاولاتهم في السير على منهاجه لم يفلحوا في السيطرة على الأوضاع.

بدأت الثورة على الدولة المرابطية بظهور "المهدي بن تومرت" بعد عودتـــه من الجولة التي قادته إلى المشرق العربي «وكان المهدي بن تومرت قد بدأ جولته في الشرق منذ أوائل القرن السادس فانبرى يجدد معالم الـــدين ويركـــز العقيـــدة السلفية»[2] بعدما تبيّن له أنّ الناس بدأوا يخرجون عن تعـــاليم الـــدين الإســـلامي وانتشار الكثير من ظواهر الفساد والفسوق فـــي المجتمـــع الأندلســـي والمغربـــي وسكوت علماء الدين عن التجاوزات الأخلاقية التي كانت تمـــارس فـــي مختلـــف المرافق، وبين مختلف الطبقات الاجتماعية، وللتخلّص من هـــذه الأوضـــاع قـــرّر المهدي بن تومرت أن يعيد للإسلام مكانته وذلك بإنهاء عهد المرابطين، وإحـــلال عهد جديد، لدولة جديدة تسمى "الدولة الموحدية"، تمكّنه من نشر دعوته وبثّ أفكاره ومبادئه ومحاربة الجهل، ونبذ حياة العبث والمجون التي كان يعيشها بعض القوم.

---

1 - محمد عبد الله عنان، **عصر المرابطين والموحدّين في المغرب والأندلس**، ق1، ص78.

2 - عبد العزيز بن عبد الله، **تطور الفكر واللغة في المغرب الحديث**، ص21.

لقيت هذه الدعوة استحسانا، وانتشارا كبيرين بين القبائل، لما كان للمهـــدي من تأثير قوي في نفوس الناس، وأسلوب مقنع، استطاع اختراق قلوب معظم مـــن يسمعه، فذاع صيته وتمكّن من جلب الأنظار إليه، وإلى دعوتـــه التـــي اســـتهوت الكثيرين ممّن كان يستمع إليه وإلى خطاباته وبهذا أصبح له نفوذ واســـع، وكلمـــة مسموعة في جميع القبائل، فبدأ بمحاربة المرابطين إلاّ أنّه توفي قبل أن يحقّق هدفه ويشهد سقوط الدولة المرابطية التي حشد كل قواه لمحاربتها والتخلّص من تبعياتها إلاّ أنّ وفاته لم تحل دون تحقيق ما كان يطمح إليه، إذ واصل خليفته ورفيقه عبـــد المؤمن بن علي الكومي (558هـــ) مهمته بعد انتخابه زعيما «وانتخـــب أشـــياخ الموحدين عبد المؤمن بن علي زعيما لهم، وقد عمل هـــذا علـــى تجميـــع قـــوى الموحدين من جديد حتى تمّت لهم الغلبة على المرابطين»[1] وكان المهـــدي بـــن تومرت قبل وفاته قد أوصى بتوليته لما فيه من الصفات التي تؤهله لقيادة الدولـــة. وكان قد التقاه وهو في طريقه إلى المشرق من أجل طلب العلم «فعدل عن رحلته وصحب المهدي مكتفيا بالدراسة عليه وهذا أحله منه محلا خاصا وأشـــركه فـــي أمره، وكاشفه بخبيئة نفسه، وكان هو وارثه وخليفته من بعده بعهد منـــه»[2] هـــذه الصحبة قربتهما من بعضهما كثيرا وجعلت كلا منهما يفضي بأسراره إلى الآخـــر فأعجب المهدي بشجاعة عبد المؤمن وفطنته، ممّا حفزّه على الوصاية له بعد موته وبذلك يكون المهدي بن تومرت قد مهّد لقيام دولة جديدة، قامت على أنقاض الدولة المرابطية التي لم تدم أكثر من زهاء نصف قرن بعد التشتّت الذي أصـــاب أهلهـــا وحكّامها ممّا أسفر عن قيام دولة من أعظم الدول الإســـلامية وأضـــخمها رقعـــة وأعظمها قوة وسلطانا هي الدولة الموحدية الكبرى، هذه الدولة التي جعلت المغرب والأندلس دولة واحدة موحدة في ظل الإسلام والعروبة وتحت إمرة قائد من أعظم

---

1 - رضا عبد الجليل الطيار، **الدراسات اللغوية في الأندلس**، دط. بغداد: 1980، دار الرشيد للنشر، ص12.

2 - عبد الله كنون، **النبوغ المغربي في الأدب العربي**، ج1، ص111.

من حكموا هذه البلاد، إذ كانت غيرته الشديدة على الدين الإسلامي أهم العوامل التي جعلته يثور على دولة المرابطين.

تولى عبد المؤمن بن علي مقاليد الحكم، مباشرة بعد وفاة المهدي بن تومرت، بعد أن كان رجل الدولة الذي قام بالتخطيط والتنفيذ للثورة على دولة المرابطين، ومن ثمّ الاستيلاء عليها وتحقيق وحدة الشمال الإفريقي، مع الحرص على تطبيق مبادئ الدين الإسلامي، التي أهملها أهل المغرب والأندلس وابتعدوا عنها، فقد كان العقل المدبّر والمطبق، يخطط ويستولي مع مراعاة حسن المعاملة والجوار، والتقيّد بأحكام الدين الإسلامي مع سكان القبائل الذين كانوا يتسابقون في مبايعته، والدخول في دعوته. بعد أن وحّد عبد المؤمن بلاد المغرب العربي صبّ اهتمامه على بلاد الأندلس، فعبر إليها وأخذ بمحاربة الأعداء، الذين بسطوا نفوذهم على معظم المدن الأندلسية، فقاتلهم وأخرجهم من بلاد المسلمين، ثم عاد إلى المغرب، وأخذ يعدّ للعودة مرّة أخرى إلى ما وراء البحر لمحاربة ما بقي من النصارى القشتاليين في بلاد الإسلام، لكن عبد المؤمن توفي قبل أن يتم له ما أراد حيث وافته المنية سنة (558هـ)، وهو على أتمّ الاستعداد لقتال المشركين، بعد أن أنشأ الأساطيل واستجلب الخيل واستكثر من أنواع السلاح والرجال «وكان أعظم أعماله بعد إرساء قواعد الدولة الجديدة هو توحيد أقطار الشمال الإفريقي، أو ما يسمى اليوم بالمغرب العربي الذي كوّن منه دولة قويّة، زرعت الرعب في قلوب الأعداء»[1] هذا الحلم الذي لطالما راود حكّام هذه الأقطار في العصر الحاضر، ولم يتمكّنوا من ذلك رغم المساعي الدبلوماسية الحثيثة، التي يحاولون من خلالها إعادة الوحدة للمغرب العربي واستعادة مجده التريد.

بعد وفاة عبد المؤمن بن علي تلاه خلفاء الموحدين وهم أبو يعقوب يوسف (الأول) بن عبد المؤمن (558-580هـ) وأبو يوسف يعقوب المنصور (580-

---

1 - عبد الله كنون، **النبوغ المغربي في الأدب العربي**، ج1، ص114.

595هـ) [1] أما يوسف فقد سار على خطى أبيه في العزم والحزم والتدبير وعندما توفي، بويع لولده يعقوب المنصور الذي بلغت الدولة أوجّها في أيّامه. وكان عهده العهد الذهبي للمغرب والأندلس من حيث الظروف السياسية المستقرّة والعلوم العربية المختلفة التي أبدع العلماء فيها بسبب الحياة الكريمة التي توفّرت لهم، إذ أصبح سكان المغرب والأندلس ينعمون بالراحة والرخاء المادي وبعض من الهدوء الذي افتقدوه في أواخر عهد المرابطين. فقد شهد حكم يوسف بن عبد المؤمن وولده يعقوب المنصور أزهى سنوات الموحدين، إذ قويت شوكتهم فيه وازدهرت البلاد وتطورت في جميع الميادين السياسية والاجتماعية والثقافية والعلمية... هذه الحياة الرغيدة التي توفّرت لسكان المغرب والأندلس زادت من أطماع النصارى في الاستيلاء عليها وعلى المناطق المجاورة لها، إلاّ أن فطنة حكامها ونباهتهم حالت دون ذلك.

بعد فترة دامت خمس عشرة سنة من حكم يعقوب المنصور، تمتّع فيها سكان المغرب والأندلس بحياة هادئة، واستقرار مادي، بعيدا عن الثورات والمناوشات مات المنصور، بعد أن حقّق نصرا ساحقا على ملك قشتالة في المعركة الكبرى التي خاضها ضدّه، شارك فيها جيش الأندلس والعرب والموحدين تسمى غزوة الأرك*.

توفي المنصور سنة (595هـ)، وخلفه ولده محمد الناصر وكان كأبيه همّة ونجدة وشجاعة وهو الذي يعد آخر الحكام الموحدين الكبار إلاّ أن استمرار القشتاليين وبني غانية بتهديد مصالح المسلمين بالأندلس وإفريقية، حال دون استقرار هذه البلاد، فقضى محمد الناصر على ثورة بني غانية قضاء ساحقا، لم يستطيعوا النهوض بعده إلاّ أنّ ذلك لم يحل دون وقوع ثورات أخرى، إذ بدأ سلطان الموحدين بالانهيار بعد موقعة العقاب المشؤومة وهي التي «أحرز فيها

---

1 - رضا عبد الجليل الطيار، **الدراسات اللغوية في الأندلس**، ص12، بتصرف.

* - غزوة الأرك: سميت باسم الحصن الذي دارت فيه.

القشتاليون نصرهم الساحق على جيوش الموحدية بقيادة الخليفة محمد الناصر ولد المنصور سنة (609هـ) والتي كانت ضربة قاضية لقوى الموحدين بالأندلس والمغرب»[1] إذ وبعد هذه الواقعة أخذت مدن الأندلس تسقط بأيدي النصارى الواحدة تلوى الأخرى أمّا الحكام الذين جاءوا بعد محمد الناصر، فلم يتمكّنوا من السيطرة على الأوضاع، نظرا لشساعة البلاد وتربص العدو بهم من كل صوب وضعف نفوسهم إضافة إلى الخلافات التي قامت بينهم حول الحكم والحروب الأهلية التي قامت بينهم حول كرسي الخلافة، ومن يحكم البلاد في ظلّ تدهور الأوضاع، ممّا عجّل في سقوط الدولة الموحدية وذلك «باستيلاء بني مرين بزعامة أبي يعقوب المريني في سنة (668هـ) على مراكش، منهين بذلك عهد الدولة الموحدية»[2] هذه الدولة التي عرف حكامها الأوائل كيف يوحّدون بين المغرب والأندلس ويسترجعون للدين الإسلامي مكانته، بعد أن كاد يختفي من الوجود في أواخر عهد المرابطين بالإضافة إلى تحسّن أوضاع المسلمين في جميع الميادين، جاء الحكّام الأواخر فأفسدوا كلّ ما جاء به الأوائل، ففي المجال العسكري مثلا «بلغت التنظيمات العسكرية في ظل الدولة الموحدية من حيث الضخامة مبلغا لم تشهده أيّة دولة أخرى»[3] سواء فيما يخص الأسلحة أو عدد الجيوش أو الأساطيل البحرية التي كانت تزرع الرعب في نفوس الأعداء، على طول السواحل المغربية والأندلسية.

أمّا الجانب الاقتصادي، فقد عرف نفس التطور والازدهار الذي عرفه الجانب العسكري «وقد لبثت الأحوال الاقتصادية بالمغرب والأندلس، في ظل الدولة الموحدية أيام عنفوانها وقوتها طيّبة يدعمها الأمن والرخاء، وتقدّم الزراعة والتجارة، وكان ذلك في عهد الخلفاء الأقوياء منذ عبد المؤمن، حتى أواخر عهد

---

1 - محمد عبد الله عنان، **عصر المرابطين والموحدين في المغرب والأندلس**، ق1، ص28.

2 - رضا عبد الجليل الطيار، **الدراسات اللغوية في الأندلس**، ص12.

3 - محمد عبد الله عنان، **عصر المرابطين والموحدين في المغرب والأندلس**، ق2، ص632.

المنصور»[1] وهذا الوضع الاقتصادي المتميّز الذي عرفته البلاد، أثّــر بطريقــة إيجابية على سلوك الفرد والجماعة، إذ أصبح همّهم طلب العلم وتحصيله بمختلــف الوسائل حتى لو تطلّب ذلك الهجرة إلى المشرق. أمّا الجانــب الاجتمــاعي فقــد تطورت فيه العلاقات الاجتماعية بين المسلمين وترقّت إلى أعلى المســتويات، إذ أصبحت المرأة عندهم تخرج دون أن يتعرض لها أحد بعد أن كانــت لا تســتطيع التجوّل في الأسواق خوفا من أن يعترض سبيلها فاسق أو فاجر، إذ ارتفع المستوى الأخلاقي، وازدادت رغبتهم في التزوّد بمختلف العلوم والمعارف، عكس ما كــان سائدا من قبل من انحطاط في المستوى الخلقي، وانتشار البغي والفساد في كثير من المدن المغربية والأندلسية الأمر الذي جعل المهدي بن تومرت يثور علــى هــذه الأوضاع، ويحاول إنقاذ ما يمكن إنقاذه، في مجتمع أصبح اللهو والمجون طابعــا خاصا لحياة الناس فيه.

ومن مظاهر الرقيّ الاجتماعي الذي ساد في عهد الموحدين انعدام الســرقة وإعادة الأمانة إلى صاحبها «وكان الدينار يقع من الرجل في الشــارع العمــومي فيبقى ملقى، لا يرفعه أحد عدة أيام إلى أن يأخذه صاحبه، ويمكث القاضي الشــهر وأكثر لا يجد من يحكم عليه لتناصف الناس، وارتفاع مستواهم الخلقــي»[2] هــذا المستوى الرفيع الذي بلغه سكان المغرب والأندلس، تضافرت مــن أجلــه جميــع الجهود وتكاثفت مختلف الهيآت لمحاربة المنكر والفقر والفساد الذي كان يعمّ هــذه البلاد، والتي كان سكانها يتخبّطون في مستنقعات الجهل والشعوذة هذه الأوضــاع جعلت كلاً من مؤسس الدولة المرابطية عبد الله بن ياسين ومؤسس الدولة الموحدية المهدي بن تومرت يثوران ضدّها، ويحاولان القضاء عليها، وكأنّ التــاريخ يعيــد نفسه.

---

1 - محمد عبد الله عنان، **عصر المرابطين والموحدين في المغرب والأندلس**، ق2، ص626.

2 - عبد الله كنون، **النبوغ المغربي في الأدب العربي**، ج1، ص115.

تميّزت الدولتان المرابطية والموحدية بمميّزات جعلتهما تتّفقان وتشتركان في العديد من الأمور، منها انتماؤهما إلى « طائفة من تلك القبائل البربرية التي أخذت على كرّ العصور في حكم المغرب وسيادته بأوفر نصيب.

– نشأت كلتا الدولتين في ظروف متشابهة ... فقامت كلتاهما على أسس دينية، وعلى يد فقيه وداعية متعصّب، فكان داعية الدولة المرابطية الفقيه عبد الله بن ياسين، وكان داعية الدولة الموحدية المهدي بن تومرت.

– تحولت كلتاهما إلى ملك سياسي على يد زعيم موهوب، وقائد بارع، فكان يوسف بن تاشفين زعيم الدولة المرابطية الذي وطّد دعائمها، وشاد ملكها السياسي وكان قرينه عبد المؤمن بن علي هو الذي وضع أسس الدولة الموحدية ووطّد دعائمها.

– استطاعت الدولة الموحدية بعد أن قضت على الدولة المرابطية أن تسيطر على نفس الرقعة الإقليمية الشاسعة التي كانت تحتلها، سواء في المغرب أو الأندلس، وإن كانت الأندلس لم تخلص للموحدين إلاّ بعد فترة من الصراع المحلي ولاسيما ضد الثورة في شرق الأندلس»[1] إذ أنّ سكان المغرب والأندلس ليسوا بعرب، وإنّما عرّبهم الإسلام الذي اختاروه دينا لهم، بعدما رأوا أنه العامل الوحيد الذي يمكنه إخراجهم من حياة العبث واللامبالاة التي كانوا يحيونها. فعملوا على الإطاحة بملوكهم لما تميّزوا به من خيانة وتآمر مع ملوك النصارى ضدّ إخوانهم من المسلمين، ممّا أدّى إلى سقوط دول ملوك الطوائف الواحدة تلوى الأخرى وقيام دولة المرابطين أوّلا، ثمّ تأتي بعدها دولة الموحدين، في ظروف تكاد تكون نفسها لولا اختلاف الزمان والشخصيات.

ونجد أيضا أن الدافع الذي «حرك المرابطين والموحدين نحو الأندلس دافع الجهاد بمفهومه الديني فضلا عن الأطماع المألوفة للسيطرة على بلد غني مزدهر

---

1 - محمد عبد الله عنان، **عصر المرابطين والموحدين في المغرب والأندلس**، ق1، ص26.

علميا مثل الأندلس»[1] ففي هذا العهد نبغ العديد من العلماء من الفلاسفة والأطباء وأعلام الفقه والتصوف، وكبار اللغويين والنحاة والمفسرين إضافة إلى الشعراء والكتاب ومؤرخي الآداب.

هذا بالإضافة إلى أنّ كلاًّ من الدولتين أوقفت زحف النصارى، خاصة في شمال الأندلس، كما وفقتا في إخماد الثورات التي كانت تندلع من حين لآخر فأحكمت كل منهما سيطرتها على الأوضاع خاصة السياسية والعسكرية منها سواء كان ذلك في المغرب أو الأندلس.

عاشت المغرب والأندلس في عهد الدولتين المرابطية والموحدية رخاء ماديا ونوعا من الهدوء والسكينة، ممّا جعل سكانهما يهتمون بالاقتصاد والعمران أكثر من السياسة والجيش.

عرفت الحركة الفكرية والعلمية في عهد الدولتين تطوّرًا كبيرا، نظرا لتشجيع الملوك والأمراء للعلم والعلماء، فقد بلغ سكان المغرب والأندلس درجة عالية من الثقافة العلمية، ففي العهد المرابطي وخاصّة في عهد يوسف بن تاشفين اتّسم الميدان العلمي بتطور كبير، لأنّ أساس دعوة المرابطين كانت قائمة على العلم والعلماء، إذ كان تشجيع الأمراء للعلم حافزا كبيرا للعلماء على مواصلة البحث، حتّى أنّ النصف الأول من القرن السادس الهجري، وهو الذي يستغرق عهد المرابطين كان يتميّز بنبوغ عدد كبير من العلماء والأدباء والشعراء... أما في العهد الموحدي، فقد كان المغرب والأندلس حافلين بالحركات الفكرية والعلمية نظرا لتحليّ خلفاء الموحدين جميعهم بالصفات العلمية « ولقد كان لهذه النزعة العلمية، التي غلبت على معظم الخلفاء الموحدين أثر كبير فيما جرت عليه الدولة الموحدية طوال أيامها، من رعاية للعلماء والمفكرين من كلّ ضرب، وحشدها لأعلام الكتّاب والمفكّرين حول البلاط الموحّدي سواء في مراكش أو اشبيلية»[2] إذ

1 - رضا عبد الجليل الطيار، **الدراسات اللغوية في الأندلس**، ص13.

2 - محمد عبد الله عنان، **عصر المرابطين والموحدين في المغرب والأندلس**، ق2، ص647.

كانت المدن المغربية والأندلسية كمراكش فاس قرطبة واشبيلية... مهدا للكثير من العلماء، يقصدونها من مختلف المناطق من أجل التّحصيل العلمي لأنّ حضارات الشّعوب وتطوّرها، تقوم على مدى ما يتحلّى به ولاّة أمورها، وأفراد مجتمعها من العلم والمعرفة.

إلاّ أنّ الدولة الموحدية التي كانت مثالا للقوّة والعظمة سقطت، وكان من عوامل سقوطها خيانة الأندلسيين للناصر، إلى جانب غروره «فهو قد اغترّ بكثرة ما حشده من الأجناد وجمعه من الأعداد فلم يأبه بمقاتلي الأندلس الذين كانوا أعرف من غيرهم بثغور العدوّ وأبصر بمواطن الضّعف من بلاده»[1] فسقطت هذه الدولة التي كانت مثالا للقوّة والعظمة واندحرت في وقت قياسي، كما اندحرت قبلها الدولة المرابطية، وممّا عجّل من اضمحلالها استيلاء بني مرين على معظم المدن وإعلانهم عن قيام دولتهم، وتنصيب سلطان لهم، مع محاربة ما بقي من أتباع الموحدين.

سقطت الدولة الموحدية، وسقط معها ملك المسلمين، ومكانة الإسلام في المغرب والأندلس تلك المكانة التي عملت من أجلها أجيال من المرابطين والموحدين، الذين اتّسموا بالمبادئ الإسلامية الحقّة وحاولوا بكلّ ما أوتوا من قوّة ترسيخها والحفاظ عليها من خطر النّصارى الذي ظلّ يلاحقها مدى طويلا، إلى أن قضى عليها، بعد تشتّت كلمة المسلمين وانشغال ولاة الأمور بمصالحهم الشخصية وإهمال أمور الرعيّة.

1 - عبد الله كنون، **النبوغ المغربي في الأدب العربي**، ج1، ص185.

الفصل الأوّل

اتجاهات الدّرس اللّغوي في المغرب والأندلس
خلال القرنين السادس والسابع الهجريين

مدخل:

بدأ اهتمام المغاربة والأندلسيين بمجال الدراسات اللغوية، منذ دخول الفاتحين الأوائل إلى بلادهم، حيث كانت عَجَمة لسانهم حافزا لهم على تعلّم لغة القرآن الكريم، إذ «كان الأساس الأوّل للثقافة والأدب في المغرب والأندلس هو القرآن الكريم وعلوم الدين واللّغة والأدب الجاهلي كما كان الأمر في المشرق»[1] فتعلُّم لغة القرآن يعني فهمه والحفاظ عليه من ألسنة الناس، التي كثر فيها الخطأ لعدم تعلّمهم اللّغة العربية تعلّما صحيحا في أوّل الأمر فانتشرت دور العلم وأصبحت الحلقات في المساجد تستقطب العديد من الدارسين، يلقي المعلمون فيها دروسهم في مختلف الميادين، مع تركيزهم على تعليم اللّغة العربية، كما كان الدارسون يرحلون إلى المشرق لاستكمال ما فاتهم من علوم، بعد أن يستوفوا متطلبات الدرس الأولى بتعلُّم مبادئ العربية، ودراسة النصوص والأشعار، إذ كان الدافع إلى الهجرة هو حرصهم على سلامة القرآن واللغة العربية، والحفاظ عليهما كما وصلا إليهما من المشرق العربي عن طريق المهاجرين، الذين حاولوا نقل مختلف العلوم العربية لبلد حديث العهد بالإسلام واللّغة، إذ كثرت رحلات المغاربة والأندلسيين إلى المشرق من أجل الحصول على ما لم يصلهم عن طريق المعلّمين الأوائل، فقد كان المشرق بالنسبة إليهم مهد العلوم والحضارات، وموطن اللّغة العربية والقرآن الكريم، إذ كانت العلوم التي وصلتهم عن طريق الرواية تتمثل في الفقه والحديث والأشعار أمّا علوم النحو والصرف والبلاغة والعلوم اللسانية فقد تأخّر وصولها إليهما، نظرا لطبيعة المهاجرين الأوائل الذين اختصّوا بعلوم دون غيرها، ممّا جعلهم يحوّلون أنظارهم إلى المشرق، من أجل الاطّلاع على مختلف

1- عبد الله شريط، **تاريخ الثقافة والأدب في المشرق والمغرب**، ط3. الجزائر: 1983، المؤسسة الوطنية للكتاب، ص146.

ميادين العلوم المزدهرة هناك، وبعد عودتهم إلى بلدانهم ينشرون ما تعلمـــوه عـــن طريق مجالس الدرس التي كانوا يتصدّرونها.

انتشرت العلوم المختلفة (اللغوية والأدبية والنحوية) في المغرب والأندلس لحرص أهلها الشديد على العلم والتّعلم، فكان الفقه أوّل العلوم التي تصدر العلماء لإقرائها في مختلف دور العلم نظرا للمكانة السامية التي كان الفقيه يحتلّها في المجتمعين المغربي والأندلسي، فقد كانت «قراءة القرآن بالسبع ورواية الحديث عندهم رفيعة وللفقه رونق ووجاهة... وسمة الفقيه عندهم جليلة، حتى إنّ المسلمين كانوا يسمّون الأمير العظيم منهم، الذي يريدون تنويهه بالفقيه»[1] كان للفقه والفقهاء في عهد المرابطين خاصّة مكانة رفيعة، فقد شاركوا في الحكم وكان الخلفاء يأخذون برأيهم ويستشيرونهم في أمور الرعية، إذ كان لهم دور كبير في الحياة السياسية والاجتماعية والثقافية، لأنّ الفقيه عندهم تعظّمه العامة والخاصّة يحترمونه ويقدّرونه، ويجعلون أمورهم بين يديه.

وكان تعظيم الخلفاء للعلوم وخاصّة الفقه وأصوله حافزا مهمّا فـــي تطـــوّر الحياة العلمية فقد أصبح الجانب الديني أكثر تميّزا، وتطبيقـــا للمبـــادئ الإســـلامية برعاية الفقهاء الذين كانت لهم يد في تسيير شؤون الدولة، سواء كان ذلـــك مـــن قريب أو بعيد. وإضافة إلى الفقه وعلوم الدين كان للعلوم الأدبية حظّ وافـــر فـــي نفوس المغاربة والأندلسيين فقد كان «علم الأدب المنثور في حفظ التاريخ والـــنظم والنثر، ومستطرفات الحكايات أنبل علم عندهم، وبه يتقرّب من مجـــالس ملـــوكهم وأعلامهم، ومن لا يكون فيه أدب من علمائهم فهو غفل مستثقل... وللشعر عندهم حظّ عظيم، وللشعراء من ملوكهم وجاهة، ولهم عليهم حظ ووظـــائف والمجيـــدون

1- محمد عبد المنعم خفاجة، **قصة الأدب في الأندلس**، دط. بيروت: 1962، مكتبة المعارف ص191.

منهم ينشدون في مجالس عظماء ملوكهم المختلفة»[2] ويقول عبد الله كنون في كتابه "النبوغ المغربي في الأدب العربي": «ظهر في هذا العصر أيضا (عهد المرابطين) الاشتغال بالعلوم الأدبية واللسانية من نحو ولغة وشعر وكتابة»[1] كان لتشجيع العلماء في الدولة المرابطية والموحدية أثر كبير في تطور مختلف العلوم وازدهارها، فقد استمرت الحركة العلمية قائمة رغم شيوع الاضطرابات، وكثرة الحروب والثورات، فعلى الرغم من أنّ القرن السادس الهجري قد تميّز بالحروب الطاحنة، التي ما فتئت تندلع من حين لآخر، فإنّ الحركة العلمية بصفة عامة واللغوية بصفة خاصّة قد استمرّتا وازدهرتا بشكل كبير، نظرا لتوفّر الهدوء والاستقرار في بعض الأحيان، إبان حكم يوسف بن تاشفين في العهد المرابطي وإلى غاية حكم يعقوب المنصور ونلمس ذلك من خلال العدد الكبير من العلماء والمؤلفات التي ظهرت في تلك الفترة، وقد استمرت هذه الحركة في التقدّم في عصر الموحدين أيضا لأنّ الظروف الاجتماعية والسياسية والاقتصادية لم تتغير كثيرا، فالثورات بقيت قائمة من حين لآخر والمناوشات بين رجال الدولة والمعارضين للحكم سادت إلى نهاية الحكم الموحدي ومن جاء بعده، إلاّ أنّ الظروف الاجتماعية والاقتصادية قد تحسنت أكثر ممّا كانت عليه في عهد المرابطين، كل هذه الظروف ساعدت على نبوغ طبقة من العلماء في مختلف الميادين العلمية الأخرى. إذ لم تكن العلوم الفلسفية والرياضية والطب قليلة الحظ من العناية بها والإقبال عليها «فكان أبو العلاء بن زهر الطبيب ممّن حظي عند علي بن يوسف، وهو الذي أمر بجمع مجرّباته بعد موته ... وقبل ضمّ الأندلس إلى المغرب كان بسبتة ابن مرانة، وهو أعلم الناس بالحساب والفرائض والهندسة

2- محمد عبد المنعم خفاجة، **قصة الأدب في الأندلس**، ص 191.

1- عبد الله كنون، **النبوغ المغربي في الأدب العربي**، ج1، ص80.

والفقه»[1] تعددّت العلوم والمعارف خلال القرنين السادس والسابع الهجريين واختلفت اهتمامات المغاربة والأندلسيين فمن قارئ، إلى راوية، إلى مجوّد إلى طبيب، إلى شاعر، إلى أديب، إلى غير ذلك من الميادين التي أبدعوا فيها، وكانت لهم إسهامات خاصّة وكبيرة فيها، أذهلوا بها علماء المشرق، الذين اعتقدوا دائما أن علوم العربية حكر عليهم، ولا يمكن لغيرهم الإبداع فيها.

أمّا النحو العربي، وهو ميدان دراستنا هذه، فقد لقي من الإقبال ما مكّنه من تبوّء المراتب الأولى ضمن مختلف العلوم اللغوية والأدبية، فقد دخل النحو المغرب والأندلس وأقبل عليه أهلهما إقبالا واسعا، بالدرس والتحليل، ومحاولة كشف غوامضه وتذليل صعابه من أجل فهمه واستيعابه، فنال من العناية والاهتمام ما لم ينله علم آخر، غير الفقه الذي تميّز بتشجيع ولاة الأمور لأهله، وإشراكهم في تسيير أمور الدولة، إضافة إلى الشعر الذي كان إلى جانب النحو دائما، فقد كان «رأس العلوم عندهم (المغاربة والأندلسيين) النحو والشعر»[2] اهتّم ولاّة الأمور من الخلفاء والأمراء بالشعر والشعراء اهتماما كبيرا نظرا لحاجتهم إليهم، في ذكر مناقبهم ومدحهم لدى العامة، وإبلاغهم بمدى حرصهم على أمور الرعية، في وقت تميّزت فيه الأحوال السياسية والعسكرية في المغرب والأندلس باضطراب شديد. فكان الشعر إلى جانب النحو يتمتّع بمكانة رفيعة، إلاّ أنّ العناية بالنحو العربي كانت أكبر، إذ بلغت أوجّها منذ عهد ابن السيد البطليوسي (ت 521 هـ)، وإلى غاية عهد ابن الضائع (ت680 هـ) الذي كان يعد من أواخر نحاة المغرب والأندلس قبل سقوط الدولة الموحدية على يد بني مرين.

تميّزت الدراسات اللغوية في المغرب والأندلس بالتطور والازدهار، رغم ما سادهما من الحروب والاضطرابات، بسبب رغبة الجميع في الحكم بداية بملوك الطوائف، ثمّ خلفاء المرابطين وبعدهم الموحدون الذين انكسرت شوكتهم على يد

1- عبد الله كنون، **النبوغ المغربي في الأدب العربي**، ج1، ص192.

2- سعيد الأفغاني، **من تاريخ النحو**، دط. بيروت: د سنة، دار الفكر، ص97.

بني مرين، فرغم ذلك الصراع الشديد حول السلطة إلاّ أنّ الجانب العلمي لم يتأثّر به كثيرا، إلاّ في القليل الذي يتمثل في هجرة بعض علماء المغرب والأندلس إلى المشرق العربي كما فعل الشاطبي (ت590 هـ) وابن مالك (ت672 هـ) بحثا عن الهدوء والراحة، التي افتقدوها في بعض الأحيان في بلادهم إلى جانب رغبتهم في الحج، ولقاء العلماء والاطّلاع على مختلف العلوم[1] بدأت هذه الظاهرة تنتشر بين علماء المغرب والأندلس خاصّة أنّ منهم من نال مرتبة علمية مميزة في المشرق نظرا للتدهور العلمي الكبير الذي أخذ يصيب العالم العربي والإسلامي في هذه الفترة بسبب الجمود الفكري وقلة الإبداع، وميل أكثر العلماء إلى تأليف الكتب الضّخام بجمع ما ألّفه القدماء، فنجد ابن مالك مثلا الذي رحل من الأندلس يبدع في مؤلفاته وخاصّة في نظمه للألفية، التي نالت من الشهرة ما لم تنله كتب المشارقة في هذه الفترة.

❖ **الدراسات اللغوية في المغرب والأندلس:** اهتمّ المغاربة والأندلسيون باللغة العربية منذ أن وطئت أقدام الفاتحين الأوائل بلادهم، إذ حاولوا دراسة هذه اللغة، وكل ما يتعلّق بها من أجل فهمها وفهم الكتاب الذي نزل بها، وما يلاحظ أنّ حركة التأليف قبل القرن الرابع الهجري لم تكن مزدهرة لأنّ العلماء لم يعتمدوا الكتابة، إذ « يبدو أنّ النشاط التأليفي ظلّ ضعيفا محدود المجال، وأنّ حياة اللّغة غلب عليها الجانب الشفوي»[2] فقد اعتمد الدارسون والمدرّسون على المناقشة والمناظرات الشفوية دون تدوينها، لكن فيما بعد وخاصّة خلال القرنين السادس والسابع الهجريين تغيّر اتّجاه الحركة اللغوية من المشافهة إلى الكتابة، فأخذ العلماء في تدوين العلوم والمعارف من أجل تدريسها والحفاظ عليها للأجيال اللاحقة، إذ لو لم يفعلوا ذلك لضاع كلّ شيء؛ بسبب الحروب والثورات التي كانت سائدة في هذه الفترة، بداية مع ملوك الطوائف، ثمّ المرابطين والموحّدين.

1- ينظر: رضا عبد الجليل الطيار، **الدراسات اللغوية في الأندلس**، ص46.

2- ألبير حبيب مطلق، **الحركة اللغوية في الأندلس**، دط. بيروت: 1967، المكتبة العصرية ص65.

وقد تأثّرت الحركة اللغوية في المغرب والأندلس بعوامل ساهمت بشكل كبير في تطويرها حيث «تعدّدت المراكز الثقافية، وأصبح لكلّ دولة من دول الطوائف مركز مهمّ من مراكز الأدب والعلم كقرطبة واشبيلية، غرناطة والمرية... كما أنّ إنشاء المكتبات وجمع الكتب في مختلف العلوم ساعد على إثراء العقول وحفّز على نشاطها وإبداعها»[1] أضف إلى ذلك تشجيع الخلفاء للعلم والعلماء وتحفيزهم على العمل والمثابرة، وإغراءهم بكلّ الوسائل من أجل القدوم إلى المغرب والأندلس فقد ساهم كلّ هذا كثيرا في النهوض بالحركة اللغوية في هذين القطرين، وكانت الرحلة إلى المشرق من أجل تحصيل العلوم هدف معظم العلماء في المغرب والأندلس، وكان منهم من يأبى العودة إلى موطنه، مفضّلا المكوث والتحصّن بمزيد من العلوم، إلى جانب حجّ بيت الله الحرام، لذلك رأى الخلفاء والأمراء أنه من الواجب توفير كل الظروف الملائمة لهم من أجل العودة إلى مواطنهم والاستفادة من العلوم التي أخذوها عن المشارقة، وقد كانت قرطبة – فيما يُروى – «أكبر قطب علمي تجتذب إليها المشتغلين بالعلوم اللغوية»[2] ونجد أنّ أهم ما ميّز الحركة اللغوية في المغرب والأندلس خلال القرنيين السادس والسابع الهجريين هو ما يلي:

– اتساع نطاق الدراسات اللغوية، فقد اهتّم العلماء بمختلف العلوم وألّفوا فيها العديد من الكتب[3] ففي التّأليف المعجمي نجد البلوي (ت604 هـ) في معجمه "ألف باء" وأبا الطاهر السرقسطي (ت538هـ) في معجمه "المسلسل" كما نجد في الشرح والتفسير السهيلي (ت581هـ) في كتابه "الروض الأنف"، والخشني (ت604 هـ) في كتابه "شرح السيرة النبوية" وفي كتب التفسير نجد ابن عطية (ت541هـ) في كتابه "المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز"، وابن العربي (ت543هـ) في كتابه "أحكام القرآن"[4] إلى غير ذلك من الكتب والمؤلفات التي تميّزوا بها.

1- ألبير حبيب مطلق، **الحركة اللغوية في الأندلس**، ص262.

2- المرجع نفسه، ص53.

3- ينظر: نفسه، ص111.

4- ينظر: نفسه، ص57، 69، 153، 164، 201، 207.

– اتّساع ثقافة الدارس اللغوي وتحصيله، وظهور العالم اللغوي الأندلسي الذي يقف على مستوى أكابر علماء المشرق[1] ففي بداية الحركة اللغوية في المغرب والأندلس لم يكن باستطاعة علمائهما احتلال المكانة التي وصل إليها المشارقة، خاصّة ما يتعلّق باللّغة العربية والقرآن الكريم، لكن فيما بعد، وخلال القرنيين السادس والسابع الهجريين تمكّنوا من مختلف العلوم العربية، وأصبح لبعضهم شأن كبير في هذا المجال، حيث ذاع صيتهم في مختلف البلدان العربية والإسلامية كالسهيلي (ت581هـ)، وابن مضاء (ت592هـ)، ابن خروف (ت609هـ)، ابن هشام الخضراوي (ت646هـ)، ابن عصفور (ت663هـ) وغيرهم وأصبح المشارقة يهتمون بمؤلفاتهم ويأخذون عنها.

وقد تحدّثت المصادر عن «حوالي خمسة عشر عالما دخلوا الأندلس خلال القرنيين السادس والسابع الهجريين، لكن لا يوجد بينهم عالم باللّغة أو النحو، إذ يغلب الاشتغال بالحديث على معظمهم»[2] بعدما كانت الرحلة إلى المشرق هدفا لعلماء المغرب والأندلس من أجل تحصيل مختلف العلوم عن العلماء هناك، انعكس الأمر، وأصبح المشارقة يرحلون إليهما من أجل التزوّد بمعارف علمائهما، خاصّة بعد التدهور العلمي الكبير، والركود المعرفي الذي أصاب علماء المشرق، حيث أصبحوا يهتمّون أكثر بتأليف الموسوعات وكتب الشروح والتعليقات، التي كانوا يعتمدون فيها على من سبقهم.

ازدهرت العلوم اللغوية في المغرب والأندلس، خلال القرنين السادس والسابع الهجريين وتمكّن علماؤهما من الارتقاء بالجانب العلمي والمعرفي وساهموا بشكل كبير في تقدمه وتطوره وذلك باعتمادهم في بداية الأمر على العلوم المشرقية، التي كان لها السبق لأنّ اللّغة العربية لغة أهلها، والقرآن الكريم نزل بين

1- ينظر: ألبير حبيب مطلق، الحركة اللغوية في الأندلس، ص111.

2- ينظر: المقرى، **نفخ الطيب من غصن الأندلس الرطيب**، تح: إحسان عباس. بيروت: 1968 دار صادر، ج3 ص5، 149.

ظهرانيهم، وعلى نبيّ منهم، ثمّ استقلّوا بعد ذلك بالبحث، فأبدعوا في مختلف الميادين وألّفوا العديد من الكتب خاصّة في العلوم اللغوية والنحوية.

ومن الدراسات اللغوية التي اهتّموا بها وألّفوا فيها نجد ما يلي:

1- الدراسات المعجمية: بدأ التأليف المعجمي في المغرب والأندلس منذ القرن الرابع الهجري فقد ألّف أبو علي القالي (ت356هـ) معجمه "البارع" الذي «يعدّ أوّل معجم أندلسي، وإن لم يكن له من الأندلسية إلاّ مكان التأليف»[1] فقد هاجر صاحبه إلى الأندلس رغبة منه في اكتشاف هذه البلاد، التي استقبلت العرب والمسلمين واعتنق أهلها الدّين الإسلامي واللّغة العربية، ويعدّ معجمه "البارع" نسخة عن معجم "العين" للخليل، إذ يقول محقّقه الأستاذ "هاشم الطّعان": «ولقد أُتيح لي وأنا أحقّق النص الذي بين يديّ من "البارع" أن أقارن ما ورد فيه عن الخليل وهو أعظم الكتاب بنسختين مخطوطتين من "العين"، فإذا بالكتابين متطابقان... وبهذا يكون "البارع" أقدم نسخة وصلت إلينا من كتاب "العين"»[2] يعدّ معجم "العين" أوّل ما أُلّف في مجال الدراسات المعجمية عند العرب، ولا غرابة في الأمر إذا قلنا إنّ المعاجم التي أُلّفت بعده اتّخذت نفس المنهج، الذي اتّخذه الخليل في منهجه وترتيب مادّته، إذ نجد الكثير منها يكاد يكرّر نفس ما قاله «وتقوم بحوثها حوله استدراكا ونقدا، ودفاعا واختصارا، ومن هذه الكتب معجمات لغوية اتّخذت من منهج العين منهجا لها سارت عليه»[3] ونجد من بينها معجم "تهذيب اللّغة" للأزهري (ت370هـ) الذي يعدّ تابعا في منهجه للعين تبعية كاملة. كما نجد معجم "المحيط" للوزير الأديب المشهور الصاحب بن عباد (ت385 هـ) في المشرق، أمّا في المغرب والأندلس فنجد كما سلف الذكر معجم "البارع" للقالي، وأيضا "مختصر العين" للزبيدي (ت379هـ)، فالكتاب كما هو واضح من عنوانه اختصار لكتاب

1- أحمد مختار عمر، **البحث اللغوي عند العرب**، ص177.

2- المرجع نفسه، ص178.

3- محمد حسين آل ياسين، **الدراسات اللغوية عند العرب إلى نهاية القرن الثالث**، ص257.

العين للخليل، مع تعديلات طفيفة وتصرّف ليس بالكثير[1] كما نجد أيضا للزبيدي «معجم المستدرك من الزيادة في كتاب البارع للقالي على كتاب العين للخليل واستدراك الخطأ الواقع في كتاب العين»[2] ونلاحظ من خلال هذه المؤلفات أنّ العلاقة بينها وبين معجم "العين" للخليل كبيرة ووطيدة، فتكرار ما قاله الخليل مع بعض التعديل أو نقده باستخراج الأخطاء التي وقع فيها وتصحيحها كان أهم ما ميّز هذه المعاجم التي يعد أصحابها من بين الأوائل الذين ألّفوا في هذا الميدان بعد الخليل.

بعد هؤلاء ألّف ابن التياني أبو غالب تمام بن غالب (ت436 هـ) معجمه "مُوعب اللّغة" وله أيضا "مختصر للجمهرة"[3] ثمّ نجد بعده معجم "الجامع" لأبي محمد عبد الله بن أحمد المالقي العشاب المعروف بالبيطار (ت 646هـ) والذي ضمّنه سائر أقوال السابقين من عرب ويونان وفرس وهنود ولاتين. كما نجد أيضا معجم "المبرز في اللّغة" لأبي عبد الله محمد بن يونس الحجاري (ت462هـ)[4] إضافة إلى معجم "كفاية المتحفظ ونهاية المتلفظ" لابن الأجدابي (ت477هـ) إذ يقول: «هذا الكتاب مختصر في اللّغة، وما يحتاج إليه من غريب الكلام، أودعناه كثيرا من الأسماء والصفات، وجنّبناه حوشي الألفاظ واللغات وأعريناه عن الشواهد ليسهل حفظه ويقرب تناوله، وجعلناه مغنيا لمن اقتصر في هذا الفن ومعينا لمن أراد الاتساع فيه»[5] شرح ابن الأجدابي منهجه في وضع معجمه، حيث جعله ملمّا بما يحتاج إليه دارس اللّغة، من أجل فهم أكثر، فابتعد عن كل ما يمكن أن يصعّب

1- أحمد مختار عمر، **البحث اللغوي عند العرب**، ص177، 179-180.

2- ألبير حبيب مطلق، **الدراسات اللغوية في الأندلس**، ص53.

3- المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

4- يوسف عيد، **النشاط المعجمي في الأندلس**، ط1. بيروت: 1992، دار الجيل، ص153، 168. بتصرف.

5- أحمد مختار عمر، **البحث اللغوي عند العرب**، ص258.

إدراك المصطلحات والألفاظ، فجاء معجمه مختصرا، يحتوي على معظم ما قد يفيد الدارسين والباحثين واللغويين.

كما ألّف ابن سيده (ت458 هـ) معجميه "المحكم" و"المخصص"، أمّا "المخصص" فيعد «أوفى وأشمل معجم من معاجم المعاني في تاريخ اللّغة العربية وقد استعان صاحبه في تأليفه بكل ما كتب قبله تقريبا من مؤلفات الغريب المصنف، والصفات والألفاظ والمعاجم اللغوية، وكتب اللّغة المختلفة»[1] أبدع ابن سيده في تأليفه لهذا المعجم، فخالف من جاء قبله في تقليدهم للخليل بن أحمد وأخذهم عنه في منهجه وجمع ووضع مادته، لكنه في "المحكم" سار على نهج من سبقوه ولم يستطع مخالفتهم، إذ جاء هذا المعجم على نظام العين مع فروق طفيفة.

لا يكاد يخلو منهج مؤلّف في ميدان الدراسات المعجمية من تقليد للخليل في معجمه "العين" في كثير من الأمور، التي يجمع معظم الباحثين على جعلها من القواعد الأساسية التي يجب على كلّ مؤلف الأخذ بها، فهذه المعاجم التي تميّز بها علماء المغرب والأندلس لا تختلف منهجيا عن طريقة القدامى في تأليفهم، إذ نجد أنّ هناك ظاهرة عامة واضحة في المعاجم العربية، وهي أنّ المتأخرين اعتمدوا على السابقين لهم إلى حد بعيد، فمنذ أن ألف الخليل معجمه "العين" والعلماء يسيرون على نهجه خاصّة في العصور التي تلته لأنّهم انبهروا به وبما جاء فيه نظرا لعدم عهدهم بهذا النوع من المؤلفات. فقد كان الإبداع في هذا الميدان في أول الأمر عند الخليل، ثمّ تتابعت المؤلفات بعده تسير على خطاه.

يقول ابن حويلي الأخضر ميدني في كتابه "المعجم اللغوي العربي من النشأة إلى الاكتمال": «أخذ المعاجم بعضها عن بعض ثابت بالدليل القطعي، فقد كاد كثير من المعاجم يكرر نفسه، ولا عجب، فهو يستقي من نبع واحد، هو الذخيرة العربية

1- أحمد مختار عمر، **البحث اللغوي عند العرب**، ص254.

المتوفرة دون قيد والمتمثلة في الرصيد الشعري والنثري»[1] وقد نشأت الدراسات اللغوية عند العرب لسبب يعدّ أهم الأسباب، التي يمكن لأي دراسة أن تنشأ لأجله؛ وهو الحفاظ على سلامة القرآن الكريم واللغة العربية اللذين يعدان من مقومات الأمة لذلك فلا عجب أن تتشابه المؤلفات، لأنها ألفت لنفس السبب أيضا.

كان التأليف في المعاجم من بين اهتمامات العلماء المغاربة والأندلسـيين رغم أنهم لم يؤلفوا فيها الكثير، فقد صرفوا اهتمامهم إلى دراسة النحو العربي والتأليف فيه أكثر من العلوم اللغوية الأخرى، التي تأخروا بعض الشيء عن التطرّق إليها، خاصّة خلال القرنين السادس والسابع الهجريين، إذ تكاد تنعدم فيهما مثل هذه المبادرات، غير أننا نجد بعض الكتب التي ألفت خلال هذه الفترة مثل "المسلسل في غريب اللّغة" لأبي الطاهر السرقسطي (ت548هـ)، وأخرى اعتمدت على المعاجم الموضوعة سابقا، فقد ألف البلوي (ت 604 هـ) كتابه "ألف باء" كما ألف ابن برجان اللغوي أبو الحكم عبد الرحمان عبد السلام (ت 627هـ) كتابا ردّ فيه على ابن سيده، بيّن فيه أغلاطه في المحكم، إلى جانب الأعلم البطليوسي أبو إسحاق إبراهيم بن محمد (ت637 هـ) الذي وضع كتابا جمع فيه بين صحاح الجوهري والغريب المصنّف في اللّغة لأبي عبيد القاسم بن سلاّم[2] وهناك نوع آخر من المعاجم اهتم بها علماء المغرب والأندلس تسمى بمعاجم الأفعال نجد من بينها معجم "الأفعال" لعبد الملك بن طريف، "فعلت وأفعلت" للقالي، "الأفعال الثلاثية والرباعية" لابن القوطية (ت367هـ) "معجم الأفعال" لابن القطاع، كتاب "الأفعال" لأبي عثمان سعيد بن محمد المعافري[3] ومن المعاجم التي لم تصل إلينا نجد: "بحر الدرر وروض الفكر" لأبي مروان عبد الملك بن يزيد المرواني توفي بعد سنة

1- ابن حويلي الأخضر ميدني، **المعجم اللغوي العربي من النشأة إلى الاكتمال**، دط، الجزائر: 2003، دار هومة، ص161.

2- رضا عبد الجليل الطيار، **الدراسات اللغوية في الأندلس**، ص54 –55. بتصرف.

3- يوسف عيد، **النشاط المعجمي في الأندلس**، ص178، 181، 183، 186.

(521ه) ونجد أيضا معجم "الباهر" لصاحبه ابن عديس القضاعي أبي حفص عمر بن محمد (ت596 هـ) و"مثلث قطرب" لأبي محمد عبد الوهاب بن محمد بن علي القيسي (ت598 هـ) وكذلك نجد ابن حاج الإشبيلي أبا العباس أحمد بن محمد الأزدي (ت651 هـ) وله حواش أو نقود على صحاح اللغة للجوهري(1) فهذه المجموعة من المعاجم لم تستفد منها المكتبات العربية والإسلامية، ولا العلماء المختصون في هذا الميدان، غير أنّ الواضح من خلال هذه المؤلفات أن المغرب والأندلس لم يكونا بعيدين عن الحقول العلمية المزدهرة في المشرق فقد أبدع علماؤهما في الكثير من الميادين التي كانت حكرا على العلماء المشارقة.

1-1- ترتيب المعاجم في المغرب والأندلس: اعتمد المؤلفون في المغرب والأندلس في ترتيب مواد معاجمهم على ترتيبات مختلفة، فمنهم من قلّد الخليل في ترتيبه معجم "العين"، ومنهم من ابتكر لنفسه ترتيبا خاصا.

أ- البارع: خالف القالي في معجمه "البارع" الخليل في ترتيب مادته في معجم "العين" فقد اعتمد الخليل الترتيب الصوتي: ع ح ه خ غ/ ق ك/ ج ش ض/ ص س ز/ ط د ت/ ظ ذ ث/ ر ل ن/ ف ب م/ و ا ي.

أمّا ترتيب القالي فقد كان على النحو الآتي: « ه ح خ ع ق ك ض ج ش ل ر ن ط د ت ص ز س ظ ذ ث ف ب م و ا ي»(2) فقد حذف حرف العين الذي جعله الخليل في أول الترتيب وغيّر مواضع بعض الحروف خاصّة في الأول وترك ترتيب بعضها كما جاء في "العين"، ويتمثل ذلك في الحروف الستة الأخيرة.

ب- مختصر العين: أمّا الزبيدي فقد اعتمد ترتيب الخليل، ماعدا بعض التغييرات الطفيفة التي خالف فيها صاحب معجم "العين"، وقد «شمل ذلك زيادة باب للمضاعف الثنائي المعتل وهو عند الخليل مدمج في باب اللفيف، كما يشمل فصل أحرف العلة والهمزة وعدم دمجها كما فعل الخليل وقد بدأ الزبيدي بالهمزة

1- رضا عبد الجليل الطيار، **الدراسات اللغوية في الأندلس**، ص56، 77- 78. بتصرف.

2- أحمد مختار عمر، **البحث اللغوي عند العرب**، ص178.

يليها الياء فالواو»[1] أمّا الخليل فقد بدأ بحرف العين يليها الحاء فالهـاء وختمهـا بالواو فالألف فالياء، فالملاحظ هنا أن الحروف التي ختم بها الخليل ترتيبه عكسها الزبيدي وجعلها في أول ترتيبه.

ج- المحكم: لم يخالف ابن سيده في محكمه الخليل أيضا، إلاّ في بعض الأمور فنظام المحكم «هو نظام العين مع فروق طفيفة، مثل إدماج الخليل الهمزة في حروف العلة وإفراد ابن سيده الهمزة بالذكر، ومثل احتساب الخليل الألف اللينة حرف علة وتجاهلها من ابن سيده تماما، لأن الألف الممدودة في العربية ترد إذا كانت أصلية إمّا إلى الواو أو الياء... حذف المشتقات القياسية لاطّرادها وميّز بين المشتبهات كالجمع واسم الجمع وجمع الجمع»[2]

جاء في كتاب "الحركة اللغوية في الأندلس" لمؤلفه ألبيـر حبيـب مطلـق: «ينقسم معجم ابن سيده إلى حروف مرتبة وفق المخارج، على النحو الآتي: العين الحاء، الهاء، الخاء، الغين القاف، الكاف، الجيم، الشين، الضاد، الصـاد، السـين الزاي، الطاء، التاء، الدال، الظاء الذال، الثاء، الراء، اللام، النون، الفـاء، البـاء الميم، الهمزة، الياء، الواو والألف، وكل حرف من هذه الأحرف ينقسم إلى الأبواب التالية: الثنائي المضاعف الصحيح، الثلاثي الصحيح، الثنائي المضـاعف المعتـل الثلاثي المعتل، الثلاثي اللفيف، الرباعي، الخماسي، السداسي، وقد امـتلأت هـذه الأبواب بالتقاليب»[3]، نلاحظ أنّ التغيير الذي أحدثه ابن سيده على ترتيب حروف معجمه، بالنسبة إلى معجم "العين" كان على مستوى حرفي الدال والتـاء فقـط. إذ جعل ابن سيده التاء قبل الدال، وأيضا في الحروف الأخيرة التي عكسها، وجعـل الهمزة قبلها إذ رتبها الخليل فجاء الواو أوّلا، ثمّ الألف فالياء، أمّا ابن سيده فقد بدأ بالياء فأتبعها الواو ثمّ الألف في الأخير.

1- أحمد مختار عمر، **البحث اللغوي عند العرب**، ص179.

2- المرجع نفسه، ص181.

3- ألبير حبيب مطلق، **الحركة اللغوية في الأندلس**، ص373.

د- المخصص: قسّمه ابن سيده إلى «أبواب رئيسية بحسب الموضوعات وتحت كل باب مجموعة من التقسيمات الفرعية مثل: كتاب خلق الإنسان – كتاب اللّباس – كتاب الطعام... وتحت كتاب خلق الإنسان نجد: باب الحمل والولادة – أسماء ما يخرج مع الولد – الرضاع والفطام والغذاء وسائر ضروب التربية – الغذاء السيئ للولد ...» [1]

ويقول ألبير حبيب مطلق: «ينقسم المخصص إلى كتب، يبحث كل منها في موضوع محدّد أو على الأقل كان يفترض أن يبحث في موضوع محدد، فنجد مثلا: كتاب خلق الإنسان – كتاب الغرائز– كتاب النساء – كتاب الخيل، وتنقسم هذه الكتب من حيث المبدأ إلى أبواب... ومصطلح باب لم يرد في كل حالة، بل كثيرا ما كانت ترد عناوين كثيرة دون أن تميّز، ثمّ يميّز عنوان لاحق بالمصطلح باب أو أبواب، دون أن يكون لهذا العنوان أهمية خاصّة تفرده دون ما سبقه من عناوين، فكتاب اللباس مثلا ترد بعده العناوين التالية: عامة الثياب الرقيق من الثياب الكثيف من الثياب، ثمّ يأتي بعد ذلك باب المخطط من الثياب، فطبيعي أن المصطلح باب هنا لا يميز بشيء هذا العنوان عما سبقه»[2] نلاحظ أنّ معجم "المخصص" يختلف ترتيبه عن معجم "المحكم"، مع أنّهما لمؤلف واحد، إذ نجد أنّ الأوّل مقسم إلى أبواب لا إلى حروف كتقسيم الثاني، لأنّ ابن سيده حاول من خلال هذا الكتاب "المخصص" إتباع منهج آخر غير منهج "العين"، الذي ألف على منواله الكثير ممن سبقوه كأبي علي القالي في "البارع"، الأزهري في "تهذيب اللّغة" والصاحب بن عباد (ت385 هـ) في "المحيط".

ه- كفاية المتحفظ ونهاية المتلفظ: اعتمد ابن الأجدابي في ترتيب مادة معجمه على الأبواب ومنها نجد: «باب في صفات الرجال المحمودة– ومن صفات الرجال المذمومة – باب في صفات النساء المحمودة – ومن مذموم صفاتهن –

1- أحمد مختار عمر، **البحث اللغوي عند العرب**، ص255.

2- ألبير حبيب مطلق، **الحركة اللغوية في الأندلس**، ص364– 365.

معرفة حلى النساء – باب ما يحتاج إلى معرفته من خلق الإنسان»[1] نرى من خلال هذا التصنيف أنّ ابن الأجدابي لم يتبع طريقة الخليل في منهج تأليفه وترتيبه لمادة معجمه، شأن الكثير ممّن سبقوه، وإنّما اتّبع نظام الأبواب الذي لم يتّبعه أحد من العلماء في المغرب والأندلس، إلاّ ابن سيده في معجمه "المخصص" لكن بطريقة مغايرة تماما لطريقة ابن الأجدابي، فابن سيده قسّم معجمه إلى كتب، وكل كتاب إلى أبواب، أمّا ابن الأجدابي فقسّم معجمه مباشرة إلى أبواب.

و– المسلسل: اعتمد أبو الطاهر السرقسطي في معجمه نظاما خاصّا به فقد كان «يذكر اللفظة ثمّ تفسر بلفظة ثانية، وتفسر الثانية بثالثة وهكذا مثل: والنّمط النّوع، والنُّوع العطش والعطش الألب... واللّوح العطش، والعطش الصّدى والصّدى: حشوة الرأس»[2] خالف أبو الطّاهر السرقسطي كل من سبقوه إلى التأليف في المعاجم في المغرب والأندلس، إذ لم يتبع طريقة أيّ منهم، ولا حتّى طريقة الخليل، التي تعتبر عماد التأليف المعجمي عند العرب.

جدول رقم (01): جدول ترتيب حروف المعاجم

المعجم	ترتيبه
العين	ع ح ه خ غ/ق ك/ ج ش ض/ص س ز/ط د ت/ظ ذ ث/ر ل ن/ ف ب م/و أي
البارع	ه ح خ ع ق ك ض ج ش ل ر ن ط د ت ص ز س ظ ذ ث ف ب م ا ي
مختصر العين	ا ي و ع ح ه خ غ ق ك ج ش ض ص س ز ط د ت ظ ذ ث ر ل ن ف ب م
المحكم	ع ح ه خ غ ق ك ج ش ض ص س ز ط ت د ظ ذ ر ل ن ف ب م ا ي و

1- أحمد مختار عمر، **البحث اللغوي عند العرب**، ص285.

2- رضا عبد الجليل الطيار، **الدراسات اللغوية في الأندلس**، ص71، 73. بتصرف.

هذه المجموعة من المعاجم اعتمدت في ترتيب مادتها على الحروف، وقد رتبت الحروف ترتيبا صوتيا لا أبجديا وألفبائيا، كما فعل الخليل فكان التّغيير فقط في مواضعها، فبعضها يقدم وآخر يؤخر محاولين بذلك تغيير مواقع بعض الحروف، إلاّ أنّ المنهج كان نفسه.

أمّا المعاجم التي خالفت الخليل، فقد اعتمدت في ترتيب مادتها نظام الأبواب، نوضح ذلك من خلال الجدول الآتي:

جدول رقم (02): جدول ترتيب حروف المعاجم حسب الأبواب

المعجم	ترتيب أبوابه
المخصص	كتاب خلق الإنسان: (باب الحمل والولادة، أسماء ما يخرج مع الولد والرضاع والفطام والغذاء وسائر ضروب التربية) – كتاب اللباس – كتاب الطعام.
كفاية المتحفظ ونهاية المتلفظ	باب في صفات الرجال المحمودة ومن صفات الرجال المذمومة باب في صفات النساء المحمودة ومن مذموم صفاتهن– معرفة حلى النساء – ما يحتاج إلى معرفته من خلق الإنسان.

أمّا معجم "ألف باء" للبلوي وهو المعني بالدراسة في هذا البحث، فقد كـرّر مؤلفه الألف مع سائر حروف المعجم، ونلاحظ من خلال الترتيب الـذي اعتمـده أصحاب هذه المعاجم أن بعضها لا يختلف كثيرا عن ترتيب أوّل معجـم عربـي فالتأليف المعجمي في المغرب والأندلس بدأ كما بدأ في المشرق العربـي معتمـدا على إبداع الخليل في معجمه "العين"، إلاّ أنّ هناك من حاول الخروج عـن هـذا الترتيب، باستخدام ترتيب آخر مخالف تماما لترتيب من سبقهم من علماء مشارقة أو مغاربة وأندلسيين، فجاءوا بمناهج ميّزت معاجمهم عن باقي المعاجم الأخرى.

1-2- معجم ألف باء للبلوي:

أ- ترجمة المؤلف: هو أبو الحجاج يوسف بن محمد بن عبد الله البلوي ويعرف بابن الشيخ، من أهل مالقة، ومن بيوتها الدينية.

عرف بالاهتمام بالأدب واللّغة العربية والفقه، من شيوخه: السهيلي المالقي وابن قرقول وابن دحمان وغيرهم، وله رحلة إلى المشرق حجّ فيها، وذلك فيما بين (560 – 562هـ)، وقد عرف بالورع والتصوّف والزهد في الدنيا.

مؤلفاته: ألف باء، وتكميل الأبيات وتتميم الحكايات ممّا اختصر للألباء في ألف باء، توفي عام (604 هـ) [1] عاش البلوي في عصر ازدهرت فيه مختلف العلوم الدينية واللغوية وظهر فيه الكثير من العلماء الذين أبدعوا في شتّى الميادين العلمية.

ب- كتاب "ألف باء":

منهجه: وضع البلوي كتابه هذا من أجل ولده عبد الرحيم، إذ يقول: «وجعلت ما أؤلف فيه وأبني لعبد الرحيم ابني، ليقرأه بعد موتي، وينظر إليّ منه بعد فوتي ... وسميت ما جمعت لهذا الطفل المربا، وقلت فيه: هذا كتاب ألف باء صنعته يا ألبا من أجل نجلي المرجى»[2]

اهتم البلوي بإيراد الكثير من الأمور في هذا الكتاب، فأغناه بمختلف المواضيع والأخبار وجعل بعضها منقولا عمّن سبقه من العلماء والشعراء والفقهاء وبعضها الآخر حدث له، أو لغيره ممّن عاصروه.

اعتمد البلوي في ترتيب مادة مؤلفه على منهج مختلف عمّن ألّفوا في ميدان المعاجم، فقد كرّر الألف مع سائر حروف المعجم مثل: أب وأت وأث وجعلها في شكل أبيات شعرية، ثمّ ذكر معكوسه مثل: با وتا وثا ثمّ مقلوبه ألف بين حرفين مثل: باب وتاب وثاب، ثمّ مقلوبه أيضا حرف بين ألفين مثل: أبا وأتا وأثا، ثمّ يعود

1- رضا عبد الجليل الطيار، **الدراسات اللغوية في الأندلس**، ص57، 58.

2- أبو الحجاج يوسف محمد البلوي، **ألف باء**، ط2. بيروت: 1985، عالم الكتب، ج1، ص3.

إلى القافية فيفعل فيها مثل ما فعل في الأول، فقد جعل نهاية كل بيت كلمة فيها الحرف المعجمي مع اللام مثل: بل وتل وثل[1] ثمّ يذكر معكوسه مثل: لب ولت ولث، ثمّ مقلوبه ألف بين حرفين مثل لاب ولات ولاث، ثمّ ألف في أول الكلمة مثل أبل وأتل وأثل[2] وغيرها من التقليبات التي استخدمها، وذلك من أجل التّعرف على مختلف أوضاع الكلم.

جاءت مقدمة الكتاب في 245 صفحة، وهي طويلة، نادرا ما نجد كتابا به مثل هذه المقدمة أوّل ما بدأ به كلامه: لفظة أمّا بعد «وهذه اللفظة من فصيح الكلام، وأوّل من قالها داوود عليه السلام»[3] ذكر في البداية سبب وضعه للكتاب والمنهج الذي اتبعه في الترتيب.

تطرق في المقدمة إلى مواضيع عديدة، بدأها بموضوع الشعر، وقال: إنّ من عيوبه الإيطاء وذكر قول ابن جني في تعريف الإيطاء وهو «أن يجمع في شعر واحد بين كلمتين بلفظ إن لم يكن متعلّما ولا طالبا للعلم، لم يستطع الإلمام بما جاء في كتاب الله تعالى ولا سنة رسوله واحد ...» [4] فالشعر ديوان العرب الذي لا غنى لهم عنه، يعودون إليه كلما استدعت الحاجة إلى الاستشهاد به في حياتهم اليومية، التي لا تخلو في معظم الأحيان من المناظرات الشعرية والإيطاء وإن كان عيبا فإن بعضهم يتعمد استخدامه لتصعيب الفهم.

كما تحدث البلوي عن العلم وفضله على الناس والمجتمع فقال: «إنّ في الدنيا ما هو أشهى وأحلى من دخول المجالس التي يجد فيها الكواعب الأتراب واللذيذ من الشراب، وتسمع فيها تلك النغمات من الغانيات، وتلحظ ذلك النبات والزهر الذي هو أشتات ... فالعلم هو أغلى شيء في الوجود ولا يستطيع أحد

1- البلوي، **ألف باء**، ج1، ص8. بتصرف.

2- المصدر نفسه، ج1، ص331 – 343. بتصرف.

3- نفسه، ج1، ص4.

4- نفسه، ج1، ص10.

الاستغناء عنه وعن طعم حلاوته، فالذي اكتسب العلم نال أرفع الدرجات واكتسى بأرفع الأثواب»[1] فالعلم والتفقّه في القرآن الكريم من أشرف وأنفع العلوم في الدنيا والآخرة.

وقد جاء في المقدمة فصل عن البلاغة، إذ عرّفها عند الكثير مـــن العلمـــاء كالخليل والفضل وجعفر بن يحي ويحي بن زياد وغيرهم ممّن اعتنـــوا بالبلاغـــة وموضوعاتها.

ومن المواضيع التي تطرق إليها أيضا: فضل تعلم العربية، موضوع اللّحن حروف المعجم والكتابة، معرفة الحروف المقطعة أوائل السور، نشأة اللّغة، الخـــط الزمان وكيفية حسابه، الحساب بالحروف، حساب الشهور إلى غيـــر ذلـــك مـــن المواضيع، إضافة إلى سرده بعض القصص والنوادر وختم مقدمته بالحديث عـــن سدرة المنتهى، وهي الشجرة التي ينتهي إليها علم الخلائق، وتسمى بشجرة النبق.

ومن هذا كله، يتبيّن أن المقدمة التي كتبها المؤلف كانت شـــاملة لمختلـــف المواضيع العلمية والأدبية والدينية خاصّة.

لم يكن البلوي يفرد لكل فصل موضوعا خاصّا، بل حتى في انتقاله من موضوع لآخر لم يكن يشير إلى ذلك في أحيان كثيرة، فمثلا بدأ الحديث في مقدمته عن الشعر وعيوبه، ولم يشر إليه ما إذا كان فصلا أو مطلبا، أو بحثا أو فائدة أو غير ذلك من المصطلحات التي استعملها للتمييز بين عنصر وآخر، وقبل أن يستكمل هذا الموضوع انتقل إلى موضوع آخر وأشار إليه بفصل «وممّا كتبته في كتاب لبعض الأصحاب، اعلم أيّها المتعلم أنّ العلم إنّما هو بالتعلم»[2] ثمّ عاد إلى موضوع الشعر بعد تطرقه إلى عدّة مواضيع منها: فضل السكوت على الكلام الملح والآداب، تعلّم العربية، لكن هذه المرّة أشار إليه بكلمة فصل رجع الكلام إلى

1- البلوي، **ألف باء**، ج1، ص31. بتصرف.

2- المصدر نفسه، ج1، ص14.

الشعر. وعلى هذا المنوال سار البلوي في مقدمته بانتقاله من موضوع لآخر دون استكماله، ثمّ العودة إليه فيما بعد.

كان في بعض الأحيان عند تطرقه إلى موضوع أو عنصر جديد يسمّيه مبحثا، فيقول مثلا: مبحث النقط والشكل وترتيب الحروف، مبحث القوت، مبحث الغرام... وأمّا الفرق بين المبحث والفصل فلا يكمن في المضمون، وإنّما يبدأ الفصل بأحد الحروف: الواو قد وقد تقدّم وممّا وأمّا وكأنّ الموضوع الذي هو بصدد الحديث عنه تابع للفصل الذي قبله في أغلب الأحيان، فمثلا في فصل: واسم الله تعالى الذي هو الله مخالف لغيره من الأسماء، ثمّ الفصل الذي يأتي بعده: وقد ورد في اسم الله الأعظم أحاديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثمّ آخر: وأسماء الله تعالى كلها عظيمة وإن كانت تابعة لهذا الاسم الذي هو الله[1] أمّا المبحث فقد كان يبدأه مباشرة دون ذكر حرف في أوّله مثلا: مبحث: إطلاق السيد على الله، مبحث تعظيم أسماء الله تعالى[2]... وكان كل موضوع مبحثا منفصلا عن الآخر إضافة إلى أن مواضيع الفصول تختلف عن مواضيع المباحث، ولا توجد عناصر مشتركة بينهما وقد كان عدد الفصول أكبر بكثير من عدد المباحث أضف إلى ذلك بعض الفوائد التي تخللت المقدمة، مثل بعض النوادر والحكايات التي منها الغريبة والدقيقة والطريفة، أمّا المواضيع التي تناولها المؤلف فقد تنوعت، منها ما هو لغوي: كاللحن، سبب وضع النحو، المعجم، نشأة اللّغة ومنها ما هو ديني مثل ما جاء في أحد الفصول: «وأمّا ابن إسحاق فذكر في السير أن إدريس عليه الصلاة والسلام كان أول فتى أعطي النبوة والخط والقلم. وأيضا فصل آخر: «ما خرج أهل الصحيح من حديث موسى والخضر عليهما السلام، وما قصّ الله تعالى عنهما في كتابه العزيز»[3] إضافة إلى بعض المواضيع الرياضية التي

1- البلوي، **ألف باء**،ج1، ص32، 39، 42، 56، 143، 157، 174، 227، 230، 233.

2- المصدر نفسه، ج1، ص231-233.

3- نفسه، ج1، ص76، 194.

تمثلت في فصل: «الحساب بهذه الحروف أولى من الحساب بالأشكال المصطلح عليها»[1] إلى غير ذلك من المواضيع في الشعر والبلاغة والحروف وأسماء الشهور...

1- **الاستشهاد:** تنوّعت مدوّنة البلوي في مقدمته، وفي الكتاب بصفة عامة فمن شعر جاهلي إلى إسلامي إلى القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف، كما استشهد بشعره هو، وشعر من عاصرهم أضف إلى ذلك عددا كبيرا من الشعراء لم يذكر أسماءهم.

فمن الشعر الجاهلي نجد مثلا قول عنترة:

عَلَّقتُها عرضًا وأقتُلُ قَومَها   زَعْمًا لعمر أبِيكَ ليسَ بِمزعَمِ[2]

ومن الشعر الإسلامي نجد قول حسان بن ثابت:

مَنَعَ النومُ بالعِشَاءِ هُمُومُ   وخَيَالٌ إذا تغورُ النُّجومُ[3]

أمّا الذين عاصرهم، فقد استشهد كثيرا بشعر الفقهاء الذين كان من بينهم الفقيه المحدث أبو محمد عبد الحق الأزدي ومن شعره قوله:

يا طَالِبا لِلعِلمِ مُستَرشِدًا   مُستَنصِحا إنْ قَبِل النَّاصِحَا[4]

ومن شعره أيضا:

كلُّ امْرِئ يُعجِبُهُ شِعْرُه   حتى يَرَاهُ ناقِدَ غيره[5]

وكذلك قوله:

باللهِ قلْ لي يا فَتى إنّني   أسألكَ الآنَ بردِّ الجَوابِ

لو لم أَسُق ذاكَ وَلاَ غيرُه   بِأيِّ شيءٍ كُنتُ أُملِي الكِتابَ[6]

1- البلوي، **ألف باء**، ج1، ص91.

2- المصدر نفسه، ج1، ص144.

3- نفسه، ج1، ص49.

4- نفسه، ج1، ص23.

5- نفسه، ج1، ص6.

6- نفسه، ج1، ص79.

أضف إلى هذا، شعر من لم يذكر أسماءهم، فيقول: قال الشاعر، قال بعض الشعراء كما قال الشاعر اللبيب، وفي مثل هذا أنشدوا، مدح شاعر كاتبا فقال، ألـم تسمع قول الشاعر، أنشدني بعض الأصحاب، إلى غير ذلك من العبـارات التـي استخدمها عند إهمال اسم الشاعر ومن أمثلة الشعر الذي لم يذكر صاحبه ما يلي:

ومِن أعْجبِ الأشياءِ أنّك لاَ تَدرِي وأنَّـكَ لاَ تَدْري بِأنّك لاَ تدْرِي

فَإن تَكُ لاَ تَدرِي ولَـم تكُ بِالّذي يُسائل مَن يَدرِي فَكيفَ إذًا تدرْي

تَمَامُ العَمَى طُولُ السُّكُوتِ وَإنَّما شِفاءُ العَمى يَوما سُؤالك مَن يَدرِي[1].

جاءت مدوّنة البلوي غنية من حيث الأشعار، التي استشهد بها في مختلـف مواضيع مقدّمته إذ لا يخلو موضوع ما من الشعر. أمّا القرآن الكريم، فقد كان لـه نصيب كبير، لأنّه كلام الله المنزّل على خير الرسل محمد صلى الله عليـه وسـلم ولأنّه مدونة معظم اللغويين إن لم نقل كلّهم، ولأنّ القرآن يأتي في المرتبة الثانيـة بعد كلام العرب في الاستشهاد والاحتجاج به، فلم يخالف المؤلف العرف اللغـوي في هذا المجال، وإنّما خالفه في الاستشهاد بالحديث الشريف وشعر المولدين ومـن عاصرهم.

والملاحظة التي تؤخذ على البلوي في استشهاده بالقرآن الكريم، هي عـدم ذكره للسورة التي أخذ منها الشاهد، ولا رقم الآية، ولا حتى وضعها بين شـولتين أو ما يوضح بداية ونهاية الآية، إذ يقول: وجاء في التنزيل، وقوله تعالى، «كمـا قال تعالى عنهم ﴿**ولَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يَعْلَمُهُ بَشَرٌ لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِي وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٍ**﴾ [سورة النحل: الآية 103]» [2] ويكمل الحـديث دون تمييز بين الآية وما سبقها وما جاء بعدها.

أمّا الحديث الشريف فقد جعله في مرتبة مميزة في الاستشهاد به، لأنّ معظم اللغويين المشارقة والمغاربة وحتى الأندلسيون أبعدوا الاحتجاج به، بسـبب أنّـه

1- البلوي، **ألف باء**، ج1، ص22.

2- المصدر نفسه، ج1، ص74.

مروي بالمعنى إلاّ أنّ البلوي لم يعترف بذلك، بل جعله في مرتبة سواء مع القرآن الكريم والشعر العربي.

أمّا فيما يخص اللغويين والمفسرين وسائر علماء العربيـــة، فقــد استشـــهد البلوي بأقوال الكثير منهم، ممّن سبقوه من المشارقة، وممّن عاصروه منهم، ومـــن المغاربة والأندلسيين أيضا فاحتج بأقوال: الطبـــري، الخليــل صـــاحب "العـــين" المهدوي، الكسائي، الجوهري، ابن سيرين، الخطابي، الزهري، وممّن عاصـــرهم: شيخه الحافظ أبو الطاهر السلفي، السهيلي ... كان البلوي يذكر في كل مرة اســـم اللغوي أو المفسر أو عالم العربية الذي أخذ عنه، فيقول: قال فلان، لكنه في معظم الأحيان لا يذكر اسم الكتاب الذي أخذ منه إلاّ في القليل النادر، إذ يقول «نقلت أكثر هذا الكلام من كتاب شيخي الفقيه، نقلت أكثر هذا الكلام الذي تقدم من كتاب فضائل القرآن لأبي عبيد رحمه الله، إلاّ يسيرا من غيره، ذكر ذلك أبو علي في الأمـــالي وذكر أبو عبيد القاسم بن سلام في الأمثال»[1] وأحيانا يذكر اسم الكاتب، ولا يذكر اسم المؤلف في مثل قوله: «جاء في الشهاب، قال صاحب العـــين»[2] إلـــى غيـــر هؤلاء من العلماء الذين زخرت بهم مدونة البلوي.

فبدأ بفصل: **وآب و آب وأبَّ وأب وأت وأث وبلّ وبل**[3].

2- الجانب اللغوي: بعد المقدمة الطويلة التي تعرض فيها البلوي إلى سبب وضع كتابه هذا ومنهجه في عرض مادته ومواضيعه اللغوية المختلفة، أخـــذ فـــي تقسيم الكتاب، وسنأخذ أحد فصول هذا الكتاب لتوضيح طريقة البلوي في عـــرض مادته. يقع هذا الفصل في الجزء الأول من الكتاب، ويشمل الصفحات من 246 إلى 287.

1- البلوي، **ألف باء**، ج1، ص38، 84، 244.

2- المصدر نفسه، ج1، ص37، 173.

3- نفسه، ج1، ص246.

تناول البلوي الألف مع الباء، الألف مع التاء، الألف مع الثاء والقافية بـــل فسر في بداية الأمر معنى كلمة الهجاء، فقال: «هجوت الحروف هجـــوا وهجـــاء وهجيتها تهجية كله بمعنى ... والهجو خلاف المدح، وقد هجوته هجـــوا وهجـــاء وتهجّوا فهو مهجوّ، واسم الفاعل هاج»[1]

تقع مادة الألف مع الباء من الصفحة 246 إلى 248 وقد بدأها بقوله: فأما (آب) فمعناه رجع مستشهدا بقول الشاعر:

فآبَ مُضِلّوه بِعينٍ جَلِيةٍ   وغُودِر بالجُولاَنِ حَزم ونَائلُ[2]

ولم يشرح معنى البيت، وقال إنّ ذلك سيأتي إن شاء الله في باب الضاد[3]

ذكر اسم الفاعل من مآبة «مآبة البئر حيث يجتمع الماء وهو آيب ومنه الحديث آيبون تائبون وتوبا لربّنا أوبا لا يغادر علينا حوبا ثمّ انتقل إلى تفسير كلمة الحوب ومعناها الإثمّ، قال المهدوي في قوله تعالى: ﴿**إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا**﴾ [سورة النساء من الآية2] الحوب الإثم، وأصله الزجر للجمل فسمى الإثمّ حوبا لأنه يزجر عنه واستمر في تفسير الكلمة وما يشتق منها من أسماء وأفعال مثل: التحوّب الذي معناه التأثمّ وهو أيضا التحزّن... والحاب مثل الحوب تقول حبت بكذا أي أثمت تحوب حوبا وحوبة وحيابة وفلان أحوب وأعق...»[4] إلى غير ذلك من الكلمات التي تزخر بها الذخيرة العربية ثمّ يعود إلى تفسير كلمة الأوب، فيقول: «وأمّا الأوب فيقال: "جاء القوم من كل أوب أي من كل وجه" ثمّ يعود إلى كلمة آب فيقول: (وأمّا آب) فاسم فاعل من أبي يأبى إباءة وإبا، فهو آب وأبّى وأبيان بالتحريك. ثمّ ينتقل إلى شرح الفعل من آب وهو أبى يأبى في المضارع، فيقول "ومعنى آب كاره وأبى فلان كذا إذا كرهه" ذكر المؤلف في بداية الأمر الفعل "آب"

1- البلوي، **ألف باء**، ج1، ص246.

2- المصدر نفسه، ج1، الصفحة نفسها.

3- نفسه، ج1، الصفحة نفسها.

4- نفسه، ج1، الصفحة نفسها.

في الماضي ومضارعه يؤوب أوبا وإيابا وهذا الشرح أو التفسير هو ما نجده في المعاجم اللغوية العربية الأخرى، ثمّ ذكر الاسم مآبة وبعدها اسم الفاعل منه وهو آيب.

ثمّ تطرّق إلى المصدر منه وهو الأوب والتأويب في السير تبارى الركاب ومنه الفعل أوّب والتأويب أيضا سير الليل والنهار وأصله من سرعة رجع أيدي الإبل وأرجلها في السير الحثيث. وأوب من الأوبة، إذ يقال فلان سريع الأوبة أي الرجوع، قال أبو عبيد: وقوم يحوّلون الواو ياء فيقولون سريع الأيبة، فالفعل هنا أوب ومصدره الأوبة أو الأيبة. ويقال أيضا: رجل أبيّ من قوم أباة»[1] قال الزبير ابن عبد المطلب عم الرسول صلى الله عليه وسلم:

ويَعْلَمُ من حَوَالي البَيْتِ أنا   أُباةُ الضيم نَمْنَعُ كُلَّ عَارِ[2].

ذكر هنا أبيّ صفة وجمعها أباة من الفعل آب واسم الفاعل آبٍ والمصدر الأوب.

ثمّ انتقل المؤلف إلى كلمة أب، فقال: «وأمّا أب من قوله تعالى: ﴿**وفَاكِهَةً وأَبًّا**﴾ [سورة عبس:الآية31] فقال ابن عباس رضي الله عنه: الفاكهة الثمار التي يأكلها الناس والأب ما ترعاه وعنه أيضا الأب الثمار الرطبة، ثمّ يذكر قول الخليل في معجمه "العين": الأب الكلأ وهو ما رعته الأنعام»[3] ثمّ يستشهد بقول الشاعر:

جذمنا قيس ونجد دارنا   ولنا الأب بها المكرع[4].

ثمّ يأتي إلى شرح آخر كلمة من البيت وهي المكرع فيقول: يقال كرعت الماشية إذا شربت الماء وهي فيه واقفة، ويعود بعدها إلى شرح كلمة "أب" فيقول: وأمّا أب فعلى وجوه شتى يقال أب الرجل يؤب أبابة إذا تهيأ للمسير وهو في أبابه

1- البلوي، **ألف باء**، ج1، ص247.

2- المصدر نفسه، ج1، ص246. بتصرف.

3- نفسه، ج1، ص247.

4- نفسه، ج1، الصفحة نفسها.

جهازه وأبت أبابة الشيء إذا استقامت طريقته وأبّ الشيء إذا تهيأ له، وأورد شاهد الكلمة أب وهو بيت شعري للأعشى.

صَرمتُ ولَم أصرْمِكُم وكصَارِمٍ   أخٌ قد طَوَى كَشحًا وأبّ ليذهبا.

ثمّ انتقل إلى الألف مع التاء (أت) فقال: إنّه يؤته أتا إذا غلبه بالكلام أو كبته بالحجة، ولم يقل غير هذا، إذ لم يتوسّع في تفسير الكلمات التي ذكرها، وانتقل مباشرة إلى الألف مع الثاء فقال: فمن قولهم أث النبت يأث ويئث أكثر من يأث أثا إذا كثر ونبت أثيث وكذلك الشعر أثيث أيضا، وكل شيء وطأته ووثرته من فراش أو بساط فقد أثثته تأثيثا وأثاث البيت، ذكر الفعل الماضي أث ومضارعه ومصدره وجاء بشاهد شعري للراجز وهو:

يَخبطنَ مِنه نبتَه الأَثِيثا   حَـــــتىّ ترَى قَائمة جَثِيثا.

ثمّ انتقل إلى شرح آخر كلمة من البيت وهي جثيثا فقال: مجثوثا مقلوعا وفي القرآن العزيز من هذا ﴿**اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الأَرْضِ**﴾[سورة إبراهيم من الآية 26]، ثمّ عاد إلى شرح كلمة الأثاث وهو متاع البيت.

الأثاث جمع وواحده أثاثة كحمام وحمامة، قاله المهدوي والأحمر، أمّا الفرّاء فقال: لا واحد له من لفظه ويجمع كلمة أثاثة على أثثة وأثث.

وقال صاحب "العين": أث الشعر يؤث أثاثة وهو أثيث، وكذلك الـنبات وتأثث فلان أصاب خيرا[1] شرح البلوي البيت المتكون من آب وأب وأت وأث ولم يتعرض للقافية بلّ وبل، وقد قال: إنّه أخّرها إلى آخر بيت من هذا الباب، ثمّ عاد إلى آب وأب وقال: "وآب اسم شهر من شهور العجم وهو أغشت، (أوت) ومن أب تأتي الأبوّة والأبوة الآباء مثل العمومة الخُؤلة"، واستشهد بقول الأصمعي عن أبي ذؤيب:

لَوْ كَانَ حيٌّ أنشرت أحَدًا   أحْيا أُبوّتَكَ الشَمُّ الأمَادِيحُ

1- البلوي، **ألف باء**، ج1، ص248. بتصرف.

والأبوة أيضا فعل الأب وتأبيت فلانا اتّخذته أبا وهو يأبو اليتيم أباوة أي يغذيه ويربيه، والنسبة إليه أبوي وأصل أب أبو بالتحريك لأن جمعه آباء ... وتقول في التثنية أبوان... وبعض العرب يثني أبا مرفوعا أبان ويجمعه أبون[1] وبعد حديثه عن الأبوة انتقل إلى فصل في الفوائد الزوائد، ثمّ ذكر نكتة وهي قصة طريفة، لكنّها تبيّن مدى ما للقرآن من إعجاز في الأساليب اللغوية، والتي لا تفهم من القراءة الأولى، وإنما يجب التمعن فيها، فهذا الحجّاج الذي يعد من أفصح العرب يعجز عن فهم آية من القرآن الكريم، ثمّ يذكر فائدة أخرى في اسم إبراهيم عليه السلام، وفي هذه الفائدة يدرج ميراث الجد واختلاف العلماء فيه، ثمّ اختلاف أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم (عثمان وعلي وابن عباس وابن مسعود وزيد بن ثابت رضي الله عنهم) في ميراث أم وأخت وجد، فكان لكل منهم رأي ولم يتفق الواحد منهم مع الآخر[2] إلاّ أنّ المؤلف كان يميل إلى رأي علي بن أبي طالب رضي الله عنه لأنّ الرسول صلى الله عليه وسلم قال فيه: «أنا مدينة العلم وعلي بابها فمن أراد العلم فليأته من بابه»[3] إضافة إلى شهادة الصحابة الذين اختلف معهم لصالح علي كرم الله وجهه، إذ شهد له الجميع بغزارة علمه، فقد كان أعلم أهل المدينة بالفرائض وله من تشقيق في العلوم وترقيق وبصر بالحساب وتدقيق كأنه ينظر إلى الغيب من ستر رقيق، وكم من قضية قضاها لمّا بلغت إلى النبي صلى الله عليه وسلم أمضاها[4] فقد كان علي رضي الله عنه مميزا في فهمه وتناوله للمسائل العلمية والدينية، له من بعد النظر ورجاحة العقل ما جعل النبي صلى الله عليه وسلم يشهد له بذلك.

1- البلوي، **ألف باء**، ج1، ص248-249. بتصرف.

2- المصدر نفسه، ج1، ص252. بتصرف.

3- نفسه، ج1، ص253.

4- نفسه، ج1، الصفحة نفسها. بتصرف.

ثمّ انتقل إلى مسألة حسابية تطرق فيها إلى اختلاف بعض القوم في تقسيم بعض الدراهم فاحتكما إلى علي رضي الله عنه، ونظرا لعدله وتحكّمه الشديد في الحساب، خرج الرجلان راضيين من عنده، مع أنّ أحدهما لم يأخذ غير درهم واحد، بعدما كان له ثلاث، ثمّ أورد حكاية أخرى شبيهة بالأولى، مع مسألة أخرى وقع فيها الاختلاف، ولم يقل إنّها مسألة حسابية، وإنّما قال إنّها "لطيفة"[1] إلى غير ذلك من المسائل الأخرى التي اختلف فيها الصحابة رضوان الله عليهم، واجتهدوا في البحث عن الرأي الصواب.

وبعد هذه المسائل أورد فصلا في معاني الجد في القرآن الكريم وأحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم والصحابة[2] ثمّ تعرض بعد هذا لمقلوب جد وهو: دج والدجة الظلمة وليل دجوج وديجوج وشعر دجوجي وليلة دجداجة والمدجج الفارس المتدجج في شكيمته والدجاجة معروفة، ومن شكل جد أيضا نجد خد: وهو معروف وهما خدان يكتنفان الأنف عن يمين وشمال. ومقلوب الكلمة دخ ومن شكل جد حد وحد فصل ما بين الشيئين ومقلوب حد دح بمعنى بسط ووسع. ثمّ عاد فذكر فصلا في الفوائد، وبعده فصل آخر، وأشار إليه باسم "مبحث الخال" فقال: الخال أخو الأم والخالة أختها[3]. واستمر في ذكر مشتقات هذه الكلمة ثمّ تطرق إلى معاني الخال وذكر اثنين وعشرين بيتا يحتوي كل بيت منها على كلمة الخال ولكل كلمة معنى غير الذي تحمله في البيت الذي قبلها أو بعدها مثل:

أَتَعْرِفُ أَطْلالاً شُجوناً بالخَالِ وعَيشًا عَزِيزا كان في العَصرِ الخَالي

فالخال في الشطر الأول اسم موضع، والعصر الخالي الماضي.

وفي البيت:

ولاَ أَرْتَدِي إلاّ المُرُوءة حُلّةً إذْ ضَنَّ بعضُ القَومِ بالعَصَبِ والخالِ

1- البلوي، **ألف باء**، ج1، ص254.

2- المصدر نفسه، ج1، ص256. بتصرف.

3- نفسه، ج1، ص258–260. بتصرف.

فقوله هنا بالعصب والخال هما نوعان من الثياب تصـنع بـاليمن[1] وبعـد شرحه لمعنى كلمة الخال في الأبيات التي ذكرها، تطرق إلى فائدة أخـرى فـذكر كلمة الخيلاء، واستمرّ في تفسيرها وذكر الشواهد من أقوال الصحابة رضوان الله عليهم، وأحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم وبعدها جاء إلى تفسير كلمات أخرى ليس لها علاقة بها مثل: الحور والكور- الأبيض والأسـود- العشـاق والفسـاق الفرع وتقليباتها عرف- رعف- رفع – الشقائق- العتيرة – ربيع – قرع ومختلف تقليباتها: رعق- عرق- قعر-رقع – عقر- قزع -زعق- زقع- فزع- عـرف- زعف -زغف – فرغ -غرف- رفغ – فغر[2] فتطرق لشـرح هـذه الكلمـات ومختلف التقليبات التي جاء بها. وذكر في الأخير فصلا سرد فيه قصة أيوب عليه السلام، وبعد قصة أيوب سرد بعض ما جاء في قصة يونس عليه السلام.

وختم هذا الفصل بذكر كلمة "القرع" «وكان رسول صلى الله عليه وسلم يأكله ويحبه ويقول نكثر به طعامنا، وذكر أيضا تقليبات الكلمة ومختلف مشتقاتها مثل: المقرعة -تقرع- أقرع- قرعت-يقرع-العرق»[3] وقد تقدم تفسير هذه الكلمة في الفصل الذي قبله. أمّا قافية البيت وبلّ وبل فقد تطرق لها في الصفحة 332 شرحها في قوله: «بل الرجل بللا من مرضه واستبل برأ، يقول الشاعر:

إذَا بَل مِن دَاءٍ بِه ظَنَّ أنه نَجَا وَبِه الدَّاءُ الّذي هُوَ قَاتِلُه

ومنه الإبل الشديد اللؤم، يقال منه رجل أبل وامرأة بلاء إذا لم يـدرك مـا عندهما من اللؤم ورجل أبل إذا كان خبيثا، والإبل أيضا: الحاذق البصير برعيـه الإبل، ومعكوس أبل لبأ وبللت من المرض وبللت من فلان بشرّ إذا لتيته منه وبلة الشباب طراوته، ويقال: طويت فلان على بلته وبلالته وبلولة وبللتـه وبلولتـه إذا طويته على ما فيه من عيب.

1- البلوي، **ألف باء**، ج1، ص263-264. بتصرف.

2- المصدر نفسه، ج1، ص266- 284.

3- نفسه، ج1، ص286- 287.

أنشد ابن دريد:

ولقَد طَوَيْتُكم عَلى بَلاتِكم وعَرفْتُ مَا فِيكُم مِنَ الأَذْرَاب[1]

ثمّ تطرّق لمعكوس بل وهو لب: لب كل شيء من الثمار ولبابه داخله الذي يطرح خارجه وجمعه لبوب، ولبّ الرجل عقله، ولباب كل شيء خالصه. ويضيف أيضا: واللب العقل والرجل اللبيب العاقل وجمعه ألباء ...وقالوا رجل لبيب وكذلك قالوا امرأة لبيبة. وبهذا يختم قافية البيت الأوّل من الفصل الأول وهو:

وآب وآب وأبّ وأب وأت وأث وبلّ وبل[2]

استشهد البلوي في هذا الفصل بسبعة وثلاثين شاهدا من القرآن الكريم دون ذكره لرقم الآية أو السورة التي أخذ منها، وتسعة وأربعين شاهدا من الحديث الشريف.

أمّا الشعر العربي فقد مزج فيه بين الجاهلي والإسلامي، وحتى من شعر من عاصرهم، والأمر الذي خالف فيه جمهور اللغويين والنحاة هو استشهاده بشعره في الكثير من المواضيع، بل كان في بعض الأحيان ينشد خصّيصا من أجل الموضوع الذي هو بصدد الحديث عنه، فعندما تحدّث عن الخال ومعانيه مثلا قال: «وقد وجدت ثعلب والمفضل وابن مقسم قد أنشدوا ثلاثة عشر بيتا آخر كل بيت منها خال بغير معنى الآخر، ورأيت قائلها وقد أغفل ألفاظا أخر كان ينبغي أن تضم إليها، فزدت فيها أبياتا ضمّنتها ما لم يذكره الشاعر»[3] وإضافة إلى استشهاده بشعره، فقد استشهد بشعر الكثير ممّن عاصرهم، أو كانوا قد عاشوا قبله بقليل، إذ يقول في هذا الصدد: «... وأستشهد على ذلك بما أحفظه من الشعر وبما قالته العرب، وربما ذكرت ما قاله غيرهم من المولدين المشهورين، وربما ذكرت شعر من لقيته من أشياخي، وإن لم يكن في ذلك حجة ففيه أنس مع الثقة بمعرفتهم

1- البلوي، **ألف باء**، ج1، ص332-334.

2- المصدر نفسه، ج1، ص335- 336، 246.

3- نفسه، ج1، ص263.

وفضل التقدم علينا في كل أمرهم»[1] ومن الشعراء الذين استشهد بشعرهم: امرؤ القيس، الأعشى، الراجز، ابن دريد، ثعلب، رؤبة، الكميت، عنترة، أنس بن سليم النابغة، لبيد الشماخ، أوس بن حجر، المعري، ابن قتيبة، الملتمس، الحارث بن وعلة، المفضل، ابن مقسم إلى غير هؤلاء، إضافة إلى الشعر الذي لم ينسبه إلى أصحابه.

أمّا اللغويون الذين استشهد بأقوالهم فنجد منهم المهدوي، أبا عبيد، الخليل ابن دريد، الفراء، الأعمش، الخطابي، ثابت محمد بن يزيد، ابن قتيبة، الأخفش الأصمعي، الحافظ السلفي، أبا محمد عبد الله بن السيد البطليوسي، ثعلب وغيرهم.

أمّا فيما يخصّ منهجه في جمع مادّته، وتأليف كتابه فيقول: «كنت في سن الحداثة وزمن الطلب أسمع الحكاية من الشيخ فتعجبني فأكتبها عنه، وأحفظها، فلمّا صرت في حدّ من يقرأ الكتب ويطالعها، كنت أرى تلك الحكاية في الكتاب، فأقول من ها هنا أخذها، ثمّ أجدها بعينها في كتاب آخر وفي آخر، فقلت: إذا كان العلماء النظّار والمصنّفون الكبار يفعلون هذا، فأنا بهم أيضا أقتدي، بل أنا أحقّ لأنّي مبتدئ»[2] ويقول أيضا: «وضعت في هذا التأليف المسنى من كل شيء علمته فنّا»[3] جمع البلوي في كتابه مختلف المواضيع، وفي مختلف الميادين أيضا من الشعر، والبلاغة واللّغة، والنحو والسير، وأخبار السلف، وغيرها.

وبما أنّ لكل عمل نقائص، فقد علم البلوي أنّه مُنتَقَد لا محالة، فقال: « وقد علمت أنّي لا أسلم من منتقد»[4] وبما أنّ لكل عالم لغوي أو فقيه نظرة خاصّة ينظر بها إلى الأمور، فإنّ العمل الذي قام به البلوي يراه كل منهم من منظور خاص

1- البلوي، **ألف باء**، ج1، ص6.

2- المصدر نفسه، ج1، ص69-70.

3- نفسه، ج1، ص59.

4- نفسه، ج1، ص6.

خصوصا أنّه مؤلف يعلم مسبقا أن عمله هذا لن يكون بمثابة العمل الكامل الــذي سيسلم من ألسنة المنتقدين.

2- الدراسات الفقهية:

2-1-التأليف في التفسير: اهتّم علماء اللّغة في المغرب والأندلس بالتأليف في تفسير القرآن الكريم وعلومه، لأن الخلفاء المرابطين، ومنهم علي بن يوسف «كان يميل إلى إيثار الفقهاء ومشاورتهم فاشتدّ نفوذهم بالمغرب والأندلس في عهده، حتىّ أصبح لا يقطع في أمر من الأمور صغيرا أو كبيرا إلاّ برأيهم، وهكذا علت مكانتهم، واشتدّ نفوذهم، حتىّ سيطروا فيما بعد على الدولة»[1] نظرا للمكانة الكبيرة والمميّزة التي منحها خلفاء الدولة المرابطية للفقه والفقهاء، فقد حاولوا البروز ليثبتوا مكانتهم ويكونوا عند حسن ظنّ من أعطاهم الثقة والأمان من الناس في تسيير أمور الدولة الدينية والدنيوية ولأنّ مذهب الإمام مالك هو السائد في المغرب والأندلس، فقد بقي الناس عليه، رغم تغيّر الخلافة بسقوط ملوك الطوائف في البداية ثمّ بعدها سقطت الدولة المرابطية، بعد حوالي نصف قرن من الحكم وتلتها الدولة الموحدية التي أخذت سلطتها في التزعزع منذ أواخر العقد الثالث من القرن السابع الهجري، إذ ورغم هذا التغيير الكبير الذي حدث على مستوى الحكم فإن مذهب الإمام مالك « قد واصل تقدّمه فعقدت المجالس الحافلة في كل من سبتة وفاس ومراكش للمناظرة عليه، وامتزجت دراسة الفقه بعلم الأصول، وظهر الاشتغال بعلم بالكلام... وعني كثير بعلم القراءات ... وهو من فروع علم التفسير ونشط الاشتغال بعلم الحديث والرّواية»[2] اشتهر مذهب الإمام مالك في المغرب والأندلس، مع أن السائد في المشرق العربي هو مذهب الإمام الشافعي، فقد خالف علماء الفقه المغاربة والأندلسيون نظراءهم في المشرق، رغم تقليدهم واتّباعهم في

1- محمد عبد الله عنان، **عصر المرابطين والموحدين في المغرب والأندلس**، ق1، ص78.

2- عبد الله كنون، **النبوغ المغربي في الأدب العربي**، ج1، ص79.

علوم كثيرة، كما أنّ المكانة التي منحت للفقهاء في هذين القطرين تختلف كثيرا عن غيرها.

كان الفقهاء يسعون دائما إلى التميّز من أجل الحفاظ على المكانة التي منحت لهم سواء كان ذلك عند الخلفاء، أو عند العامة من الناس الذين كانوا يمجّدونهم ويأخذون بآرائهم وقد تجسّد اهتمام العلماء بميدان الفقه وفروعه من خلال مختلف المؤلفات التي أبدعوا فيها.

ففي التفسير مثلا نجد أنّ المشتغلين به وبعلومه، قد فاقوا كل تصوّر، ومن أهمّهم: ابن عطية (ت541 هـ) في تفسيره "المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز"، ابن العربي (ت 543 هـ) في تفسيره "أحكام القرآن"، والإمام السهيلي (ت581هـ) في تفسيره "التعريف والإعلام بما أبهم في القرآن من الأسماء والأعلام"، وبما أنّ تفسير ابن عطية يختلف عن بقية التفاسير في المشرق العربي للطابع اللغوي والنحوي اللذين تميّز بهما، فقد ارتأينا دراسة منهجه في التفسير حتى يتبّين لنا مدى اهتمام فقهاء ومفسري المغرب والأندلس بجانب النحو في الكشف عن دلالات النص القرآني.

2-2-كتاب "المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز":

- ***منهج المؤلف في المقدمة:*** جاءت مقدمة الكتاب طويلة بالنسبة إلى كتب التفسير الأخرى، كتفسير الطبري مثلا، أو تفسير ابن كثير، وقد تحدث المؤلف فيها عن منهجه في تأليف الكتاب فقال: «سردت التفسير في هذا التعليق بحسب رتبة ألفاظ الآية من حكم أو نحو أو لغة أو معنى أو قراءة، وقصدت تتبّع الألفاظ، حتى لا يقع طفر كما في كثير من كتب المفسرين، وقصدت إيراد جميع القراءات مستعملها وشاذها واعتمدت تبدين المعاني وجميع محتملات الألفاظ، كل ذلك بحسب جهدي، وما انتهى إليه علمي، وعلى غاية من الإيجاز وحذف فضول

القول»[1] نجد أن معظم المؤلفين يتعرضون إلى مناهج تأليف كتبهم فـــي المقدمـــة ويختلف طولها باختلاف المواضيع التي يتطرق المؤلف إلى معالجتها، فلكلٍ منهج خاص، وخطوات يتتبّعها في تأليف كتابه.

قسّم ابن عطية مقدمته إلى أبواب بدأها بباب ما ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم وعن الصحابة، وعن نبهاء العلماء في فضل القرآن المجيد، وصورة الاعتصام به، وختمها بباب القول في الاستعاذة[2] ومن الأبواب الأخرى: «باب في فضل تفسير القرآن والكلام على لغته والنظر في إعرابه، ودقائق معانيه، إذ يقول: روي عن ابن عباس أنّ رجلا سأل النبي صلى الله عليه وسلم: أي علم القرآن أفضل؟ فقال صلى الله عليه وسلم: (عربيته فالتمسوها في الشعر) وقال أيضا صلى الله عليه وسلم: (أعربوا القرآن والتمسوا غرائبه، فإن الله يحب أن يعرب).

قال القاضي أبو محمد عبد الحق رضي الله عنه: إعراب القرآن أصل فـــي الشريعة لأنّ بذلك تقوم معانيه التي هي الشرع»[3] فتفسير القرآن الكريم من العلوم التي أوصى بها الله تعالى ورسوله الكريم صلى الله عليه وسلم، إذ بفضـــله يفهـــم معنى الآيات واجتهاد العلماء في هذا واجب عليهم، لإعلام الناس بما تتضمّنه مـــن أحكام تشريعية، وقوانين على المسلمين إتباعها والأخذ بها.

ونجد أيضا من الأبواب: باب ما قيل في الكلام في تفسير القـــرآن الكـــريم والجرأة عليه ومراتب المفسرين، إذ يقول ابن عطية: رُوي عن عائشة رضـــي الله عنها أنّها قالت: ما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يفسّر من كتاب الله إلاّ آيا بعدد علمه إياهن جبريل.

1- ابن عطية، **المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز**، تح: عبد السلام عبد الشافي محمد، ط1 لبنان: 1993 دار الكتب العلمية، ج1، ص35.

2- المرجع نفسه، ج1، ص36، 58. بتصرف.

3- نفسه، ج1، ص40.

قال القاضي أبو محمد عبد الحق رضي الله عنه: ومعنى الحديث في مغيبات القرآن وتفسير مجمله، ونحو هذا ممّا لا سبيل إليه، إلاّ بتوقيف من الله تعالى، ومن جملة مغيباته ما لم يعلم الله به كوقت قيام الساعة ونحوه، ومنها ما يستقرأ من ألفاظه كعدد النفخات في الصور وكرتبة الخلق في السماوات والأرض»[1] وفي مراتب المفسرين يقول: ومن المبرزين في التابعين الحسن بن أبي الحسن ومجاهد وسعيد بن جبير وعلقمة، وأماّ السّدي رحمه الله فكان عامر الشعبي يطعن عليه وعلى أبي صالح، لأنه كان يراهما مقصرين في النظر، ثمّ حمل تفسير كتاب الله تعالى عدول كل خلف، وألّف الناس فيه كعبد الرزاق والمفضل وعلي بن أبي طلحة والبخاري وغيرهم.

ثمّ إنّ محمدا بن جرير الطبري رحمه الله جمع على الناس أشتات التفسير وقرب البعيد وشفى في الإسناد[2] أمّا الأبواب الأخرى التي ذكرها ابن عطية في مقدمته فمنها:

- باب معنى قول النبي صلى الله عليه وسلم إنّ هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف فاقرؤوا ما تيسّر منه.
- باب ذكر جمع القرآن وشكله ونقطه وتحزيبه وتعشيره.
- باب في ذكر الألفاظ التي في كتاب الله وللغات العجم بما تعلق[3]

وغيرها من الأبواب التي تطرّق فيها المؤلف لمواضيع مختلفة تتعلّق كلها بالقرآن الكريم من إعجاز وإيجاز وأسماء السور...

وبعد هذه المقدمة الطويلة التي تعرّض فيها لموضوعات كثيرة، بدأ تفسيره بسورة الفاتحة أمّا الجزء الثاني والذي اعتمدته في توضيح منهج ابن عطية، فقد استهله محقق التفسير بكلام لكل من ابن تيمية وابن خلدون، يقول الأوّل: « تفسير

1- ابن عطية، **المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز**، ج1، ص41.

2- المصدر نفسه، ج1، ص42.

3- نفسه، ج1، ص43، 49، 51.

ابن عطية خير من تفسير الزمخشري وأصح نقلا وبحثا وأبعد عن البدع، ... بــل هو خير منه بكثير، بل لعله أرجح هذه التفاسير»[1] أما ابن خلدون فقال: «لمّا رجع الناس إلى التحقيق والتمحيص، وجاء أبو محمد عبد الحق بن عطية من المتأخرين بالمغرب فلخّص تلك التفاسير كلها، وتحرّى ما هو أقرب إلى الصحة منها»[2] يرى هذان المؤلفان أن تفسير ابن عطية من أروع التفاسير التي ألفت وأبدع فيها الكثير من العلماء المشارقة والمغاربة والأندلسيين، وقد قارنه ابن تيمية "المحرر الوجيز" بتفسير الزمخشري، ورأى أنّه أفضل منه، كما شهد له ابن خلدون بالتميّز.

إلاّ أنّ هذا لا يعني أنّ التفاسير الأخرى تقلّ أهمية عنه، فتفسير الطبري (ت310هــ) قال عنه شيخ الإسلام ابن تيمية أيضا: «إنّه أفضل التفاسير وأصحّها»[3] أمّا تفسير ابن كثير (ت774هــ)، فقد قام مؤلّفه «باختصار تفسير الطبري والإضافة عليه لكثير من الفوائد المتعلّقة بالحديث والفقه والأصول والتاريخ وغير ذلك، مع إتّباعه نفس منهجه في الأسماء والصفات وسائر ميزات أهل السنة والجماعة والسلف الصالح، وقد أجاد فيه وأفاد رحمه الله»[4] تختلف التفاسير باختلاف مناهج مؤلفيها، ولكل تفسير ما يميزه عن الآخر.

وإذا كان كتاب ابن عطية من أروع التفاسير، فإن تفسير الطبري وابن كثير لا يمكن أن نقول عنهما غير ذلك.

أ-الاستشهاد: كانت الآية التي بدأ بها الجزء الثاني من "المحرر الوجيز" من سورة البقرة وتبدأ بقوله عز وجلّ: ﴿**سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلاَّهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمْ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قُلْ لله المَشْرِقُ والمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ**

1- ابن عطية، **المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز**، تح وتع: الرحالي الفاروق عبد الله بن إبراهيم الأنصاري: ط1. الدوحة: 1981، ج2، ص1.

2- المصدر نفسه، ج2، ص2.

3- ابن كثير، **تفسير القران العظيم**، تح: محمد ناصر الدين الألباني، ط1. الجزائر: 2004، دار الإمام مالك، ج1، ص6.

4- المرجع نفسه، ج1، مقدمة التحقيق، ص6.

مُسْتَقِيمٍ﴾ [سورة البقرة: الآية142] استشهد ابن عطية في تفسيرها بالحديث الشريف في كثير من الأمور والمسائل، ولم يكن أوّل من فعل ذلك من المفسرين إذ نجد أن الاستشهاد بالحديث الشريف في التفسير ليس مثل النحو، الذي أنكر معظم النحويين الاحتجاج به، إلاّ القلة الذين خالفوا العرف واحتجوا به.

قال صلى الله عليه وسلم في الفسوق: «سباب المسلم فُسُق وقتاله كفر»[1] وقال أيضا لحسان بن ثابت: «اهجهم وروح القدس معك»[2] وكان إذا هبّت الريح يقول: «اللّهم اجعلها رياحا لا ريحا»[3] لفهم النص القرآني وما ترمي إليه الآيات كان يجب الاستعانة بأحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم لذلك نجد المفسّرين يلجأون إليها، لأنّ معظم الآيات القرآنية كان للرسول الكريم عليه الصلاة والسلام أحاديث فيها، لاختلاط الأمور على المسلمين في بعض الأحيان وعدم فهمهم المعنى الحقيقي الذي ترمي إليه الآية.

أمّا الشعر العربي، فقد نال نصيبا لا بأس به في هذا التفسير، حيث استشهد به المؤلف في مواضع كثيرة، من أجل استيعاب المعاني المختلفة لألفـاظ القـرآن الكريم وممّا استشهد به شعر امرئ القيس، وغيره ممّن عاشوا في صدر الإسـلام وبعده، كما استشهد بشعر لا يعرف قائله حيث يقول أحيانا: ومنه قول الشاعر، قال الآخر، قال شاعر، وكان في أحيان كثيرة لا يذكر البيت بأكمله وإنّما يكتفي بـذكر موضع الشاهد أمّا امرؤ القيس، الذي عاش جاهليا ومات جاهليا، فقد استشهد ابـن عطية بشعره في كثير من المواضع، إذ ورغم ما تميّز به شعره من الغزل الماجن إلاّ أنه امتاز بالحكمة في كثير من الأمور.

1- ابن عطية، **المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز**، ج2، ص169.

2- المصدر نفسه، ج2، ص30.

3- نفسه، ج2، ص51.

ومن شعره في هذا التفسير قوله:

وَجِيدِ كَجِيد الرِّئم لَيْس بِفَاحِشٍ إذا هِيَ نصّته ولا بِمُعَطَّلِ[1]

جاء في تفسير هذا البيت: «الريم: ولد الظبية، قيل إذا كان خالص البياض وليس بفاحش: يعني ليس بشديد الطول كريه المنظر، ونصّته: مَدَّته وأبرزته والمعطّل: الخالي من الحلي»[2] ذكر ابن عطية هذا البيت في تفسير كلمة الفحشاء من قوله تعالى: ﴿**إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ والفَحْشَاءِ وأَنْ تَقُولُوا عَلَى الله مَا لاَ تَعْلَمُون**﴾ [سورة البقرة من الآية 169].

ومن الشعراء الإسلاميين نجد: جرير والفرزدق-الأخطل-النابغة- الأعشى- وغيرهم كثيرون ممّن زخر بهم تفسير ابن عطية وبقية التفاسير الأخـرى، التـي جاءت قبله وبعده.

فمن شعر جرير نجد قوله:

وَلَقَدْ عَطَفْنَ عَلَى فَزَارَةِ عَطْفَةٍ كَرَّ المنِيح، وجُلْنَ ثمّ مَجَالاَ[3]

وجاء في تفسير هذا البيت: «أي رجعن رجوعا مثل رجوع المنيح وهو سهم من سهام الميسر ممّا لا نصيب له إلا أن يمنح صاحبه شيئا، والتشبيه بالمنيح من جهة أنه يرجى لصاحبه المغنم في الكرة الثانية»[4] استشهد المؤلف بهذا البيت من أجل شرح كلمة "كرّة" في قوله تعالى: ﴿**وقَالَ الذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرّؤُوا منّا كَذَلِكَ يُرِيهِمْ الله أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ ومَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارْ**﴾ [سورة البقرة: الآية167] أمّا الشعراء الذين لم يذكر أسماءهم فكثيرون أيضا، لأنّ ابن عطية ربّما يحفظ الشواهد الشعرية، ولا يحفظ أسماء قائليها، أو ربّما أخذها عن مصادر لم تذكر أسماءهم.

1- ابن عطية، **المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز**، ج2، ص62.

2- المصدر نفسه، ج2، الصفحة نفسها.

3- نفسه، ج2، ص58.

4- نفسه، ج2، الصفحة نفسها.

ومن ذلك نجد قوله: وقال الشاعر:

وَظَلَّ بَنَاتُ اللّيْلِ حَوْلي عُكّفًا عُكُوفَ البَوَاكِي بَيْنَهُنَّ صَرِيعُ[1]

وقد استشهد بهذا البيت لتفسير كلمة "عاكفون" في قوله تعالى: ﴿**ولاَ تُبَاشِرُوهُنَّ وأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي المَسَاجِدِ**﴾ [سورة البقرة: الآية 187] أمّا الأبيات التي كان يذكر منها الشطر الذي يحوي موضع الشاهد، فقد كان يشير إلى قائليها أحيانا ويمتنع عن ذلك أخرى.

وممّا ذكر فيه اسم الشاعر قول الأعشى:

.... **قُضَاعِيَّةً تَأْتِي الكَوَاهِنَ نَاشِزًا**[2]

وقد ذكر المحقّقون الشطر الأوّل في هامش الصفحة، وهو قوله:

تَقَمَّرهَا شَيْخٌ عَشَاءً فَأَصْبَحَت .... [3]

وهذا لتفسير كلمة "ننشزها" في قوله تعالى: ﴿**وانْظُرْ إِلَى العِظَامِ كَيْفَ نُنْشِزُهَا ثمّ نَكْسُوهَا لَحْمًا**﴾ [سورة البقرة من الآية 259] وقد اعتبر علماء اللّغة الشعر العربي، حتّى أواخر القرن الثاني الهجري في الحضر، وأواخر القرن الرابع في البوادي أهمّ مدوّنة للاستشهاد منذ أن بدأوا بجمع اللّغة لأنّ العربية الفصحى في تلك الفترة لم يشبها أيّ لحن، لذلك كان الشعر دائما مصدرا مهمّا للاحتجاج عند العرب.

استشهد ابن عطية بمختلف القراءات التي نزل بها القرآن الكريم، فقد كان يقول: «قرأ ابن كثير ونافع، وأبو عمرو وعاصم، ويقول: قرأ نافع وابن عامر ويقول أيضا: قرأ الحسن وقتادة وشيبة وأبو جعفر، ويقول أحيانا: قرأت طائفة»[4] وأحيانا أخرى يتعرّض إلى اختلاف القرّاء في قراءة كلمة أو آية ففي قوله تعالى مثلا:

1- ابن عطية، **المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز**، ج2، ص130.

2- المصدر نفسه، ج2، ص412.

3- نفسه، ج2، الصفحة نفسها.

4- نفسه، ج2، ص57.

﴿**وعَلَى الذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ وأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونْ**﴾ [سورة البقرة من الآية 184] اختلف القرّاء في قراءة كلمة "يطيقونه" فقد «قرأ جمهور الناس [يُطِيقُونَهُ] بكسر الطاء وسكون الياء، والأصل يطوقونه، نقلت حركة الواو إلى الطاء وقلبت ياءً لانكسار ما قبلها، وقرأ حميد [يَطُوقُونَهُ] وذلك على الأصل والقياس الإعلال. وقرأ ابن عبّاس [يُطَوَّقُونَهُ] بمعنى يكلفونه، وقرأت عائشة وطاوس، وعمر بن دينار [يَطَّوَقُونَهُ] بفتح الياء وشدّ الطاء مفتوحة، وقرأت فرقة: [يُطَيَّقُونَهُ] بضمّ الياء وفتح الطاء وشدّ الياء مفتوحة، وقرأ ابن عباس [يَطَّيَّقُونَهُ] بفتح الياء وشدّ الطاء المفتوحة وشدّ الياء المفتوحة بمعنى يتكلّفونه وحكاها النّقاش عن عكرمة»[1] وذكر في الأخير حكمه الشخصي وهو: «تشديد الياء في هذه اللّفظة ضعيف»[2] كان ابن عطية عندما يتعرّض إلى قراءات القراء المختلفة يورد حكمه في الأخير خاصّة عندما يكون لكلّ قارئ رواية.

ونجد أيضا في نفس الآية السابقة اختلافا عند القرّاء في قراءة قوله تعـالى: «﴿**فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ**﴾ [سورة البقرة من الآية 184] فقد «قرأ نافع وابن عامر من طريق ابن ذكوان: [فِدْيَةُ طَعَامُ مَسَاكِينَ] بإضافة الفدية، وقرأ هشام عن ابن عامر: [فِدْيَةٌ طَعَامُ مَسَاكِينَ] بتنوين الفدية. وقرأ الباقون: [فِدْيَةٌ] بالتنوين [طَعَـامُ مِسْـكِينٍ] بالإفراد، وكان حكمه أن أيّد القراءة الأخيرة، وقال: إنّها حسنة لأنّها بيّنت الحكم في اليوم، ثمّ يضيف: وجمع المساكين لا يدري كم منهم في اليوم إلاّ من غير الآيـة. وقال أبو علي، فإن قلت: كيف أفردوا المسكين، والمعنى على الكثـرة لأن الّـذين يطيقونه جمع، وكلّ واحد منهم يلزمه مسكين، فكأنّ الوجه أن يجمعوا كمـا جمـع المطيقون؟ ويجيب ابن عطية على سؤال أبي علي بقولـه: فـالجواب أنّ الإفـراد حسن، لأنّه يفهم بالمعنى أنّ لكلّ واحد مسكينا»[3] كان ابن عطية يصدر حكمه بعد

1- ابن عطية، **المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز**، ج2، ص106.

2- المصدر نفسه، ج2، الصفحة نفسها.

3- نفسه، ج2، ص106-107.

كلّ قراءة في معظم الأحيان، خاصّة إذا كان الاختلاف بين القرّاء جميعهم، إذ يؤيّد واحدا منهم مع دعم موقفه بإقامة الحجة والدليل.

ب- الجانب اللّغوي: كان ابن عطية كثيرا ما يستعين باللغة لتفسير لفظة ما قال مثلا في تفسير كلمة "النهار" بعد شرحه فقهيا: «فأمّا على ظاهر اللّغة، وأخذه من السَّعَة فهو من وقت الإسفار إذا اتّسع وقت النهار»[1] ونجده أيضا في تفسير كلمة "السبب" يقول: «والسبب في اللّغة: الحبل الرابط الموصل، فيقال في كلّ ما يتمسّك به فيصل بين شيئين»[2] ونجده أيضا يقول في تفسير كلمة "الحرث": «والحرث في اللّغة: شقّ الأرض للزراعة، ويسمّى الزرع حرثا للمجاورة والتناسب، ويدخل سائر الشجر والغراسات في ذلك حملا على الزرع»[3] وأمّا في تفسير كلمة "القُرء" فيقول: «والقُرء في اللّغة: الوقت المعتاد تردّده، وقرءُ النجم: وقت طلوعه وكذلك وقت أُفُوله وقُرءُ الريح: وقت هبوبها»[4] يعتبر التفسير اللغوي ضروريا في بعض الأحيان لفهم الكلمة فهما جيّدا وذلك بذكر جميع المعاني التي يمكن أن تؤدّيها في جمل مختلفة، الأمر الذي يجعل المفسّرين يهتمّون بالجانب اللغوي للكلمة إضافة إلى الجانب الديني فيها.

ج- الجانب النحوي: وأمّا ما اختلف فيه ابن عطية عن غيره من المفسّرين فهو لجوؤه إلى التفسير النحوي لبعض آيات القرآن الكريم، وهي ظاهرة تميّز بها في تفسيره "المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز "خاصّة عن التفاسير المشهورة، فقد كان قبله مثلا "تفسير الطبري" (ت310هـ) الذي عاش قبله بحوالي قرنين من الزمن، وبعده بحوالي قرنين أيضا "تفسير ابن كثير" (ت774هـ)، إذ نجد أنّ أهم ما ميّز العلوم الفقهية في هذه الحقبة هو «بروز ظاهرة التفسير النحوي

1- ابن عطية، **المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز**، ج2، ص49.

2- المصدر نفسه، ج2، ص58.

3- نفسه، ج2، ص191.

4- نفسه، ج2، ص271.

للقرآن الكريم»[1] في المغرب والأندلس، وقد اهتمّ ابن عطية كثيرا بهذه الظـاهرة التي جعلت تفسيره شاملا لمعظم العلوم اللغوية والدينية من شعر ونحو وصـرف وبلاغة وحديث شريف وقراءات مختلفة.

ففي النحو مثلا كان يحتجّ بآراء النحاة من البصرة والكوفة معًا كسـيبويه والكسائي والفراء وأحيانا يقول: قال بعض النحاة، وأحيان أخرى يقارن بـين رأي لنحاة الكوفة، ورأي آخر لنحاة البصرة ونجد ذلك مثلا في تفسير قوله تعالى: ﴿**فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ**﴾ [سورة البقرة من الآية 198] فقد بدأ أوّلا بأقوال علماء الفقه، فقال: «أجمع أهل العلم على تمام حجّ من وقف بعرفة بعد الزوال وأفاض نهـارا قبل الليل... والتنوين في "عرفاتٍ" على حدّه في "مسلمات" الكسرة مقابلة للياء فـي مسلمين والتنوين مقابل للنون. فإذا سمّيت به شخصا ترك، وهو معرّف على حـدّه قبل أن تسمّي به.

فإن كان عرفات اسما لتلك البقعة كلّها فهو كما ذكرنا، وإن كان جمع عرفة فهو كمسلمات دون أن يسمّي به»[2] وبعد ذلك ذكر أقوال النحاة فـي هـذا فقـال: «وحكى سيبويه كسر التاء من "عرفات" دون تنوين في حالة النصب والخفض مع التعريف. وحكى الكوفيون فتحها في حالة النصب والخفض تشبيها بتـاء فاطمـة وطلحة»[3] وفي تفسير قوله تعالى أيضا: ﴿**والَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ ويَذَرُونَ أَزْوَاجًـا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا**﴾ [سورة البقرة من الآية 234] قـال ابـن عطية في تفسيرها: «قال بعض نحاة الكوفيين: الخبر عن الذين متروك (أي غيـر موجود، لأن القصد الإخبار عن الأزواج لا عن الرجال الذين يتوفـون) والقصـد الإخبار عن أزواجهم بأنّهن يتربّصن ومذهب نحاة البصرة أن خبر (الذين) مترتّب بالمعنى (مراده أن الخبر موجود بالمعنى لا باللّفظ) وذلك أنّ الكلام إنّمـا تقـديره

1- محمد المختار ولد أباه، **تاريخ النحو العربي في المشرق والمغرب**، دط. دب: 1996 منشورات المنظمة الإسلامية للتربية والثقافة والعلوم، ص321.

2- ابن عطية، **المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز**، ج2، ص173.

3- المصدر نفسه، ج2، ص174.

(يتربّص أزواجهم) وإن شئت قدّرته (وأزواج الذين يتوفون منكم يتربّصن) فجاءت العبارة في غاية الإيجاز وإعرابها مترتّب على هذا المعنى المالــك لهــا المتقــرّر فيها»[1] ومثل هذا التفسير نجد منه الكثير عند ابن عطية، إذ لا تكاد تخلو آية مــن الآيات من التفسير النحوي واللّغوي والفقهي.

ولو أخذنا مثلا تفسير قوله تعالى: ﴿**وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ**﴾ [سورة البقرة من الآية 198] عند كل من الطبري وابن كثير وابن عطية نجد ما يلي:

يقول الطبري: «اذكروا الله بالثناء عليه والشكر له على أياديه كما هــداكم فاستنقذكم من النار»[2].

ويقول ابن كثير في تفسيرها: «تنبيه لهم على ما أنعم الله عليهم من الهداية والبيان والإرشاد إلى مشاعر الحجّ على ما كان عليه من الهداية إبــراهيم الخليــل عليه السلام»[3].

أمّا ابن عطية فيقول: «تعديد للنعمة وأمر بشكرها، ثمّ ذكّرهم بحال ضلالهم ليظهر قدر الإنعام، والكاف في (كما) نعت لمصدر محذوف و(ما) مصدرية أو كافة (أي كفّت الكاف عن العمل وكونها مصدرية أولى أي كهدايته، والفرق بين المصدرية والكافة أن (ما) المصدرية تكون هي وما بعدها في موضع جرّ إذ ينسبك منها مع الفعل مصدر والكافة لا يكون فيها ذلك، إذ لا عمل لها البتة.

(وإن) مخففة من الثقيلة، ويدلّ على ذلك دخول اللام في الخبر هــذا قــول سيبويه، وقال الفرّاء: هي النافية لمعنى (ما) واللام بمعنى (إلاّ) والضمير في (قبله) عائد على الهدى»[4].

1- ابن عطية، **المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز**، ج2، ص300.

2- الطبري، **مختصر تفسير الطبري**، تح: محمد علي الصابوني، صالح أحمد رضا، ط2. الجزائر: 1987، مكتبة رحاب، مج1، ص63.

3- ابن كثير، **تفسير القرآن العظيم**، ج1، ص286.

4- ابن عطية، **المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز**، ج2، ص175.

أمّا تفسير قوله تعالى: ﴿**الله لاَ إِلَهَ إلاَّ هُوَ الحَيُّ القَيُّومُ لاَ تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلاَ نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ ومَا فِي الأَرْضِ مَنْ ذَا الذِّي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إلاَّ بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ ومَا خَلْفَهُمْ**﴾ [سورة البقرة من الآية255] فيقول الثلاثة فيها ما يلي:

الطبري يقول: «﴿**الله لاَ إِلَهَ إلاَّ هُوَ الحَيُّ القَيُّومُ**﴾ الله الذي لا معبود سواه هو الباقي الدائم الذي لا يموت، القيّوم أي القائم برزق ما خلق وحفظه، يكلؤه ويحفظه.

﴿**لاَ تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلاَ نَوْمٌ**﴾ لا يأخذه نعاس ولا نوم ثقيل.

﴿**لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ**﴾ هو المالك لجميع ما في السموات والأرض، الكل ملكه وخلقه فلا ينبغي أن يعبد غيره.

﴿**مَنْ ذَا الّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إلاَّ بِإِذْنِهِ**﴾ لا يشفع أحد لأحد إلاّ بإذن الرحمن ﴿**يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيَدِيهِمْ ومَا خَلْفَهُمْ**﴾ هو المحيط علما بكل ما كان وما هو كائن لا يخفى عليه شيء»[1].

أمّا ابن كثير فيفسر الآية نفسها بذكر بعض الأحاديث التي وردت عن النبي صلى الله عليه وسلم في فضل هذه الآية، يقول: «هذه آية الكرسي، ولها شأن عظيم، قد صحّ الحديث عن الرسول الله صلى الله عليه وسلم بأنّها أفضل آية في كتاب الله، قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق حدثنا سفيان عن سعيد الجريري عن أبي السليل عن عبد الله بن رباح عن أبيّ هو ابن كعب أن النبي صلى الله عليه وسلم سأله: أي آية في كتاب الله أعظم؟ قال الله ورسوله أعلم فردّدها مرارا ثمّ قال أبيّ: آية الكرسي، قال: ليهنك العلم أبا المنذر، والذي نفسي بيده إنّ لها لسانا وشفتين تقدّس الملك عند ساق العرش»[2].

ثمّ فسّر الآية بقوله: ﴿**الله لا إله إلاّ هو**﴾: «إخبار بأنّه المتفرّد بالإلهية لجميع الخلائق.

1- الطبري، **مختصر تفسير الطبري**، مج1، ص81.

2- ابن كثير، **تفسير القرآن العظيم**، ج1، ص335.

﴿**الحي القيوم**﴾: أي الحي نفسه الذي لا يموت أبدا المقيم لغيره، وكان عمر يقرأ: القيام فجميع الموجودات مفتقرة إليه، وهي غني عنها لا قوام لها بدون أمره.

﴿**لا تأخذه سنة ولا نوم**﴾: أي لا يعتريه نقص ولا غفلة، ولا ذهول عن خلقه، بل هو قائم على كل نفس بما كسبت، شهيد على كل شيء لا يغيب عنه شيء، ولا تخفى خافية، ومن تمام القيومية أنه لا يعتريه سِنة ولا نوم (سنة هي الوسن والنعاس).

﴿**له ما في السموات وما في الأرض**﴾: إخبار بأنّ الجميع عبيده وفي ملكه وتحت قهره وسلطانه.

﴿**من ذا الذي يشفع عنده إلاّ بإذنه**﴾: كقوله: وكم من ملك في السموات لا تغني شفاعتهم شيئا إلاّ من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى ... وهذا من عظمته وجلاله وكبريائه عز وجل أنّه لا يتجاسر أحد على أن يشفع لأحد عنده إلاّ بإذنه... ﴿**يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم**﴾: دليل على إحاطة علمه بجميع الكائنات ماضيها وحاضرها ومستقبلها»[1].

أما ابن عطية فيشير إلى أنّ هذه الآية «سيّدة آي القرآن، ورد ذلك في الحديث وورد أنّها تعدل ثلث القرآن، وورد أنّ من قرأها أوّل ليلة لم يقربه شيطان وكذلك من قرأها أوّل نهاره، وهي متضمّنة التوحيد، والصفات العلى و(الله) مبتدأ و(لا إله) مبتدأ ثان وخبره محذوف تقديره: معبود أو موجود، و(إلاّ هو) بدل من موضع (لا إله) والحي صفة من صفات الله تعالى ذاتية، وذكر الطبري عن قوم أنّهم قالوا: الله تعالى حي لا بحياة وهذا قول المعتزلة، وهو قول مرغوب عنه وحكي عن قوم أنّه حيّ بحياة هي صفة له وحكي عن قوم أنه يقال: حيٌّ كما وصف نفسه، ويسلم ذلك دون أن ينظر فيه، و(القيوم فيعول) – من القيام أصله: قيووم، اجتمعت الياء والواو وسبقت إحداهما بالسكون فأدغمت الأولى في الثانية بعد قلب الواو ياء وقيوم بناء مبالغة أي: هو القائم على كل أمر بما يجب له، وبهذا

1- ابن كثير، **تفسير القرآن العظيم**، ج1، ص359–360.

المعنى فسّره مجاهد، والربيع، والضحاك...ثمّ نفى عز وجل أن تأخـذه سـنة ولا نوم، وفي لفظ الأخذ غلبة ما، فلذلك حسنت في هذا الموضع بالنفي، والسنة: بـدء النعاس وهو فتور يعتري الإنسان وترنيق في عينيه، وليس يفقد معه كـل ذهنـه والنوم هو المستثقل الذي يزول معه الذهن...

﴿**له ما في السموات وما في الأرض**﴾: أي بالملك، فهو مالك الجميع وربّه وجاءت العبارة بـ [ما] وإن كان في الجملة من يعقل من حيث المراد الجملة والموجود. ثمّ قرّر ووقف تعالى من يتعاطى أن يشفع عنده، إلاّ أن يأذن هو فيه جلّ وعلا ... والضميران في قوله (أيديهم وما خلفهم) عائدان على كل من يعقل ممّن تضمّنه قوله: ﴿**له ما في السموات وما في الأرض**﴾ وقال مجاهد: ما بين أيديهم: الدنيا، وما خلفهم: الآخرة، وهذا في نفسه صحيح عند الموت، لأنّ ما بين اليد هو كل ما تقدم الإنسان، وما خلفه كل ما يأتي بعده»[1] نلاحظ من خلال هذا التفسير لبعض آيات القرآن الكريم عند المفسرين الثلاثة أنّ ابن كثير لا يختلف تفسيره كثيرا عن تفسير الطبري، إلاّ في بعض الإضافات كذكر ابن كثير مثلا لأحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم في فضل آية الكرسي، أماّ فيما عدا ذلك فلا نجد اختلافا كبيرا أماّ ابن عطية فقد لجأ إلى نوع آخر من التفسير، وهو التفسير النحوي ليس لكل آيات القرآن الكريم وإنّما أعرب معظمها، وهي ظاهرة جديدة لم يسبق لمفسري المغرب والأندلس أن لجأوا إلى مثلها خاصّة وأنّ ابن عطية لم يعتمد رأي نحوي واحد، وإنّما على مختلف الآراء من مذهب البصرة والكوفة ونحاة آخرين لم يذكر إلى أي مذهب ينتمون.

جاء تفسير ابن عطية في ستة أجزاء فقد «اعتزّ الأندلسيون والمغاربة كثيرا بهذا التفسير»[2] تعرض فيه لمختلف آراء علماء التفسير واللّغة والنحو ومختلف القراء، أضف إلى ذلك المدوّنة الشعرية الغنية المكوّنة من شعراء جاهليين

1- ابن عطية، **المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز**، ج2، ص379- 380، 382-384.

2- رضا عبد الجليل الطيار، **الدراسات اللغوية في الأندلس**، ص206.

ومخضرمين وإسلاميين، أمّا الحديث الشريف فقد كان له نصيب كبير في الاستشهاد والاحتجاج به.

تميّز ابن عطية في تفسيره بكثير من المميّزات، ما جعل مكانـــته تزداد وقيمة كتابه تعلو إلى مرتبة التفاسير المشرقية، التي كان لها السبق كغيرها من المؤلفات اللّغوية الأخرى، وما جعل لهذا العلم أيضا (علم التفسير) مكانة كبيرة لدى العلماء في المغرب والأندلس، وأصبح الخوض فيه سهلا عليهم، ومن الذين اعتمدوا على تفسير ابن عطية نجد أبا حيان الأندلسي الغرناطي (ت745هـ) الذي نقل مادته ونثرها في تفسيره الشهير المسمى بـــ "البحر المحيط" كما اعتمدت عدّة مؤلفات على تفسير ابن عطية، ربط معظم أصحابها بينه وبين تفسير الزمخشري من بينهم: أبو محمد عبد الكبير الغافقي (ت617هـ)، وابن الكماة أبو محمد عبد الله (ت619هـ) وأبو الحسن علي بن محمد الأنصاري (ت663هـ)، إلى غير ذلك من المؤلفين الذين اعتزّوا به سواء كان ذلك في المغرب والأندلس أو في المشرق.

كان لتفسير ابن عطية أثر كبير على المفسرين الذين جاءوا بعده، وإذا كان العلماء في موطنه يشهدون له بالتميّز، فإنّه يستحق ذلك، لأنّ التفسير النحوي ظاهرة جديدة على العلماء في بلاده.

رغم أن علماء المغرب والأندلس كانوا بعيدين كل البعد عن البيئة العربيـــة ولم يشهدوا بداية الإسلام بنزول القرآن الكريم على محمد صلى الله عليه وسلّم ولم يخالطوا الأعراب الأقحاح الذين نقلت عنهم أكثر العربية، إلاّ أنّهم تمكّنوا من تفسير القرآن الكريم بطريقة تشهد لهم ببراعتهم، وتميّزهم، بأنّهم يعرفون مـــن العربيـــة فصيحها وغريبها، حوشيها ومهجورها ممّا جعلهم يتألّقون في مؤلّفاتهم.

وإضافة إلى التأليف في المعاجم والتفسير، اهتم علماء اللّغة في المغرب والأندلس بالتأليف في ميادين لغوية أخرى، نذكر منها: التأليف في غريب القرآن والحديث: الذي صنّف فيه أبو الحسن محمد ابن أحمد الجياني (ت540هـ) بغرناطة مصنّفا في شرح "غريب البخاري" وألّف ابن قرقول أبو إسحاق إبراهيم بن يوسف القائدي الوهراني الحمزي (ت569هـ) كتاب "مطالع الأنوار على

صحاح الآثار"، وابن عسكر أبو عبد الله محمد بن علي الغساني المالقي (ت671هـ) كتاب "المشرع الروي في الزيادة على غريبي الهروي" وألّف أيضا أبو يحي عبد الرحمن بن عبد المنعم بن محمد بن الفرس (ت663 هـ) كتابا في "غريب القرآن" [1].

أمّا التأليف في لحن العامة فقد صنّف فيه ابن هشام اللخمي (ت577 هـ) "المدخل إلى تقويم اللسان"، كما ألّف أبو عمران موسى بن علي بن عامر الجذامي الجزيري (ت631هـ) كتاب "شرح لحن العامة للزبيدي" ووضع أبو يحي عبيد الله بن أحمد الزجالي القرطبي (ت694هـ) كتاب "أمثال العوام في الأندلس"[2].

أمّا كتب الشروح، فقد ألّف ابن هشام اللخمي كتابا فيها سمّاه "شرح فصيح ثعلب" كما ألّف أبو جعفر اللبلي (ت691 هـ) كتابا سماه "تحفة المجد الصريح في شرح كتاب الفصيح" [3] لم يكن التأليف اللّغوي في المغرب والأندلس يقلّ أهمية عن نظيره في المشرق، غير أنّ هذا الأخير بدأ يضعف فيه النشاط العلمي، بعد النكبات المتكررة التي تعرض لها إذ «تنصّ الكتب على أن العصور المظلمة تبدأ بأواخر العصر العباسي الرابع (447-656هـ) بدخول بغداد في الحكم المغولي حيث ظهر جنكيز خان (ت 625هـ) القائد المغولي وحمل على المملكة الإسلامية في القرن السابع الهجري فاكتسحها وضرب مدنها»[4] ما أدّى إلى تدهور الحياة العلمية والفكرية، وتراجع مردود العلماء وإبداعهم، حيث أصبحوا يهتمون بكتب الشروح والتعليقات والتأليف الموسوعي، أكثر من اهتمامهم بالإبداع، خاصّة في ميداني اللّغة والنحو، اللّذين أظهر فيهما علماء المغرب والأندلس تميّزا كبيرا وإبداعا لا مثيل له.

1- رضا عبد الجليل الطيار، **الدراسات اللغوية في الأندلس**، ص80، 82-83. بتصرف.

2- المرجع نفسه، ص117. بتصرف.

3- نفسه، ص120، 131. بتصرف.

4- صالح بلعيد، **ألفية ابن مالك في الميزان**، دط. الجزائر: 1995، ديوان المطبوعات الجامعية ص25.

الفصل الثانـي

التأليف النحوي وأهم النحاة في المغرب والأندلس
خلال القرنين السادس والسابع الهجريين

مدخل:

عرف أهل المغرب والأندلس النحو العربي، منذ أوائل القرن الثاني الهجري، وبداية القرن الثالث، وقد كان النحو الكوفي أوّل ما عرفوه على يد جودي بن عثمان (ت198هـ) الذي رحل إلى المشرق والتقى بإمام المدرسة الكوفية الكسائي (ت189هـ) وتلميذه الفرّاء (ت207هـ) فهو «أوّل نحاة الأندلس بالمعنى الدقيق لكلمة نحوي...وأول من أدخل إلى موطنه كتب الكوفيين» [1] ثم توالى العلماء على دراسة هذه الكتب، والاهتمام بها وشرحها، والتعليق عليها، مثلما فعل "مفرج بن مالك النّحوي" الذي وضع شرحا على كتاب الكسائي، ويعدّ من المؤسسين الأوائل للنحو الكوفي في المغرب والأندلس، نظرا لكونه أول ما وصل إليهما من المشرق العربي بعدما كانت العلوم الفقهية من أبرز اهتمامات العلماء في هذين القطرين، وغيره من النحاة كثير، ممّن جعل دراسة النحو هدفه الأسمى وذلك بالاطّلاع على خبايا كتاب الكسائي، وغيره من كتب الكوفيين، والتعرّف أكثر على هذا العلم الجديد الذي سبق المشارقة إليه، ونبغوا فيه أيّما نبوغ .

أمّا النحو البصري، فقد تأخّر نحاة المغرب والأندلس عن الاهتمام به مقارنة بالنحو الكوفي «يبدو أنّ الأندلس تأخرت في عنايتها بالنحو البصري، وأنّها صبّت عنايتها أوّلا على النحو الكوفي حتّى إذا أصبحنا في أواخر القرن الثالث الهجري وجدنا الأفشينق محمد بن موسى بن هاشم المتوفّى سنة (307 هـ) يرحل إلى المشرق، ويلقى بمصر أبا جعفر الدينوري، ويأخذ عنه كتاب سيبويه رواية ويقرأه بقرطبة على طلاّبه»[2] وبعد انتقال كتاب سيبويه إلى المغرب والأندلس انكبّ عليه الطّلاب بالدّرس، والنّحاة بالشرح والتّعليق فقد شغلهم ولقي منهم اهتماما كبيرا.

وقيل أيضا إنّ كتاب سيبويه انتقل إلى الأندلس على يد الرباحي، الذي كان له السّبق في اهتمام المغاربة والأندلسيين بالنحو البصري «ولا يلبث محمّد بن يحي

1- شوقي ضيف، **المدارس النحوية**، ط2. القاهرة: 1972، دار المعارف، ص288- 289.

2- المرجع نفسه، ص289.

المهلبي الرباحي المتوفّى سنة(353هـ) أن يفتح عصر الاهتمام البالغ في موطنه بكتاب سيبويه وكان قد ثقف الفلسفة والمنطق والكلام، ورحل إلى المشرق فلقي بمصر نحويها النابه أبا جعفر بن النحاس، وأخذ عنه كتاب سيبويه رواية، وعاد إلى قرطبة يفرغ له ولقراءته على الطلاب، شارحا له ومفسرا تفسيرا مبينا»[1] ولمّا عاد إلى موطنه اتّخذ من شرح الكتاب لسيبويه هدفا له بتعليمه وشرح دقائقه ونشر النحو البصري، الذي كان قد سبقه النحو الكوفي إلى دخول المغرب والأندلس وكان الاهتمام به قد بلغ درجة كبيرة، نظرا لكونه علما جديدا لم يعهد المجتمع المغربي والأندلسي بمثله، والذي لقي استحسانا كبيرا من قِبل الطلاب والدارسين، ناهيك عن معلميه الذين برعوا في طريقة إقرائه، ومحاولة شرحه وتبسيطه.

لم يتهيّأ للمغاربة والأندلسيين الإلمام بالمذهب البصري إلاّ بعد مدة من دخوله إليهم، فبعد أن أقرأه الأفشينق على الطلاب قبل وفاته سنة (307هـ)، جاء بعده الرباحي الذي أعاد إقراءه مرة أخرى، وذلك قبل وفاته أيضا سنة (353هـ) فالمدّة التي تفصل بينهما ليست قليلة، واهتمام نحاة المغرب والأندلس بالنحو البصري يأتي في عصر الرباحي أكثر منه في عصر الأفشينق. اهتم الطلاب والدارسون بشرح الرباحي، وتفسيره لكتاب سيبويه، لأنّه جاءهم بمنهج جديد «يرمي إلى تدبّر أصول هذا العلم وعرض الآراء فيها على محك النقد المتحرر والحرص على حسن الاختيار»[2] حيث أراد الرباحي أن يعرض النحو في المغرب والأندلس بمنهج جديد، يخالف فيه المشارقة، فقد كان هدفه إرساء هذا العلم، ونقد ما جاء به الأوّلون من آراء فرضوها فرضا، مع حرص الرباحي على الإتيان بها مناسبة لقواعد النحو لا تخرج عن أصوله.

1- شوقي ضيف، **المدارس النحوية**، ص290.

2- محمد المختار ولد أباه، **النحو في المشرق والمغرب**، ص224.

وبهذا العمل بدأ النحو البصري في التوسّع والانتشار، ابتداء من عصر الرباحي، وتلامذته الذين تأثّروا به وبمناهجه، وجعل للنحو عامة مهتمين به وعلماء يبحثون فيه، وفي مختلف أبوابه، فنبغ الكثير فيه وفي علوم أخرى، خاصّة علوم الدين، التي كانت أوّل اهتمامات المغاربة والأندلسيين، وقد حاولوا التغلب فيها على المشارقة، وذلك بإثبات وجودهم بالنبوغ في علوم كان المشارقة أوّل من تطرق إليها.

أمّا علم النحو فقد عكف نحاة المغرب والأندلس على دراسته والتوسع فيه يدرّسونه ويؤلّفون الكتب فيه، و يشرحون ما سبق المشارقة إليه، ويتميّزون بآراء خاصّة بهم تصنّف ضمن آراء كبار النّحاة.

أمّا النحو البغدادي فقد وصل إلى المغرب والأندلس بعد فترة يمكن القول إنّها طويلة من وصول النحوين الكوفي والبصري إليهما، ولقد سبق ظهوره في المشرق العربي متأثّرا بآراء نحاة المذهبين (الكوفي والبصري) فقد «كان لعلماء البصرة منهجهم وللكوفيين منهجهم، فالتقى المنهجان في بغداد، ليكوّنا النحو العربي في مرحلة من مراحل نضوجه»[1] هذه المرحلة من النضج، تميّز بها النحو العربي عمّا كان عليه في السابق من تضارب للآراء بين النحويين البصريين والكوفيين وأنصارهما «النحو البغدادي كان بريئا منذ أيامه الأولى من التعصّب فختن ثعلب يقرأ كتاب سيبويه على المبرد، و نرى ابن كيسان يجلس في حلقة المبرد، و يسأله عن مسائل نحويّة بدت له»[2] فلم يكن نحاة بغداد يتشيّعون لمذهب معين، فقد كانوا يأخذون النحو من كلا المذهبين، ويتخيّرون ما يرونه مناسبا وقد «اتّبع نحاة بغداد في القرن الرابع الهجري نهجا جديدا في دراستهم ومصنفاتهم النحوية، يقوم على الانتخاب من آراء المدرستين البصرية والكوفية جميعا»[3] إذ توفرت لنحاة بغداد

1- شعبان عوض محمد العبيدي، **النحو العربي ومناهج التأليف والتحليل**، ص182.

2- المرجع نفسه، ص182.

3- شوقي ضيف، **المدارس النحوية**، ص245.

ظروف جعلتهم مخيّرين بين السّماع والأخذ عن نحاة الكوفة، أو البصرة وما من رادع يقف في وجههم، أو يجبرهم على اتّخاذ طريق معيّن.

وعلى نهج نحاة بغداد سار نحاة المغرب والأندلس، فقد مزجوا بين آراء المدارس المختلفة وخالطوا «جميع النحاة السابقين من بصريين وكوفيين وبغداديين وإذا هم ينتهجون نهج الأخيرين من الاختيار من آراء نحاة الكوفة والبصرة ويضيفون إلى ذلك اختيارات من آراء البغداديين، وخاصّة أبا علي الفارسي وابن جني»[1] وعلى هذا الأساس تمكّن نحاة المغرب والأندلس من الخوض في غمار البحث النحوي، وإيجاد مكانة لهم بين من سبقوهم من المشارقة، الذين يعدّون أهل هذا العلم، وأصحابه. إلاّ أنّ نحاة المغرب والأندلس لم يعتمدوا على الانتقاء من المدارس التي سبقتهم فقط، وإنّما كانت لهم آراؤهم المتفرّدة التي تميّز بها معظمهم.

1- دوافع التّأليف النّحوي في المغرب والأندلس: اهتمّ نحاة المغرب والأندلس بتأليف الكتب النحوية مذ عرفوا هذا العلم، ودرسوه وفهموا مسائله وقواعده، فقد أولوه من الرعاية والاهتمام ما جعله في المقام الأوّل بين العلوم الأخرى عندهم، فهم لم ينشغلوا به لمجرّد فهمه فقط، وإنّما كانت لهم دوافع حرصوا من أجلها على التّمكن من هذا العلم وفهمه الفهم الصّحيح نذكر من تلك الدوافع ما يلي:

1-1- تطوير اللّغة وحمايتها من اللّحن: بدأ اللّحن بالانتشار في المغرب والأندلس، وأصبحت اللّغة العربية بذلك مهددة بطغيان هذه الظاهرة التي سبق لها الظهور في المشرق العربي فمع «الزمن أخذت تتفشّى الأخطاء في الكتابة، حتّى عند المدقّقين الذين يتحرّون وجه الصواب وما ذلك إلاّ لأنّ العامية الأندلسية كانت تزاحم الفصحى مزاحمة شديدة»[2] بدأت الفصحى تتأثّر بمختلف اللّهجات وتتدنّى شيئا فشيئا، سواء كان ذلك في المغرب أو الأندلس، فبرزت الحاجة إلى إعادة الأمور إلى

1- شوقي ضيف، **المدارس النحوية**، ص292.

2- ألبير حبيب مطلق، **الحركة اللغويّة في الأندلس**، ص285.

نصابها، واسترجاع الفصحى لمكانها الطّبيعي في مجتمع مسلم يعتبر القرآن الكريم واللّغة العربية مقوّمان من مقوّمات الدّولة، كما كان يدفعهم إلى ذلك أيضا «حرصهم على القرآن وسلامة لغته والتّجويد في تلاوته وضبطه»[1] لأنّه وبعد تفشّي اللّحن وتأثّر القرآن الكريم به، كان لابدّ من إيجاد وسيلة تحمي كتاب الله ولغة القرآن من استفحال هذه الظّاهرة، وذلك بتنقية اللّغة العربية والحفاظ عليها.

1-2-الرد على المشارقة: كان المغاربة والأندلسيون «يحسّون بنوع من التخلف عن المشارقة، فحاولوا أن يعوّضوا ذلك بتأكيد تفوّقهم رغم بعدهم، وسبقهم رغم غربتهم، ومن هنا نراهم يتعصّبون للغة، حيث يفتنون بعلم النحو ويقتلونه درسا وتأليفا»[2] كان حبّ التفوق على المشارقة هاجسهم، الذي عملوا بقوّة لتحقيقه، خاصّة في مجال اللّغة والنحو، رغم أنّ سيطرة المشارقة على العلوم العربية دامت لعدة قرون، فقد سبقوا إليها، لأنّ اللّغة العربية لغتهم والقرآن الكريم نزل بين ظهرانيهم.

أمّا المغاربة فقد كانوا يعانون بسبب وضعهم من المشارقة والأندلسيين معا «فإنّ فتح الأندلس كان سببا في تحويل مجرى تيار الفكر إليها، وحرمان المغرب من أن يتبوّأ منزلة الزعامة والصدارة»[3] تلك المنزلة التي اعتبرها المغاربة من حقّهم، باعتبارهم السبّاقين إلى اعتناق الإسلام واللّغة العربية، وباعتبارهم مساهمين في فتح بلاد الأندلس، ونشر التعاليم الإسلامية بها.

1-3-التراجع الكبير الذي أصاب الدراسات اللّغويّة والنحوية في المشرق: أحسّ بعض علماء المغرب والأندلس بخطورة الوضع، فخافوا «من ضياع ما اكتسبته الدراسات اللّغوية العربية من تقدم وازدهار، بعد التدهور العلمي الذي بدأ

1- مهدي المخزومي، **الدرس النحوي في بغداد**، دط. بغداد: 1974، مطبعة السعون، ص170.

2- محمّد بن تاويت، محمد الصادق عفيفي، **الأدب المغربي**، ط2. بيروت: 1969، دار الكتاب اللبناني، ص60.

3- المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

يصيب العالم الإسلامي وقلّة الأعلام الكبار فيه»[1] أصـــاب العلمـــاء فـــي هـــذا العصر(القرنين السادس والسابع الهجريين) نوع من الخمود والجمود الفكريين فقد كانوا بعيدين عن الإبداع والعمل الجدي، إذ صـــبّوا اهتمامـــاتهم علـــى التـــأليف الموسوعي وجمع أخبار السابقين، فحاول علماء المغرب والأندلس السيطرة علـــى الأوضاع، وإعادة الاعتبار لدراسة اللّغة والنحو.

1-4- شرح الكتب وتبسيطها وتسهيل فهمها للدارسين: فقد اهتمّ الكثيـــر من النحويين بشرح كتب السابقين، خاصّة "الكتاب" لسيبويه وذلك لتســـهيل فهمـــه للناشئة، والمهتمين بعلم النحو.

2-أهمّ نحاة المغرب والأندلس خلال القرن السادس الهجري:

2-1- ابن السيّد البطليوسي: (ت528هـ)

مؤلفاته: له من التصانيف الجليلة والمؤلفات المتميّزة «الاقتضاب في شرح أدب الكتاب، الحلل على أبيات الجمل للزجاجي، التنبيه على الأسباب الموجبة للخلاف بين الناس في مذاهبهم، شرح الموطأ، كتاب المثلث، المسائل والأجوبة وإثبات النبوات، شرح سقط الزند للمعري»[2] اختلفت تصانيفه وتعدّدت، ممّا يدل على سيلان علمه في اللّغة والنحو، فقد جمع بين الشعر واللّغة والنحو والأصول هذه الميزة التي ميّزت الكثير من نحاة المغرب والأندلس، فقد كان ابن السيّد شاعرا مجيدا ونحويّا مبدعا.

جاء في "وفيات الأعيان" أيضا «وبالجملة فكلّ شيء يتكلّم فيه فهو غاية الجودة، وله نظم حسن فمن ذلك قوله:

1-رضا عبد الجليل الطيار، **الدراسات اللّغوية في الأندلس**، ص47.

2- الفيروزأبادي، **البلغة في تاريخ أئمة اللغة**، تح: محمد المصري، دط. دمشق: 1972 منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي وإحياء التراث، ص115.

أَخو العِلـــــــــمِ حيٌّ خَالدٌ بَعدَ مَوتِه　　　وأَوْصَالُه تَحــتَ التُّرابِ رَمِيمُ
وذُو الجَهلِ مَيتٌ وهُوَ مَاشٍ على الثَّرَى　　　يُظَنُّ مِن الأَحْياءِ وَهُو عَدِيمُ». [1]

منهجه: له آراء مختلفة في النحو، منها ما يتابع مذهب البصريين، ومنها ما يأخذ برأي الكوفيين، وأخرى يلجأ إلى آراء البغداديين، إلاّ أنّه انفرد بمسائل منها أنّ «(حتّى) لا تعطف المفردات فقط بل تعطف أيضا الجمل مثل: سرت حتّى تكلّ المطايا برفع تكلّ»[2] ومن آرائه أيضا «أنّ (ما) تقع صفة للتّعظيم كقولهم: لأمر ما يسود من يسود أي لأمر عظيم ومنه: الحاقّة ما الحاقّة»[3] إلى غير ذلك من الآراء التي خالف فيها جمهور النحاة من مختلف المدارس، فقد كان نحاة المغرب والأندلس يتخيّرون من آراء المذاهب، ويضيفون ما يبتكرونه من آراء.

2-2- ابن الطراوة: (ت528هـ) يعدّ ابن الطراوة من أبرز النحاة الذين أنجبتهم الأندلس خلال القرن السادس الهجري، هذه الفترة عرفت بنبوغ العديد من العلماء المتخصّصين في النحو واللّغة «فلقد كان ابن الطراوة من أوائل الأندلسيين الذين كتبوا في النحو كتابة متخصّصة، تقوم على فقه أسراره، وكشف غوامضه وتقوم أيضا على تقديم الجديد المبتكر من الآراء»[4] كان النحاة قبل ابن الطراوة مجرد رواة لكتب السابقين، يقرؤونها على الطلاب ويشرحون ما فيها، وقلّ ما تجد فيهم من استقلّ برأي معين، أو أتى بالجديد.

جاء في البغية: «سمع على الأعلم كتاب سيبويه، وعلى عبد الملك بن سراج، وروى عنه أبو الوليد الباجي وغيره، وعنه السهيلي والقاضي عياض

1- ابن خلكان، **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان**، مج3، ص96- 97.

2- شوقي ضيف، **المدارس النحوية**، ص247، ع/ ابن هشام الأنصاري، **مغني اللبيب عن كتب الأعاريب**، ص295.

3- المرجع نفسه، الصفحة نفسها، ع/ السيوطي، **همع الهوامع في شرح جمع الجوامع**، ص295.

4- محمد إبراهيم البنا، **أبو الحسين بن الطراوة وأثره في النحو**، ط1. تونس: 1980، دار بو سلامة للطباعة والنشر والتوزيع، ص7.

– مات في رمضان أو شوال – سنة ثمان وعشرين وخمسمائة عن سنّ عالية، ومن شعره في فقهاء مالقة:

وإذا رَأوا جَمَلاً يَأتِي عَلى بُعْدٍ   مَدُّوا إلَيـــــه جَمِيعًا كَفَّ مُقْتَنِصِ

أوْ جِئْتَهُم فَارِغًا لَزُّوكَ فِي قَرَن   وإنْ رَأُوا رِشْوَةً أفْتَوكَ بالرُّخَصِ»[1].

تميّز ابن الطراوة بين أقرانه من النحاة تميّزا كبيرا، لم يعرفه أكثرهم، فقـد تتلمذ على يد الأعلم الشنتمري (ت 476هـ) الذي كان يعد من أكبر النحاة وعَلَمًـا من أعلام العربية، فريد عصره مولعا بالعلل الثواني والثوالث وغيرها، لـه آراء تفرّد بها في النحو «كان مبرزا في علوم اللسان نحوا ولغة وأدبا، فمن مثن عليـه بالإمامة والتقدّم في الصناعة كأبي بكر بن سمحون فإنّه كان يغلو في الثناء عليـه ويقول: ما يجوز على الصراط أعرف منه بالنحو ومن غامز يجهّله وينسبه إلـى الإعجاب بنفسه كابن خروف»[2] تضاربت آراء النحاة حول مكانة ابـن الطـراوة فنجد تلاميذه يغالون في رفع شأنه، ويشهدون له بإمامته في النحو، ولشدّة اعتزازه بنفسه وتمسكه بآرائه ونقده الشديد لآراء من سبقوه، ثارت حفيظـة بعـض مـن عاصروه من المتعصّبين للنحويين الذين انتقدهم. خلفه تلاميذه من بعده، وسـاروا على نهجه في الدرس، وهناك من أعلن أنّه على مذهب ابن الطراوة فـي النّحـو «وما علمنا من نحاة الأندلس من تفرد بمذهب متكامل غير ابن الطراوة فكنا نسمع أنّ فلانا على مذهب البصريين، وأنّ آخر على مذهب الكوفيين، ولـم نسـمع أنّ نحويا على مذهب المبرد أو ثعلب أو غيرهما فإذا سمعنا نحويا يقـول إنّـه علـى مذهب ابن الطراوة في النحو، فهذا دليل على أنّه استطاع أن يقدّم أسـلوبا جديـدا للدرس النحوي، ومنهجا متميّزا في معرفة أسرار اللّغة العربية و طريقة البحـث

1- السيوطي، **بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة**، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، دط. بيروت: دس، المكتبة العصرية، مج2، ص203.

2- المرجع نفسه، مج2، ص203.

فيها»[1] إذ أنّ المذاهب لا تعني عالما واحدا وإنّما جماعة من العلماء تسير على نفس المنهج، فعندما نقول مذهب البصرة، فنحن لا نقصد به سيبويه فقط، وإنّما جماعة من العلماء اتّبعوا منهج سيبويه وكذلك الأمر بالنسبة إلى مذهب الكوفة «والقدماء أنفسهم أطلقوا على منهج البصريين اسم المذهب ومثله على منهج الكوفيين»[2] وإذا نهج بعض علماء المغرب والأندلس منهج ابن الطراوة فهذا يعني أنّ له آراء في النحو تفرّد بها وخالف فيها جمهور النحاة، وكان لها صدى واسع في نفوس تلاميذه والمنتصرين له فهو لم يخرج بها عن العرف النحوي، وإنّما حاول تطوير هذه الآراء، وإيجاد بعض التخريجات التي تساعد على فهم أكثر للنحو العربي.

جاء ابن الطراوة في مقدمة نحاة القرن السادس والسابع الهجريين هذه الفترة التي تميّزت من الناحية السياسية باضطراب كبير وثورات عديدة، إلاّ أنّها من الناحية العلمية عرفت ازدهارا وتطوّرا كبيرين، لم تشهد المغرب والأندلس مثلهما من قبل خاصة في اللّغة والنحو.

كان ابن الطراوة من أبرز نحاة الأندلس الذين اهتموا بالنحو وأحاطوه بالدرس والبحث، فقد أقبل الطلبة على حلقاته إقبالا كبيرا، يشهد له بنبوغه في هذا العلم، ونجد من أهمّ تلامذته الإمام السهيلي (ت581هـ) الذي كان أحرصهم على الدرس وغيره كثيرون ممّن عاصروا ابن الطراوة وتلقوا عنه النحو أمثال أبي عبد الله محمد بن عبيد الله الخشني المالقي (ت576هـ)، أبي محمد القاسم بن دحمان المالقي (ت575هـ)، أبي العباس أحمد بن حسن بن سيد الجراوي المالقي (ت560هـ) وغيرهم، إلاّ أنّ السهيلي كان أنبههم فهما وحفظا إذ يعد «أصغر هؤلاء التلاميذ، وأيسرهم ذكرا وأكثرهم فائدة في التعريف بشيخه فقد توفي ابن

1- محمد إبراهيم البنا، **ابن الطراوة وأثره في النحو**، ص26.

2- محمد حسين آل ياسين، **الدراسات اللغوية عند العرب إلى نهاية القرن الثالث**، ط1. بيروت: 1980، منشورات دار مكتبة الحياة، ص392.

الطراوة، وهو في السبعين من عمره أو لعلّه قد جاوزها بقليل، وقد قدّر لأصغر هؤلاء التلاميذ أن يكون أحفظهم لآراء شيخه، بما خلفه من مصنّفات سجّل فيها مجالسه معه وكأنّه كان يتأسّى في ذلك بصنيع سيبويه مع الخليل»[1] وهذا أقلّ ما يفعله تلميذ لأستاذه بعد فيض العلم الذي تلقّاه عنه على الرغم من مخالفته لبعض آرائه «وقف السهيلي من أستاذه موقفا وسطا، فإذا كان قد تأثّر ببعض أصوله وآرائه، فقد خالفه في كثير منها»[2]، فقد أصبح لمعظم نحويي المغرب والأندلس آراء خاصّة بهم، يخالفون فيها من سبقهم، ويعقّبون على بعضها ويرفضون أخرى لكن هذا لا يعني تنكّرهم لجهود الأوّلين، وإنّما يحاولون الاجتهاد، والإتيان بالجديد الذي لم يعهد لمن قبلهم التحدث فيه.

مؤلفاته: كان لابن الطراوة من المؤلّفات: «المقدمات إلى علم الكتاب وشرح المشكلات على توالي الأبواب، ترشيح المقتدى، مقالة في الاسم والمسمى»[3]، والأثر الوحيد الباقي من مؤلفات ابن الطراوة كتاب "الإفصاح" كما ذكر ذلك الدكتور محمد إبراهيم البنا حيث قال: «وهو الأثر الباقي من مؤلفات الأستاذ أبي الحسين، وقد اعتمدنا عليه اعتمادا أوّليا في بيان آرائه والتعريف باتجاهه»[4] وليس هذا الكتاب الوحيد الذي يحتوي على آرائه، فقد تعرّض لها الكثير من النحاة، سواء كان ذلك بالنقد أو المناصرة «فإنّ آراءه الواردة على لسان خصومه الذين جدّوا في نقضها تنبئ بما لهذا العالم المتمكّن من أصالة في التفكير وجرأة في الحكم»[5]، إذ نجد آراءه متناثرة في كتبهم لشدّة حملهم عليه، بسبب نقده الشديد لأبي علي الفارسي، وابن جني.

1- محمد إبراهيم البنا، **أبو الحسين ابن الطراوة وأثره في النحو**، ص30-31.

2- المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

3- السيوطي، **بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة**، ص203.

4- محمد إبراهيم البنا، **أبو الحسين ابن الطراوة وأثره في النحو**، ص51.

5- محمد المختار ولد أباه، **تاريخ النحو العربي في المشرق والمغرب**، ص239.

منهجه: درس ابن الطراوة على يد أكبر علماء ونحاة المغـرب والأنـدلس الذين تأثّروا بآراء مختلف المدارس ومناهجها، فقد كان الأعلم الشـنتمري ممّـن يخالطون جميع النحاة السابقين، من مختلف المدارس النحويـة، وينتقـون بعـدها الآراء التي يرون أنّها تناسب أفكارهم وتوجّهاتهم، ثمّ يضيفون هم إليها اختياراتهم.

وعندما ألّف ابن الطراوة كتابه "المقدمات على كتاب سيبويه" انتقـد بعـض آرائه، فقد كان تأثّره بآراء الكوفيين والبغداديين أكبر«ويبدو أنّه كان يقابله كثيـرا على كتب الكوفيين والبغداديين منحازا إليهما أو بعبارة أدق متوسعا في الاختيـار من آرائهما»[1] فقد كان يختار آراء نحاة الكوفة وبغداد ويفضلها على آراء سيبويه والمدرسة الكوفية في أحيان كثيرة «وممّا اختاره من مذهب الكوفيين أنّ المعرفـة أصل والنكرة فرع، وكان سيبويه والجمهور يذهبون إلى العكس»[2] إلاّ أنّه مع هذا لم يتنكّر لسيبويه وآرائه، وإنّما كان يحثّ على الأخذ بكتابه ودراسته، لأنّـه مـن الكتب الأصول التي يجب الاهتمام بها، ودراستها بدلا مـن الكتـب المختصـرة كإيضاح الفارسي وما كان على شاكلته.

كان ابن الطراوة ينتقي هو الآخر من آراء مختلف المدارس، كما فعل أستاذه الأعلم، كما كانت له آراءه التي تميّزه عن غيره، إلاّ أنّه لم يهتم باستخراج واستنباط العلل التي كان الأعلم مولعا بها والتي كان يعتبرها كمالا في الصنعة وبصرا بها، وسار السهيلي أيضا في طريقه وغيرهما كثير ممّن عني بالعلل.

أمّا ما ميّز ابن الطراوة عن كثير من نحاة المشرق ونحـاة عصـره مـن المغاربة والأندلسيين فهو استشهاده بالحديث «ولمّا كان ابن الطراوة ممّن يستشـهد بالحديث، ويرّد به على سيبويه... فقد أراد ابن الضائع أن يوهّن أدلّتـه»[3] بـأنّ

1- شوقي ضيف، **المدارس النحوية**، ص296.

2- المرجع نفسه، الصفحة نفسها، ع/ السيوطى، **همع الهوامع في شرح جمع الجوامع**، مج1 ص55.

3- محمد إبراهيم البنا، **أبو الحسين ابن الطراوة وأثره في النحو**، ص99.

يضعّف آراءه وحججه لاستشهاده بالحديث الشريف، الذي امتنع نحاة كثيرون عن الاستشهاد به بحجة أنّه مروي بالمعنى، وقد سبق إلى هذا الامتناع نحاة المشرق الذين نشأ النحو على أيديهم، فما كان على ابن الطراوة أن يستشهد به، وما كان عليه أن يرد على آراء سيبويه أيضا.

كان ابن الطراوة إمام عصره في اللّغة والنحو، ينتهي الطلبة إليه، لسماعه والأخذ عنه، فقد كان له مفهوم للنحو خاص به إذ يقول: «النحو تسديد الذهن للتمييز بين الاستقامة في الكلام والإحالة»(1) تمكّن من علوم العربية ونبغ فيها حتّى أصبح بشهادة الكثيرين نحويا مبرزّا وشاعرا أديبا.

2-3- ابن الباذش: (ت 528هـ) كان ذا معرفة واسعة بعلم العربية، عالم جليل ونحوي مبرز.

مؤلفاته: صنّف ابن الباذش شروحا على «كتب مختلفة للبصريين والبغداديين، مثل كتاب سيبويه وكتاب المقتضب للمبرد، والأصول لابن السراج والجمل للزجاجي، والإيضاح للفارسي»(2) ومن خلال الشروح المختلفة التي صنّفها وهي من خيرة الكتب المؤلفة في النحو العربي، يمكن القول إنّه كان إماما في علم النحو. حاول من خلال ما ألّفه تبسيط المسائل للدارسين، وحملهم على الاهتمام أكثر بهذا العلم الذي يعتبر حافظا للغة العربية من الضياع، وللقرآن الكريم من اللّحن الذي بدأ يفشو خاصّة في المجتمعين المغربي والأندلسي، حيث لم تكن العربية لغتهما ولا القرآن الكريم دينا لهما.

منهجه: كان ابن الباذش في منهجه النحوي، يذهب في أحيان كثيرة مذهب سيبويه، وأحيانا أخرى يذهب مذهب أبي علي الفارسي وابن جني، وممّا خالف فيه الجمهور ذهابه إلى أنّ «لام المستغاث لأجله في مثل: يا لزيد لعمرو، متعلّقة باسم محذوف تقديره مدعوّا لعمرو، وكان ابن جني يذهب إلى أنّها متعلقة مع مجرورها

1- محمد إبراهيم البنا، **أبو الحسين ابن الطراوة وأثره في النحو**، ص99.

2- القفطي، **إنباه الرواة على أنباه النحاة**، مج2، ص227.

بيا»[1] وكان يذهب إلى أنّ «المضارع في مثل: الهندان هما تفعلان، يجوز فيه التذكير والتأنيث، أو بعبارة أخرى أن يبدأ بالتاء أو الياء، حملا على اللفظ أو المعنى»[2] وبهذا يكون لابن الباذش آراء خاصّة به، خالف فيها النحويين قبله وسار على نهج نحاة المغرب والأندلس في انتقائه من آراء المذاهب جميعا.

2-4- ابن طاهر: (ت 580هـ) قال ابن الأثير: هو «نحويّ مشهور، حافظ بارع اشتهر بتدريس الكتاب فما دونه وله على الكتاب طُرر مدوّنة مشهورة اعتمدها تلميذه ابن خروف في شرحه، وله تعليق على الإيضاح وغير ذلك»[3] كان ابن طاهر نحويا جليلا، وشيخا من شيوخ العربية درس ودرّس، وتخرّج عليه علماء ونحاة أفذاذ أمثال ابن خروف وغيره «كان يرحل إليه في العربية موصوفا فيها بالحذق والنّبل، صاحب اختيارات وآراء أخذ الكتاب عن ابن الرمّاك... وكان من حذّاق النحويين، وأئمة المتأخّرين، أجلّ من أخذ عنه ابن خروف ومصعب الخشني، وعبد الحقّ خليل السّكوني وأطنبوا في الثناء عليه، مات في عشر الثمانين وخمسمائة»[4] انتفع منه عدد غير قليل من الطلبة والدارسين الذين واظبوا على حلقاته خاصة في تدريس "الكتاب" لسيبويه، فقد اشتهر به وبمختلف الكتب الأصول التي تميّزت في ذلك العصر بكثرة الطلب عليها وعلى فهمها.

منهجه: كان ابن طاهر يتوسّع في الاختيار من المذاهب المختلفة «وله اختيارات من مذاهب النحاة السابقين، من ذلك اختياره رأي سيبويه وابن الباذش

1- شوقي ضيف، **المدارس النحوية**، ص296، ع/ الأنصاري، **مغني اللبيب عن كتب الأعاريب** ص242.

2- المرجع نفسه، الصفحة نفسها، ع/ السيوطي، **همع الهوامع في شرح جمع الجوامع**، مج2 ص171.

3- السيوطي، **بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة**، مج2، ص28.

4- المرجع نفسه، مج2، ص22.

في أنّه لا يجوز حذف أحد مفاعيل أعلم بدون دليل»[1] واختـــار رأي «الســـيرافي والأعلم في أنّ "ممّا" قد تأتي مرادفة "لربّما"»[2] إضافة إلـــى اختيـــاره مـــن آراء البصريين والكوفيين، وحتّى البغداديين، فقد كانت له آراء تفرّد بها كغيره من النحاة «وممّا انفرد به أنّ الشر في مثل: "إيّاك والشر" منصوب بفعل محـــذوف تقـــديره: احذر الشر»[3] إلى غير ذلك من الآراء التي كانت له فيها نظرة خاصّة به تميّـــزه عن آراء غيره، فلم يكن منتصرا لمذهب أو لمدرسة معيّنة، وإنّما جعل الاختيـــار والانتقاء من آرائهم جميعا مذهبه.

2-5 السهيلي: (ت 581هـ)

مؤلفاته: له من التآليف كتاب «الروض الأنف في شرح سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم وله كتاب التعريف والإعلام فيما أُبهم في القرآن من الأسماء والأعلام، وله كتاب نتائج الفكر ومسألة رؤية الله تعالى في المنام، ومسألة السرّ في عور الرجال، ومسائل كثيرة مفيدة[4]» يبدو من خلال مؤلفاته أنّه لم يكن مهتما بالنحو فقط، وإنّما اهتم بالفقه أيضا، فقد كان عارفا بعلم الكلام والأصول متمكّنا منهما، لقّب بالإمام لغزارة علمه وتفقّهه في الدين.

جاء في وفيات الأعيان أنّ «أشعاره كثيرة، وتصانيفه ممتعة وكـــان ببلـــده يتسوّغ بالعفاف ويتبلّغ بالكفاف، حتّى نمّي خبره إلى صاحب مراكش فطلبه إليهـــا

1- شوقي ضيف، **المدارس النحوية**، ص298، ع/ السيوطي، **همع عن الهوامع في شرح جمع الجوامع**، مج1، ص158.

2- المرجع نفسه، الصفحة نفسها، ع/ ابن هشام الأنصاري، **مغني اللبيب عن كتب الأعاريب** ص357.

3- نفسه، ص299، ع/ السيوطي، **همع الهوامع في شرح جمع الجوامع**، مج1، ص169.

4- ابن خلكان، **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان**، مج3، ابن خلكان، **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان**، مج3، ص134.

وأحسن إليه وأقبل بوجه الإقبال عليه»[1] لم يقتصر علمه على النحو والفقه فقط وإنّما شمل الأدب أيضا، فقد كان أديبا وشاعرا مجيدا، تميّز بأخلاق رفيعة وراقية.

كان الملوك والأمراء في عصره يُكرّمون العلماء ويدعونهم للعيش بقربهم يحيطونهم بكل الرعاية والاهتمام، نظرا لمعرفتهم بأنّ العلماء يساهمون بشكل كبير في تطوّر البلاد وازدهارها، فقد كانت بلاطات الخلافة المرابطية ثمّ الموحدية تعجّ بالعلماء، من مختلف مناطق المغرب والأندلس.

كان الإمام السهيلي ينتقي من آراء المدرسة الكوفية والبصرية والبغدادية أيضا، كغيره من نحاة المغرب والأندلس خلال القرنين السادس والسابع الهجريين خاصّة، لأنّ معظمهم كانوا قد برعوا في هذه الفترة، إضافة إلى آرائه التي تميّز بها، ممّا يدل على أنّه كان نحويا بارعا ولغويّا نابغا، شملت هذه الآراء خاصّة مواضيع السّماع والقياس ونظرية العامل. إضافة إلى تأثّره بآراء شيخه ابن الطراوة، إلاّ أنّه مع ذلك كان مجتهدا في مذهبه «ينظر في المسائل النحوية نظرة المفكّر المبدع وهذا ما جعله يتّخذ لنفسه منهجا مستقلا في القياس النحوي واللغوي»[2] تتلمذ على يد ابن الطراوة لذلك كان تأثّره بمنهج شيخه واضحا في بعض المسائل النحوية، إلاّ أنّ ذلك لم يمنعه من التأثّر بآراء المدارس الأخرى المختلفة، ولم يمنعه أيضا من أن تكون له آراء متفردة تميّز بها، ممّا يدل على براعته وسعة علمه، في النحو وعلم الكلام وحتى التفسير.

منهجه:

أ-السّماع:

أ-1- احتجاجه بالشعر وكلام العرب: أجمع اللغويون والنحاة على أنّ عصر الاحتجاج بكلام العرب ينتهي بنهاية القرن الرابع الهجري في البادية، أمّا بالنسبة إلى الحضر الذين خالطوا العجم وغيرهم من غير العرب فالاحتجاج

1- ابن خلكان، **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان**، مج3، ص134.

2- محمد المختار ولد أباه، **تاريخ النحو العربي في المشرق والمغرب**، ص250.

بكلامهم ينتهي بنهاية القرن الثاني الهجري واستبعدوا كلام المولّدين والمحدثين في اللّغة العربية، وكان السهيلي من الذين يرفضون الاحتجاج بكلامهم، فقد استشهد بالشعر الجاهلي عموما، إلاّ أنّه «أبدى نوعا من التحفّظ على الاستدلال بما يسمى بالمولدين»[1] هؤلاء الذين رفضهم اللغويون والنحاة نتيجة تقديسهم للقدامى، تميّز أغلبهم بلغة فصيحة وسليمة، إلاّ أنّ ذلك لم يشفع لهم، لرغبة النحاة الشديدة في الحفاظ على صفاء اللّغة العربية.

أ-2-احتجاجه بالقرآن الكريم: كان السهيلي كغيره من النحاة يعتبر القرآن الكريم مصدرا مهمّا للاحتجاج، فهو يأتي في المرتبة الثانية بعد كلام العرب، فقد كان الحجة البالغة في الاستشهاد به وبمختلف قراءاته بمتواتره وشاذه «كان بالطبع النص القرآني المثل الأعلى في براعة النظم والسهيلي بوصفه قارئا كان يعتمده أصلا أساسيا في القياس، ولم يساير بعض النحاة في اعتراضاتهم على القرّاء فاستشهد بالقراءات الثابتة سواء أكانت من المتواتر، أو من الشاذ»[2] اعتبر القرآن الكريم كلام الله المنزّه عن الأخطاء، مقرّا بالأثر العظيم في علوم اللّغة العربية، إذ اعتمده اللغويون والنحاة أساسا مهمّا للوصول إلى القاعدة النحوية، رغم اختلاف قراءاته وذلك يعود إلى اختلاف رواته، واختلاف القبائل العربية التي يتكلم كل منها لهجة معينة، تتميّز عن لهجة قبيلة أخرى.

أ-3- احتجاجه بالحديث النبوي الشريف: أما بالنسبة لكلام المصطفى صلى الله عليه وسلم فقد أدرجه السهيلي في منهجه اللغوي «وقام بتوجيهات دقيقة في استعمالاته النحوية، ممّا أفاد جمال الدين بن مالك في كتابه شواهد التوضيح والتصحيح لمشكلات الجامع الصحيح»[3] يعدّ الحديث الشريف كلام أفصح العرب صلى الله عليه وسلم، إلاّ أنّ الاحتجاج به كان مرفوضا إلاّ من القلة القليلة من

---

1 - محمد المختار ولد أباه، **تاريخ النحو العربي في المشرق والمغرب**، ص247.

2 - المرجع نفسه، ص244.

3 - نفسه، ص246.

النحاة الذين خالفوا منهج القدامى، واحتجّوا به على الرغم من أنّه مروي بالمعنى في أغلبه، ولم يكن الإمام السهيلي أوّل من احتجّ به، إذ سبقه إلى ذلك من العلماء «الجوهري، ابن سيده وابن فارس، وابن جني، وابن بري، ومن بعدهم من أصحاب المعجمات وكتب النحو، كلّهم احتج بالحديث»[1] فالاحتجاج بالحديث إذن لم يكن نزعة مغربية أو أندلسية، فقد سبقهم إلى ذلك علماء من المشرق فالسهيلي ومن بعده ابن خروف ثمّ ابن مالك ساروا على نهج النحويين المشارقة في استشهادهم بالحديث النبوي الشريف.

ب- العامل: فيما يخص نظرية العامل فقد «تقيّد السهيلي بفكرتين، كلتاهما ذات أهمية كبيرة أوّلهما: تصريحه بأنّ العامل لا يتعدى كونه لاستجابة المتكلم، وليس علّة مؤثّرة في نفسه وهذا ممّا يساير فكر ابن مضاء، والفكرة الثانية: اعتباره أنّ العامل نتيجة لغوية لتأثير المعاني المقصودة في نسق الكلام»[2] نادى السهيلي بحذف نظرية العامل، والاستغناء عنها، وهو بذلك يؤيّد فكرة ابن مضاء في رفضه للعوامل التي أسّس عليها النحاة أصول النحو وسننه فقد دعا إلى إلغائها، إلاّ أنّه من جهة أخرى يرى أنّه لا يمكن الاستغناء عنها لأنّها نتيجة لغوية محتومة.

ج- القياس: كان السهيلي «من معتمدي التوسع في قياس التمثيل واعتبار كل ما سمع عن العرب أصلا للقياس، ممّا جعله في هذا المجال قريبا من مذهب الكوفيين، ولعلّه قد جاوزهم في بعض الآراء التي انفرد بها»[3] إلاّ أنّ ميله في هذا الجانب إلى مذهب الكوفيين لا يعني أبدا انتصاره لهم في جميع الآراء، وإنّما كان ميله أكبر إلى مذهب البصريين، وبعض الآراء البغدادية، إضافة إلى الآراء التي تفرّد بها كغيره من نحاة المغرب والأندلس.

1- سعيد الأفغاني، **من تاريخ النحو**، دط. لبنان: دس، دار الفكر، ص102.

2- محمد المختار ولد أباه، **تاريخ النحو في المشرق والمغرب**، ص249-250.

3- المرجع نفسه، ص250.

د– العلل: أولى السهيلي قضية العلل اهتماما كبيرا «ولم يقتصر على العلل الثواني والثوالث فقط بل واصل تساؤلاته التعليلية إلى أن وصلت إلـــى الســـوادس وفي جهده الفكري لابتكار علل لهذه التساؤلات، قام بتوسيع مسالك العلة حتى بلغ بها إلى تسعة»[1] وقد كانت منه هذه المبالغة مع أنّ الكثير من النحـــويين كـــانوا يرون أنّه لا فائدة منها غير كثرة التأويل باستثناء العلل الأولى التي يعترفون بهـــا أمّا ما عدا ذلك فهو تعقيد لمسائل النحو وقواعده.

يقول ابن مضاء في "الرد على النحاة": «وكذلك كان صاحبنا الفقيـــه أبـــو القاسم السهيلي على شاكلته يعني الأعلم رحمه الله يولع بها ويخترعها، ويعتقد ذلك كمالا في الصنعة وبصرا بها»[2] فقد كان الأعلم الشنتمري يهتم كثيرا بالبحث فـــي التعليل والاستنباط وكان السهيلي مثله مولعا بالعلل الثواني والثوالـــث، وغيرهـــا ويعتبر اختراعها من سمات النحوي المتميّز المتمكن من علم النحو خاصة، وعلوم اللّغة عامة.

2–6– ابن مضاء: من بين العلماء الذين تميّزوا في المغـــرب والأنـــدلس خلال القرنين السادس والسابع الهجريين، ابن مضاء الذي أحدث ضـــجّة كبيـــرة بخروجه عن العرف النحوي بتأليفه لكتابه "الرد على النحاة"، الذي هاجم فيه النحو جملة والنحاة عامة، وحاول إلغاء بعض النظريات النحوية التي رأى أنّهـــا غيـــر مفيدة، فدعا إلى القول بظاهر النصوص متأثّرا في ذلك بمذهب الظاهرية في الفقه هذا المذهب الذي نشأ في المشرق العربي «على يد أبي سليمان داوود بن علـــي الأصبهاني (ت 270هـ) [*] بعد أن أخذت صناعة القياس تبسط سلطانها ويشـــتدّ

1- محمد المختار ولد أباه، **تاريخ النحو في المشرق والمغرب**، ص251،ع/ إبراهيـــم البنا **السهيلي ومذهبه النحوي**، ص290–296.

2- الأصبهاني هو أبو سليمان داوود بن علي بن خلف الأصبهاني الإمام المشهور المعروف بالظاهري، كان زاهدا متقللا كثير الورع.

3- ابن مضاء القرطبي، **الرد على النحاة**، تح: شوقي ضيف، ط2. القاهرة: 1982، دار المعارف، ص160.

إغراؤها للفقهاء، فيذهبون بها المذاهب المختلفة في التشريع والإفتاء»[1] إذ أصبح التوسّع في القياس سمة الفقهاء والنحويين أيضا في ذلك العصر، فجاء داوود بـن علي الأصبهاني ليحاول إلغاء هذه الظاهرة، ليعوّضها بالمذهب الظـاهري، الـذي امتدّ صداه إلى المغرب والأندلس فيما بعد عن طريق ابن حزم (ت 456هـ) الذي أخذ يدعو إليه ويقوي دعائمه ويوطّد أركانه، وقد أهّلته لذلك سعة اطّلاعه وإتقانـه لعلوم كثيرة، حتى صار باعث هذا المذهب، الذي امتدّ أثره حتـى شـمل الحيـاة السياسية في المغرب والأندلس.

منهج ابن حزم النحوي في المذهب الظاهري: يقول ألبير حبيـب مطلـق: «لعلّ أجرأ الآراء التي جاء بها ابن حزم إبطاله العلل النحوية، فقد قال في كتـاب "التقريب": وأمّا علم النحو فإلى مقدمات محفوظة عن العرب الذين تريـد معرفـة تفهمهم للمعاني بلغتهم، وأمّا العلل فيه ففاسدة جدا»[2] فقوله بفساد العلل لم يقل بها غيره، إذ كان وحيد عصره، مع أن الكثير من النحاة قبله ندّدوا بصـعوبة النحـو وتعقيده، وطالبوا بتيسيره وتسهيله، خاصّـة علـى الطلبـة المبتـدئين، الـذين لا يستطيعون فهم النحو كما جاء في الكتب الأصول كالكتاب لسيبويه مثلا، إذ يجـب إلغاء بعض النظريات التي ساهمت في نفور الدارسين منه.

فرفض ابن حزم للعلل ليس فيه رجوع، ولا نظر وإنّما هو «رفض مطلق من غير استثناء للعلل الأول أو الثواني أو الثوالث لأنّ العلة قد تستخدم للشيء وضدّه، والعلة قد تطّرد في مجال فتكون القناعة وقد يعوزها ذلك الاطّراد فيكون الشذوذ»[3]. لم يميّز ابن حزم بين العلل التي يمكن الاستغناء عنها والتي لا يمكن

1- طه الحاجري، **ابن حزم صورة أندلسية**، دط، دار الفكر العربي، ص120.

2- ألبير حبيب مطلق، **الحركة اللغوية في الأندلس**، ص275، ع/ ابن حزم، **التقريب لحد المنطق**.

3- مصطفى عليان، "**ابن حزم والنحو الظاهري**"، مجلة الفيصل. السعودية: 1986، ع110 ص52.

فيها ذلك، مع أنّ معظم النحاة يعترفون بها، ويعملون بها خاصة العلل الأولى، فلم يقل أحد برفضها غيره، أمّا العلل الثواني والثوالث فقد رفضها نحاة كثيرون، إذ نجد الخليل ابن أحمد الفراهيدي (ت 175هـ) مثلا قبل ابن حزم بثلاثة قرون يقول: «إنّك لا تصل إلى ما تحتاج إليه من النحو، حتى تتعلم ما لا تحتاج إليه فاستضعاف العلل النحوية قال به كثيرون قبل ابن حزم، فليس فيه سابق وإنّما بالغ ابن حزم حين جعلها فاسدة جدا فعمم واشتطّ»[1] إذ إنّك حين تتعلم النحو، لا يمكن أن تتعلم فقط ما يفيدك في حياتك ودراستك، وإنّما تتعلم أمورا كثيرة، ربما لن تكون بحاجتها منها خاصة العلل الثواني والثوالث، فهي غير مفيدة، ولكن لا يمكن طرحها جانبا دون التعرض إليها فرفض العلل قال به نحاة كثيرون إلاّ أنّهم لم يجعلوها فاسدة جدا كما فعل ابن حزم، فقد تمادى كثيرا في رفضه لها لأنّه يدرك تماما أنّ النحو درجات، فالمتعلم أو الطالب لا يجب أن يبدأ مباشرة ب "الكتاب" لسيبويه فهو «يأخذ بمبدأ التدرّج في التعلّم، وهو مبدأ تربوي سليم يدل على عمق الإدراك وسعة التصور، فالواضح للزبيدي، والموجز لابن السراج وما أشبه ذلك من الكتب هي "أقل ما يجزئ" لمرحلة قوامة اللّسان»[2] فالدارس في مراحله الأولى يجب أن يأخذ بهذه الكتب لتقويم لسانه وتحسين لغته، ثمّ يأتي بعد ذلك إلى كتاب سيبويه، إذا أراد أن يتخصص في علم النحو«أمّا المراحل المتقدمة المتخصصة فلا بأس لمن وجد في نفسه الرغبة، وفي عقله الكفاية، أن يزيد إلى ذلك كتاب سيبويه لأنّه ضرورة تقضي بها طبيعة الحفاظ على اللّغة وفهم أسرار كتاب الله، وسنة رسوله»[3] إلاّ أنّ ذلك لا يكون قبل التمكن من دراسة وفهم كتب "الواضح" و"الموجز" وغير ذلك من الكتب التي جاءت على هذا المنوال، لأنّها وضعت أساسا للمراحل الأولى من تعلم النحو. ثمّ يأتي بعد ذلك لمن أراد التخصص في علم النحو

1- سعيد الأفغاني، **من تاريخ النحو**، ص105.

2- مصطفى عليان، "**ابن حزم والنحو الظاهري**"، مجلة الفيصل، ص52

3- المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

"الكتاب" لسيبويه الذي يعد من أهم المصادر التي يمكن للمتخصص الاعتماد عليها من أجل الحفاظ على اللّغة العربية وفهم غريبها، ومن أجل فهم آي القرآن الكريم والحديث الشريف.

يقول سعيد الأفغاني: «فإذا كانت العلل فاسدة، فسد القياس حتما إذ عليها بني وقولة ابن حزم هذه تشريع لنحو جديد لو وجد له منظمون ومع أنّي لا أعقل أبـــدا نحوا لا قياس فيه وددت لو تظافر بعد ابن حزم نحاة حاولوا أن يتركوا لنا مخطّطا كاملا لنحو ظاهري لا قياس فيه ولا تعليل»[1] نلاحظ من خلال قول سعيد الأفغاني هذا أنّه تمنى حقا، لو وجد نحو دون قياس ولا علل، لا يعرف كيف يكـــون هـــذا النحو، المهم أنّه يخلو ممّا يعقّده، ويزيد في صعوبته ويحفّز الطلبة علـــى دراســـته والاهتمام به، لأنّ كثرة التعليل والتأويل تخرج النحو عن طريق الصواب، وعـــن الهدف الأساسي الذي وضع من أجله، وهو الحفاظ على اللّغة العربيـــة وصـــيانة القرآن الكريم من اللّحن، ومن ألسنة الأعاجم الذين بدأوا في خلـــط المصـــطلحات بعضها ببعض.

كما تمنّى لو أنّه تضافرت جهود النحاة لتطوير فكرة ابن حزم الأندلسي في تيسير وتسهيل النحو، إلاّ أنّ ذلك لم يحدث، ولم يعن أحد بما جاء به ابن حزم، إلاّ عند ظهور ابن مضاء القرطبي، الذي أعاد القول بظاهر النصوص، وحاول تطبيق آراء ابن حزم في إلغاء العلل، لكنّه لم يكتف بذلك بل أضاف إلغاء بعض النظريات التي لم يتحدث عنها أحد قبله.

التعريف بابن مضاء القرطبي: (ت592هـ) ذكر الحجازي «أنّ بيت بنـــي مضاء بقرطبة متوارث الحسب، وأنّ أبا علي لشـــعره ديباجـــة عراقيـــة، ورقّـــة حجازية، وكان مختصّا بعبد الملك بن أبي الوليد بن جهور وله فيه أمداح، وأنشد له قوله:

1- سعيد الأفغاني، **من تاريخ النحو**، ص104.

قَصُرَ اليَومُ فَحُثَّ الشِّ رْبُ بالكَأْسِ الكَبِيرِ
فَإِذَا مَــا طَالَ فَاشْرَبْ فِيه بالكَأْسِ الصَّغِيرِ

وقوله:

بِشُرْبِ الكَبِيرِ، وعِشْقِ الصَّغيرِ أديــــنُ، ومَنْ لاَم لا يُقْبَلُ»[1].

كان ابن مضاء على عادة أهل عصره، ملمّا بمختلف العلوم «عارفا بالطب والحساب والهندسة... شاعرا، بارعا، كاتبا»[2] اجتمعت هذه الأوصاف كلّها فـــي هذا العالم النّحوي الفقيه الذي اختاره خليفة الموحدين يعقوب المنصـــور لمنصـــب قاضي الجماعة، وبحكم منصبه هذا وتعصّب يعقوب المنصور للظاهر من الكتاب والسنة، استطاع أن يقلب الموازين، ويحشد مساندة مولاه في ثورته علـــى النحـــو المشرقي «إنّ من يرجع إلى نصوص كتاب "الرد على النحاة "يلاحــظ ملاحظـــة واضحة أنّ صاحبه ثائر على المشرق، وهي ثورة تعتبر امتــدادا لثـــورة أميـــره عليه»[3] يبدو أنّ الحياة العلمية والفكرية في المغرب والأندلس كانت ثائرة علـــى نظيرتها في المشرق فكما دعا خلفاؤها إلى ردّ فقه المشرق على المشرق، دعا ابن مضاء إلى ردّ نحو المشرق على المشرق أيضا، إذ عاب عليهم غلوّهم في التعليل والتأويل، حتّى جعلوا من النحو علما معقّدا ينفر منه الدارسون.

يعترف ابن مضاء للنحويين قبله أنّهم «قد وضعوا صناعة النحو لحفظ كلام العرب من اللّحن، وصيانته عن التغيير فبلغوا من ذلك إلى الغاية التي أمّــوا وانتهوا إلى المطلوب الذي ابتغوا»[4] لأنّه بفضل النحو صين القرآن الكريم من

1- ابن سعيد، **المغرب في حلى المغرب**، تح: شوقي ضيف، ط2. القاهرة: 1964، دار المعارف، ج1، ص96.

2- السيوطي، **بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة**، مج1، ص323.

3- ابن مضاء القرطبي، **الرد على النحاة**، ص19

4- المرجع نفسه، ص72.

اللّحن وكلام العرب من ألسنة الأعاجم ووصلت إلينا هذه المدوّنة الضخمة من أشعار العرب ونثرهم.

إلاّ أنّه يعيب عليهم فيما بعد غلوهم في تعقيد القواعد، وكثرة التأويل والتقدير، والحذف والإضمار وافتراض العلل والأقيسة «إلاّ أنّهم التزموا مالا يلزمهم، وتجاوزوا فيها القدر الكافي فيما أرادوه منها، فتوعّرت مسالكها، ووهنت مبانيها وانحطت عن رتبة الإقناع حججها»[1] فصعب ما كان سهلا وازدادت مشقة الطالب في فهم النحو وتعسّر عليه، حتى أصبح علما غامضا، يحفظ أحيانا دون أن يفهم مع أنّه لو جرد من كل تلك الزيادات والشوائب، لأصبح من اليسير جدّا فهمه والتعامل معه كعلم يحمي اللّغة العربية، والقرآن الكريم من كل تهديد يمكن أن يؤثر فيهما «على أنّها إذا أخذت المأخذ المبرأ من الفضول المجرد عن المحاكاة والتخييل، كانت من أوضح العلوم برهانا، وأرجح المعارف عند الامتحان ميزانا ولم تشتمل إلاّ على يقين أو ما قاربه من الظنون»[2] إلاّ أنّ علماء النحو سواء كانوا مشارقة أو مغاربة أو أندلسيين لم يكتفوا بدراسته كما هو، ومحاولة تيسيره وتسهيله وإنّما ذهبوا به مذهبا آخر في محاولة لاستنباط علل أخرى، غير التي يعرفونها.

ألّف ابن مضاء كتابه "الرد على النحاة" في فترة ثورة على فقه المشرق وفروعه، لأنّ عصر الموحدين الذي عاش فيه، والذي كان قاضيا للجـــماعة فيه تميّز بانقلاب واسع على أصحاب المذاهب الأربعة (المذهب الحنفي الشافعي الحنبلي والمالكي) إذ أمر يعقوب المنصور بحرق كتب المذاهب وحمل الناس على الظاهر من القرآن والسنة «فأحرق كتب المذاهب وعوّضها بالصّحاح العشرة والمنتخب الذي اختاره منها»[3] وبهذا القرار الذي اتّخذه المنصور، يكون قد ضيّق

1- ابن مضا القرطبي، **الرد على النحاة**، ص72.

2- المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

3- عبد الله كنون، **النبوغ المغربي في الأدب العربي**، ج1، ص128

الخناق على حرية الفكر وجعل البحث العلمي، وخاصة الجانب الديني منه يخضع لمقاييس، يعاقب كل من خرج عنها، إلاّ أنّ الجانب الإيجابي في هذا التقييد، هو جعل الناس يهتمون أكثر بدراسة الأصول (الكتاب الكريم والسنة النبوية) بدلا من علم الفروع، فهما المصدران الوحيدان اللّذان لا يصحّ التشريع بغيرهما، كان الفقهاء في عهد المرابطين قد توسعت مهامهم وأصبحوا يتدخلون في شؤون الدولة خاصة في عهد "علي بن يوسف"، الذي أصبح لا يتصرّف دون مشورة منهم، ولا يأخذ إلاّ بنصيحتهم، وقد نشط في عصره الاشتغال بعلم الحديث والرواية وعلم الكلام والقراءات، ومن ثمّ طغت الفروع على الأصول، وكثر التعليل والتأويل، ممّا غاض الموحدين في ما بعد، ودعوا إلى الثورة على علم الفروع، والعودة إلى الأصول والأخذ بظاهر القول.

ومن ثورة الموحدين هذه استمدّ ابن مضاء ثورته على النحو المشرقي وربما يكون من وراء هذه الثورة، لأنّه من خلال تصفح كتابه "الرد على النحاة" نلاحظ نزعة ظاهرية في ثناياه «ممّا يؤكد صلة صاحبه بثورة الموحدين على كتب المذهب، ومن يعرف؟ ربما كان ابن مضاء أحد المؤلّبين على هذه الثورة إن لم يكن المؤلِّب الأوّل كما يقضي بذلك منصبه»[1] لأنّ المنصب الذي اعتلاه من أهمّ المناصب في الدولة، إذ يعد قاضي الجماعة الساعد الأيمن لحاكم الدولة، يأخذ برأيه، ويشركه في أمور الرعية، وقد ساعد هذا المنصب ابن مضاء في الدعوة إلى مذهبه الجديد، بالقول بظاهر النصوص ونقلها من الفقه إلى النحو، وهي نزعة تجديدية، أراد ابن مضاء من خلالها أن يهدم مذهب سيبويه في النحو، والإتيان بمذهب جديد، يحمل نحوا جديدا، مبنيا على هدم نظرية العامل.

إلاّ أنّ محاولته هذه لم تكلّل بالنجاح في عصره، والعصور القليلة التي تلته مع أنّه أحدث ضجة كبيرة لخروجه عن العرف النحوي «ولكن يكفيه فخرا أنّه هدم

1- أحمد أمين، **ظهر الإسلام**، ط4. القاهرة: 1966، مكتبة النهضة المصرية، ج3، ص96.

وإن لم يبن. فكان النحو محتاجا إلى يد جديدة تبني بناء جديدا بعد هدم القـــديم»[1] إذ دعا ابن مضاء إلى نظرية جديدة يرفض فيها العلل وغير ذلك مـــن الظـــواهر النحوية، إلاّ أنّ ابن حزم قد سبقه عندما قال بفساد العلل، وإن لم يأخذ أحد بها في عهد ابن حزم، بخلاف ابن مضاء الذي تأثر به علماء العصر الحديث، خاصّة بعد تحقيق كتابه "الرد على النحاة"، وإن لم يُعن أحد به في عصره، فقد كان ابن مضاء في منصب قاضي الجماعة معظّما من قبل العامة والخاصّة أمّا اتجاهاته في النحو فلم يتأثر بها أحد، ولم يأخذ بها أحد أيضا وقد اتّخذ هو طريق الثورة على النحـــو الذي كان في رأيه معقدا، كثير العلل والتأويل، هذه الظواهر التي تعيـــق الطالـــب على فهمه، وتنفّره من تعلمه، فارتأى حذف كل ما لا يفيد، ويمكن الاستغناء عنـــه دون أن يحدث خللا، فتمكن من إحداث ثورة كبيرة في هذا العلم، الذي لم يســـتطع أحد المساس به منذ عهد سيبويه، أمّا الكتاب فلم يجرؤ أحد على القول بتأليف كتاب مثله، فقد كان يعد قرآن النحو، الذي لا يمكن لأيّ كان أن يمس كلمة منه، ولا أن يقول بغير ما قال به سيبويه، حتى قال المازني «من أراد أن يؤلف كتابا في النحو بعد سيبويه فليستح»[2] وكان «أبو العباس المبرد إذا أراد مريد أن يقرأ عليه كتاب سيبويه يقول له: ركبت البحر؟ تعظيما لكتاب سيبويه واستصعابا لما فيه»[3] ليأتي ابن مضاء فيما بعد ويؤلف كتابا يرد فيه على نحو سيبويه وأنصاره وينتقد ما جاء فيه «كانت غاية ابن مضاء أن يحذف من النحو ما يستغني النحوي عنه، وأن ينبّه على ما أجمعوا على الخطأ فيه وتتحقق هذه الغاية في رأيه بإلغاء نظرية العامـــل وإلغاء العلل الثواني والثوالث، وإبطال القياس وترك المسائل النظرية وإسقاط كـــل

1- ابن مضاء القرطبي، **الرد على النحاة**، ص19.

2- ابن الأنباري، **نزهة الألباء في طبقات الأدباء**، تح: إبراهيم السامرائي، ط3. الأردن: 1985، مكتبة المنار، ص56.

3- المرجع نفسه، ص55.

ما لا يفيد في النطق»[1] كلّ هذا يعدّ عند ابن مضاء مجرّد حشو لا فائـدة ترجـى منه، وإنّما يمثّل عائقا أمام الدارسين، وبما أنّه غير مفيد فإذن يمكن الاستغناء عنه ووضعه جانبا، كي لا يشكّل حاجزا أمام طلبة هذا العلم.

عندما بدأ ابن مضاء دراسة النحو، هاله ما وصل إليه من تعقيدات، ومسائل شائكة، لا يستطيع فهمها إلاّ المتخصّص المتمكّن من هذا العلم «إذ وجـد مـادة العربية تتضخّم بتقديرات وتأويلات وتعليلات وأقيسة وشـعب وفـروع وآراء لا حصر لها، ولا غناء حقيقي في تتبعها أو على الأقل في تتبّع الكثير منها، فمضـى يهاجمها في ثلاثة كتب هي: المشرق في النحو- تنزيه القرآن عما لا يليق بالبيـان وكتاب الرد على النحاة وهو وحده الذي بقي من آثاره»[2] وهذا الكتـاب الوحيـد الذي بقي جمع فيه مختلف الآراء التي رأى أنّها الأصلح للنحو، بعدما تعّقد وأصبح من الصعب الغوص فيه دون التعرض للعديد من المسائل التي لا يمكن فهمهـا إلاّ بشقّ الأنفس.

أراد ابن مضاء من خلال محاربته لهذه المسائل، أن يجعل من النحو علمـا ميسّرا سهلا يمكن فهمه دون اللجوء إلى الكتب الميسّرة أو المختصرة، وقد ركّـز كثيرا على نظرية العامل التي لا فائدة منها ولا جدوى من التطرق إليها «وقد سدّد ابن مضاء سهام دعوته، أو قل سهام ثورته إلى نظرية العامل، التي أحالت كثيـرا من جوانب النحو العربي إلى عقد صعبة الحل، عسيرة الفهم»[3].

وجاء في كتاب لمحمد سليمان ياقوت: «أمّا ابن مضاء فقـد هـاجم العامـل النحوي، لأنّ له هدفا أساسيا، وهو هدم النحو المشرقي»[4] نظرية العامل التي جعلت

1- أحمد مختار عمر، **البحث اللغوي عند العرب**، ط4. الكويت: 1982، عالم الكتب، ص148 ع/ مازن المبارك **النحو العربي**، ص153.

2- شوقي ضيف، **المدارس النحوية**، ص305.

3 - ابن مضاء القرطبي، **الرد على النحاة**، ص7.

4- محمد سليمان ياقوت، **النحو العربي، تاريخه، أعلامه، نصوصه، مصادره**، دط. دبلد: 1994 دار المعرفة الجامعية، ص244.

من النحو العربي علما معقّدا، جاء ابن مضاء ليدعو إلى الاستغناء عنها ويقول بعـــدم صلاحيتها على الرغم من أنّ النحو في المشرق بني عليها، وعلى غيرها من المسائل الصّعبة الأخرى، إذ كان هدفه كما جاء على لسان محمد سليمان ياقوت، وغيره مـــن المؤلفين هو هدم النحو المشرقي الذي انتقل إلى المغرب والأندلس كما هو، بل اجتهد معظم النحويين في هذين القطرين، بالبحث في التعليل والاستنباط، وبدلا من تســـهيله وتيسيره تعقّد أكثر فأكثر، وأصبح من الصّعب درسه وفهمه وذلك لمغالاة علمائه فيـــه «ولابدّ أن يكون ابن مضاء قد ضاق ذرعا بما وقف عليه من تمحّل النحاة، وابتعادهم عن القصد، وكان له من الجرأة أن يقف في وجه هذا التيار الذي لا يعرف حدّا يقــف عنده، وأن يتصدّى لهؤلاء الدارسين السادرين، فيدلّهم على النهج السّوي الذي انتهجه الدرس النحوي قبل أن ينحرف عنه، وينبّههم إلى المنطلق الذي انطلق منه أوّل مـــرّة ويرسم لهم طريق العودة إلى الصواب»[1] هذا الطريق الذي ما كان يجب الخروج عنه ولا الخوض في أمور تجعل من النحو علما ينفر منه الدارسون، لابتعاد علمائه عـــن الهدف الحقيقي من دراسته، الذي كان دائما من أسمى الأهداف العلمية، وهو الحفـــاظ على اللّغة العربية، وحماية القرآن الكريم من اللّحن الذي بدأ ينتشر بسبب دخول غير العرب في الإسلام.

منهجه: يعدّ كتاب "الردّ على النحاة" «طُرفة نفيسة مـــن طـــرف التفكيـــر الأندلسي»[2] إذ حاول ابن مضاء من خلاله أن يردّ على نحو المشـــرق برفضـــه للكثير من المسائل التي رأى بأنّه لا فائدة من الغوص فيها، وإنّمـــا يجـــب الأخـــذ بظاهر القول للتّمكن من درس النحو، وفهمه فهما صحيحا. ولكن هناك من يقـــول إنّ ابن مضاء لم يكن ظاهريا، وإنّما كان مالكيا، أي على مذهب الإمام مالـــك، إذ يقول عبد الكريم بكري «ومن أدلّتنا على أنّ ابن مضاء لم يكن ظاهريا، ولم يخرج عن المذهب المالكي الذي كان سائدا في المغرب والأندلس أنّ ابن فرحون ترجم له

1- مهدي المخزومي، **الدرس النحوي في بغداد**، ص179.

2- ابن مضاء، **الرد على النحاة**، ص7.

في "الديباج المذهّب في معرفة أعيان علماء المذهب" وعدّه في طبقـات العلمـاء المالكيين، إذ يريد لعلماء المذهب: المذهب المالكي، فقد كان ابن فرحون مالكيا»[1]

ويضيف أيضا: «ونحن عندما نقرأ كتاب الرد على النحاة قراءة فاحـصة نجد أنّ ابن مضاء لم يكن مخلصا الإخلاص كلّه للمذهب الظاهري، ذلك فإنّه وإن ثار على بعض أصول النحو العربي كما ثار الظاهريون على أصول الفقه، لم يدع إلى إلغاء القياس والعلل مثلا»[2] عاش ابن مضاء في عصر الموحدين الذي كان من أزهى العصور في تاريخ المغرب والأندلس، هذا العصر الذي عرف تطورا وازدهارا كبيرين في مختلف الميادين خاصة العلمية والمعرفية منها، وكان لهذا التطور تأثير واضح على الحياة العقلية، إذ أصبح العلماء يتطلعون إلى تجديد المعارف، ويحاولون الوصول إلى كل ما هو جديد، بعيدا عن كتب الشروح والتعليقات على مؤلفات القرون التي سبقت، والتي انتشرت بشكل كبير كشرح "الكتاب" لسيبويه والتعليق عليه، وكتاب "الجمل" للزجاجي، و"الواضح" للزبيدي وغيرها من الكتب التي بالغ علماء المغرب والأندلس في الاهتمام بها.

وفي حين اهتمّ العلماء بهذا النوع من المؤلفات، سلك ابن مضاء طريقا آخر، خرج فيه عما هو مألوف، إلاّ أنّ هناك من يرى أنّه قد تأثر بآراء المدرسة الكوفية، وإن هو لم يعلن ذلك صراحة «لأنّ الأساس الذي بنى عليه دعوته إلى إلغاء العلل والتأويلات هو الأساس اللغوي الذي بنى الكوفيون مذهبهم عليه»[3]

ويقول المؤلف نفسه: «إنّ ابن مضاء نحوي على مذهب الكوفيين، وإذا لم يعلن عن انتسابه إليهم فأقواله والأمثلة التي عرضها تنمّ على ارتباطه بالكوفيين ومذهبهم»[4] لأنّ مدرسة الكوفة تعتمد السماع في استخراجها للأحكام النحوية

1- عبد الكريم بكري، **أصول النحو العربي في ضوء مذهب ابن مضاء القرطبي**، ط1. الجزائر: 1999، دار الكتاب الحديث، ص38.

2- المرجع نفسه، ص39.

3- مهدي المخزومي، **الدرس النحوي في بغداد**، ص180.

4- المرجع نفسه، ص180.

وتنفر من القياس، وهذا ما أراده ابن مضاء من خلال ثورته على النحو والنحاة «وقد التقت رغبته في تطبيق المذهب الظاهري في الدرس النحوي بما ذهبت إليه مدرسة الكوفة في النحو»[1] فالمذهب الظاهري الذي جاء به ابن حزم، ثم تأثر به ابن مضاء كان يقوم على الأصول ونبذ الفروع، فهو لا يعترف بغير الكتاب والسنة، فهما المصدران الوحيدان اللّذان لا يصح الأخذ بغيرهما، وعُومل النحو معاملة الفقه عند الظاهريين، فهم لا يعترفون بالقياس والعلل التي بالغ البصريون في الاهتمام بها. أمّا نحو المدرسة الكوفية فقد عرف في المغرب والأندلس قبل نحو المدرسة البصرية «فإذا كان ابن مضاء قد سلك هذا المسلك، فإنّما سلكه لأنّ النحو الكوفي قد عرف في بيئات الدرس الأندلسية قبل أن يعرف الدرس البصري فيها، وإذا دعا ابن مضاء إلى إبطال القياس وإلغاء العلل الثواني والثوالث، وإلغاء التقديرات، فذلك أنّ النهج الكوفي الذي عرفه قد لقي قبولا عنده وصادف هوى في نفسه، واتفاقا مع مذهب الظاهريين الذي كان ابن مضاء يمثله أتمّ تمثيل»[2] يرى مهدي المخزومي أن ابن مضاء في دعوته هذه على مذهب الكوفيين لأنّ ما دعا إليه في كتابه "الرد على النحاة" لم يخرج عن إطار النهج الكوفي من تيسير لقواعد النحو، ونبذ للتعقيد والمغالاة في الصناعة النحوية «فثورة الموحدين على الفقه نشأ عنها ثورة القاضي ابن مضاء على النحو العربي وطريقته هي طريقة الفقهاء في الثورة على المذاهب، لا قياس ولا تأويل ولا رأي»[3] إذ نجد أنّ ابن مضاء في ثورته على النحو المشرقي حاول تطبيق طريقة الفقهاء في ثورتهم على الفقه المشرقي أيضا، فكلاهما كان ثورة على تلك البلاد، بما فيها من علوم دينية ولغوية «أراد ابن مضاء الاعتماد في النحو على السماع لا أكثر ولا أقل»[4] فبما أنّه قد

1- مهدي المخزومي، **الدرس النحوي في بغداد**، ص181.

2- رضا عبد الجليل الطيار، **الدراسات اللغوية في الأندلس**، ص 22

3- طه حسين، **المجموعة الكاملة**، ط1. بيروت: 1981، دار الكتاب اللبناني، مج 16، ص40.

4- المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

تأثر بمذهب الكوفيين، فلا ضير من اعتماده على السماع الذي هو عمدة النحو عند المدرسة الكوفية.

ناهض ابن مضاء آراء من سبقه من النحاة، إذ كان هو ثمرة لثورة الموحدين على المذاهب الأربعة التي وصلت إلى المغرب والأندلس عن طريق الرحلة فقد «كانت ثورة الموحدين ضد العلوم المعتمدة على التأويل، فاتخذت طابع الحرية في الخروج على الفروض، واتخذت من جهة أخرى طابع الثورة على الشرق، ومحاولة إثبات شخصية غربية تقاوم شخصية الشرق في السياسة والعلم والفلسفة»[1] وكانت هذه الشخصية قد تمثلت في ابن مضاء الذي حارب نحو المشرق وحاول أن يأتي بنحو جديد اعتمد فيه على إلغاء وإبطال بعض الظواهر النحوية التي رأى أنّه لا جدوى من دراستها لأنّها مجرد تأويل وتعليل يعقد النحو ولا ييسره، ومن أهمّ ما ميّز منهجه في النحو ما يلي:

أ- العلل الأولى: حاول ابن مضاء الخروج عن بعض القواعد التي جاء بها القدامى في النحو العربي إذ نادى بإلغاء بعض النظريات التي بني عليها النحو منذ عهد سيبويه، وإلى غاية عصرنا الحاضر إلاّ أنّه أبقى على بعضها، والتي رأى بأنّه لا يمكن الاستغناء عنها مثل العلل الأولى التي «تجعلنا نعرف أنّ كل فاعل مرفوع»[2] فهذه العلل مثلا لا يمكن إنكارها لأنّه بفضلها نستطيع إدراك الكثير من الأمور «فالعلل الأولى المقبولة عنده هي التي بمعرفتها تحصل المعرفة بالنطق بكلام العرب المدرك بالنظر، فهي لخدمة النص اللغوي لمعرفة صحة نظمه وطريقة نطقه، فنطق العرب واستقراء كلامهم هما أساس العلل النحوية المقبولة كما أن النصوص الدينية أساس الأحكام الفقهية التي لا تحتاج استنباط شيء

1- طه حسين، **المجموعة الكاملة**، ص40.

2- ابن مضاء القرطبي، **الرد على النحاة**، ص36.

وراءها»[1] هذه العلل مقبولة عند ابن مضاء، أمّا ما عداها فيمكن الاستغناء عنهـا لأنّها لا يمكن أن توفر لطالب النحو غير التعقيد، الذي يجعله ينفر من دراسته.

ب- العلل الثواني والثوالث: أكّد ابن مضاء على ضرورة إلغاء العلل الثواني والثوالث، لأنّه لا فائدة علمية ترجى منها، فدعا إلى تحطيمها من أجل التّخفيف على النحويين من كثرة ما في النحو من علل مصطنعة، والتي اجتهد بعض النحـاة في استنباطها، إلاّ أنّه لم يطالب بإلغائها جملة، وإنّما ترك العلل الأولى، لأنّـه لا يمكـن الاستغناء عنها فيقول: «وممّا يجب أن يسقط من النحو العلل الثواني والثوالث، وذلك مثل سؤال السائل عن (زيد) من قولنا: قام (زيد)، لِمَ رُفع؟ فيقال: لأنّه فاعـل، وكـل فاعل مرفوع، فيقول: ولِمَ رُفع الفاعل؟ فالصواب أن يقال له: كذا نطقت بـه العـرب ثبت ذلك بالاستقراء من الكلام المتواتر، ولا فرق بين ذلك وبين من عرف أنّ شيئا ما حرام بالنص ولا يحتاج فيه إلى استنباط علة، لينقل حكمه إلى غيره، فسأل لم حُـرّم؟ فإن الجواب على ذلك غير واجب على الفقيه»[2] فرفض العلل لم يكن رأي ابن مضاء وحده، وإنّما سبقه إليه الفقهاء في رفضهم التعليل في الأحكام الفقهيـة، واستضـعاف العلل النحوية قال به كثيرون قبل ابن مضاء «فالشّك في العلل النحوية إذا ليس مـن صادرات الأندلس، بل تعاوره في أسلوب علمي جهابذة مشارقة، منذ عهد الخليل فليس فيه ما يسمى مذهبا أندلسيا لا من قريب ولا من بعيد»[3] إذ هناك من يرى أنّ القـول بفساد العلل الثواني والثوالث إنّما هو قول ابن حزم ثمّ ابن مضاء من بعده، فهو مـن الآراء التي تميّز بها الأندلسيون عن المشارقة، إلاّ أنّ ذلك غير صحيح، كما جاء على لسان سعيد الأفغاني فنجد أنّ وجوب الاستغناء عن العلل الثواني والثوالث قـال بهـا العلماء منذ عهد الخليل.

1- محمد عيد، **أصول النحو العربي في نظر النحاة ورأي ابن مضاء وضوء علم اللّغة الحديث**، ط4. القاهرة: 1979، عالم الكتب، ص135.

2- المرجع نفسه، ص135.

3- سعيد الأفغاني، **من تاريخ النحو**، ص106.

ج- نظرية العامل: جاء ابن مضاء ليدعو إلى إلغاء نظرية العامل التي جعلها بعض النحاة أساس النحو العربي وعليها يقوم، وقد استهلّ فصل إلغاء نظرية العامل بقوله: «قصدي من هذا الكتاب أن أحذف من النحو ما يستغني النحوي عنه، وأنبه على ما أجمعوا على الخطأ فيه»[1] فهو يرى أن العامل النحوي يمكن رفضه والاستغناء عنه، لأنّه من الخطأ الاستمرار في اعتباره نظرية ذات أهمية كبيرة لا يمكن دراسة النحو دونها، يقول: «فمن ذلك ادعاؤهم أنّ النصب والخفض والجزم لا يكون إلاّ بعامل لفظي، وأنّ الرفع منهما يكون بعامل لفظي وبعامل معنوي وعبّروا عن ذلك بعبارات توهم في قولنا (ضرب زيد عمرا) أنّ الرفع الذي في زيد والنصب الذي في عمر إنّما أحدثه ضرب... وذلك بيّن الفساد»[2] وقد صرّح بخلاف ذلك أبو الفتح بن جني (ت392هـ) وغيره «وأمّا الحقيقة ومحصول الحديث، فالعمل من الرفع والنصب والجر والجزم، إنّما هو للمتكلم نفسه لا لشيء غيره»[3] إذن ففكرة إلغاء العامل التي قال بها ابن مضاء جاء بها ابن جني قبله ونادى بأنّ الذي يصنع الظواهر النحوية في آخر الكلمات من رفع ونصب وجر إنّما هو المتكلم نفسه، لا ما يزعمه بعض النحاة من الأفعال وغيرها، إلاّ أنّ ابن مضاء أوضح هذه النظرية ووسّعها على نحو أكثر ممّا جاء به ابن جني.

تميّز ابن مضاء عن غيره من النحويين في رفضه للعديد من المسائل النحوية، فإضافة إلى قوله بإلغاء نظرية العامل، وإلغاء العلل الثواني والثوالث نادى أيضا إلى إلغاء القياس والتمارين غير العملية، كما نادى إلى إلغاء التقديرات ويختم كتابه بالدعوة إلى إلغاء كل ما لا يفيد في النطق، إذ يقول: «وممّا يجب أن يسقط من النحو الاختلاف فيما لا يفيد نطقا، كاختلافهم في علة رفع الفاعل ونصب المفعول، وسائر ما اختلفوا فيه من العلل الثواني وغيرها ممّا لا يفيد

1- ابن مضاء القرطبي، **الرد على النحاة**، ص76.

2- المرجع نفسه، ص76-77.

3- نفسه، ص77.

نطقا، كاختلافهم في رافع المبتدأ وناصب المفعول، فنصبه بعضهم بالفعل، وبعضهم بالفاعل وبعضهم بالفعل والفاعل معا وعلى الجملة كل اختلاف فيما لا يفيد نطقا»[1] إذ يجب أن يحذف من النحو كل الشوائب التي تعيق على فهمه وكل ما لا فائدة منه، حتى تستقيم مسائله وحتى نستطيع فهمه وتدبّره، دون مشقة وجهد كبيرين. فالاعتماد على النص كما هو دون تأويله وتعليله هو الهدف الذي يسعى ابن مضاء إلى تحقيقه من خلال تأليفه لكتاب "الرد على النحاة" «وأهمية هذا التأليف تأتي من موضوعه أعني محاولة إصلاح النحو، وإن كان المؤلف لم يفكّر في إصلاح النحو، بقدر ما فكّر في هدم النحو القديم»[2] لأنّه في نظره نحو معقد مبني على كثرة التعليل والتأويل، لذلك فكّر بحذف ما يمكن حذفه، دون أن يؤثّر في القواعد الأساسية التي بُني عليها، إلاّ أنّه لو عمل النحويون بالنظريات التي اقترحها ابن مضاء، لكان من السهل تناول علم النحو، لأنّ الطريق التي اتّخذها أو سلكها تساعد في تيسيره تيسيرا منطقيا، يمكن من خلاله فهم هذا العلم الذي لطالما اشتكى الدارسون من توعّر مسالكه، وتعقّد مسائله. ونبيّن من خلال الجدول التالي النظريات والقواعد التي دعا ابن مضاء إلى إلغائها، والتي أبقى عليها:

جدول رقم (03): النظريات والقواعد التي دعا ابن مضاء إلى إلغائها والنظريات التي دعا إلى إبقائها.

القواعد والنظريات النحوية التي دعا إلى الإبقاء عليها.	**القواعد والنظريات النحوية التي دعا إلى حذفها.**
– العلل الأولى.	– العلل الثواني. – العلل الثوالث. – نظرية العامل. – القياس.

1- ابن مضاء القرطبي، **الرد على النحاة**، ص141.

2- طه حسين، **المجموعة الكاملة**، ص39.

	– التمارين غير العملية. – التقديرات. – كل ما لا يفيد في النطق.

نلاحظ من خلال هذا الجدول أن النظريات التي دعا ابن مضاء إلى إلغائها أكثر من التي دعا إلى الإبقاء عليها، هذه القواعد التي بُني عليها النحو العربي منذ عهد سيبويه، واستمر النحاة في اتخاذها أساسا لهذا العلـم إلـى غايـة عصـرنا الحاضر، جاء هذا النحوي الأندلسي ليحاول تغيير أو هدم ما لم يتمكن أحد علـى القول بإلغائه أو استبداله بقواعد أخرى.

نستخلص من خلال آراء ابن مضاء في النحو، وقبله ابن حزم الذي كانت له بعض التدخّلات في هذا العلم مايلي:

– أنّ العلل النحوية التي وضعها النحاة فاسدة، لأنّها من وضعهم وليست من أصل اللّغة خاصّة العلل الثواني والثوالث، التي اجتهد الكثير في استنباطها، خاصّة الأعلم الشنتمري والإمام السهيلي اللذين قال ابن مضاء فيهما: «وكان الأعلم–رحمه الله– على بصره بالنحو مولعا بهذه العلل الثواني ويرى أنّه إذا استنبط منها شـيئا فقد ظفر بطائل، وكذلك كان صاحبنا الفقيه أبو القاسم السهيلي على شاكلته يولع بها ويخترعها، ويعتقد ذلك كمالا في الصنعة وبصرا بها»[1] فقد اجتهدا في استنباطها واستخراجها، إذ لم يكتفيا بما هو موجود وإنّما اخترعا ما ليس موجودا.

– ضرورة الاعتماد على السماع، لأنّ الأصل في الاستعمال هو ما سُـمع من كلام العرب وهما في هذا ينتصران لآراء المدرسة الكوفية.

– محاولة تيسير النحو، فابن حزم يؤكد ضرورة الاكتفاء بالقليـل المـفيد وعدم الإيغال في طلب جميع أبواب النحو منذ بداية الدراسة، بل يجب أن يكتفـي الدارس بالكتب المختصرات مثل كتاب "الجمل" للزجاجي، "الواضح" للزبيـدي، أو

1- ابن مضاء القرطبي، **الرد على النحاة**، ص137.

"الموجز" لابن السراج وغيرها من الكتب أوّلا، ثمّ يأتي بعد ذلك إلى المؤلفات القديمة المطولة " كالكتاب " لسيبويه لمن أراد الإيغال والتخصص في هذا العلم.

ونبين من خلال الجدول التالي أهم أوجه التشابه والخلاف بين آراء نحاة المغرب والأندلس خلال القرن السادس الهجري مع آراء النحاة المشارقة:

جدول رقم (04): أوجه التشابه والخلاف بين آراء نحاة المغرب والأندلس خلال القرن السادس مع نظرائهم في المشرق العربي.

أهم نحاة القرن السادس الهجري.	منهجه.	أوجه التشابه مع المشارقة.	أوجه الخلاف مع المشارقة
ابن السيد البطليوسي	الانتقاء من آراء مختلف المدارس (البصرة– الكوفة – بغداد)	– تابع سيبويه في أن ما إذا اتصلت بقلّ كفتها عن العمل ولا تدخل حينئذ إلا على جملة فعلية، أما ظهور الفاعل بعدها في بعض الأشعار فضرورة. – تابع الكوفيين في مثل كأن لا تفيد التشبيه إلا إذا كان خبرها جامدا مثل "كأن محمدا أسد".	– خالف المشارقة في مثل: "حتى" لا تعطف المفردات فقط بل تعطف أيضا الجمل مثل: سرت حتى تكل المطايا. برفع تَكِلُّ.
ابن الطراوة	الانتقاء من آراء مختلف المدارس إضافة إلى بعض الآراء التي تفرد بها.	– تابع الكوفيين في أن المعرفة أصل والنكرة فرع. – تابع البصريين في أنه: إذا تصدرت في الجملة ظنّ وأخواتها لا يجوز	– خالف المشارقة في أن: ضمير الشأن في مثل: "قل هو الله أحد" حرف وليس اسم.

		إلغاء عملها بدون موجب للإلغاء.	
ابن الباذش	الانتقاء من آراء مختلف المدارس إضافة إلى بعض الآراء التي تفرد بها.	- تابع سيبويه في أنّه: لا يجوز حذف المفاعيل الثلاثة في باب أعلم لغير دليل. - تابع ابن جني في أنّ: إذا في مثل: فبينما العسر إذا دارت مياسير ظرف عامله الفعل التالي له وعامل بينما محذوف يفسره الفعل المذكور.	- خالف المشارقة في أن: لا المستغاث لأجله في مثل: يا لزيد لعمرو متعلقة باسم محذوف تقديره مدعوّا لعمرو.
ابن طاهر	الانتقاء من آراء مختلف المدارس، إضافة إلى بعض الآراء التي تفرد بها.	- تابع سيبويه في أنه: لا يجوز حذف أحد مفاعيل أعلم بدون دليل. - تابع أبا علي الفارسي في أن: نون المثنى وجمع المذكر السالم عوض عن التنوين والحركة في المفرد.	- خالف المشارقة في: أن الشر في مثل "إياك والشر" منصوب بفعل محذوف تقديره احذر الشر.
السهيلي	الانتقاء من آراء مختلف المدارس إضافة إلى بعض الآراء التي تفرد بها.	- تابع الكسائي في أن: فاعل الفعل الأول في مثل "ضربني وضربت زيدا" محذوف. - تابع ابن درستويه البصري في أن: نائب	خالف المشارقة في إنكار مفعولي ظن وأخواتها أصلهما مبتدأ وخبر.

		الفاعل في مثل "مرّ بزيد" ليس الجار والمجرور وإنما هو ضمير مستتر عائد على المصدر المفهوم من الفعل والتقدير "مرّ هو" أي المرور.	
ابن مضاء	- الأخذ بظاهر القول للتمكّن من درس النحو وفهمه فهما صحيحا.	- الإبقاء على العلل الأولى.	- إلغاء العلل الثواني والثوالث. - إلغاء نظرية العامل. - إلغاء التمارين غير العملية. - إلغاء القياس. - إلغاء التقديرات - إلغاء كل ما لا يفيد في النطق.

نلاحظ من خلال الجدول أن علماء المغرب والأندلس كانت لهم آراء مختلفة في النحو، أيّدوا في بعضها نحاة من المدرسة الكوفية، وبعضها من المدرسة البصرية والبغدادية، وآراء أخرى خالفوا فيها جميع النحاة ممّن سبقهم وعاصرهم إلاّ أنّنا نجد ابن مضاء، الذي حاول هدم كل ما جاء به المشارقة وذلك بإلغاء معظم النظريات النحوية المعقدة، والإبقاء على ما هو سهل وميسّر، يمكن لطالب النحو أن يدرسه دون اللجوء إلى مصادر أخرى تساعده على الفهم، ودون أن يشتكي من توعّر مسالكه وغموض قواعده.

استمرت حركة التّأليف مزدهرة خلال القرن السابع الهجري، وكان النحـــاة ينشطون بشكل كبير نظرا لتوفر الظروف الملائمة التي ساعدتهم على الاســـتقرار والبحث ومحاولة الوصول إلى قواعد يخالفون بها نحاة المشرق، فكان لهم ذلك من خلال مختلف الآراء التي جاءوا بها، والمؤلفات العديدة التي ميّزت الكثيـــر مـــنهم خاصة وأنّ التأليف في المشرق العربي قد بدأ يضعف بسبب اهتمام العلماء هنـــاك بتأليف الكتب الضخمة والموسوعات، والتي يجمع مؤلفوها ما جاء به القدامى فـــي كتبهم، فيغيّرون في اسم الكتاب أو في بعض عناصره، ليؤلفوا بذلك مصنفات لـــم يأتوا فيها بالجديد، وإنّما تكرار ما قيل من قبل بشكل موسّع، وشرح أطول، وبذلك وجد نحاة المغرب والأندلس أنفسهم أمام حقل علمي كبير يستطيعون مـــن خلالـــه الإبداع والإتيان بالجديد الذي ابتعد المشارقة عنه، وعن كلّ ما يمكن أن يجعلهـــم يتصدّرون قائمة المؤلفين الذين أصبح لهم شأن فيما بعد فـــي الدراســـات اللغويـــة والنحوية.

3-أهم نحاة القرن السابع الهجري:

3-1- أبو موسى الجزولي: (ت607هـ)

مؤلفاته: ألف أبو موسى الجزولي مقدمة في النحو سماها "بالقانون" «فـــأتى فيها بالعجب العجاب وهي في غاية الإيجاز مع الاشتمال على شـــيء كثيـــر مـــن النحو»[1] إضافة إلى المقدمة، فقد ألّف الجزولي «مختصر الفسر لابن جنـــي فـــي شرح ديوان المتنبي، وشرح أصول ابن السراج وغير ذلك»[2] نرى مـــن خـــلال مؤلفاته أن الجزولي اهتم بشكل كبير بالنحو العربي، وبالمؤلفات المشـــرقية التـــي اهتم بشرحها.

منهجه: تميّزت مسيرة أبي موسى الجزولي بشهرة واسعة، وصل صداها إلى مختلف أنحاء البلاد، وبتأليفه لمقدمته والتفاف الدارسين حوله، يطلبون دروسه

1- ابن خلكان، **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان**، مج 3، ص488-490.

2- القفطي، **إنباه الرواة على أنباه النحاة**، مج 2، ص337.

ومعارفه زاد من شأنه ورفع مكانته بين العلماء. ومع أنّ مقدمته نالت شهرة واسعة، واهتمّ العلماء بشرحها، إلاّ أنّ المنهج الذي اتّبعه في تأليفها جعل الكثير من العلماء لا يفهمون ما جاء فيها، فلم يصلوا إلى المراد منها «ومع هذا كله فلا تفهم حقيقتها، وأكثر النحاة ممّن لم يكن أخذوها عن موفق يعترفون بقصور أفهامهم عن إدراك مراده منها، فإنّها كلها رموز وإشارات»[1] وهذا ما يقوله عنها ابن خلكان أيضا: «ولقد سمعت من بعض أئمة العربية المشار إليه في وقته: أنا ما أعرف هذه المقدمة وما يلزم من كوني ما أعرفها أنّي لا أعرف النحو»[2] لكلّ عمل من الأعمال سواء كان كتابا أو نظرية أو حتى مجرد رأي، نجد مؤيّدين له ومعارضين فمقدمة الجزولي كغيرها من المؤلفات النحوية، نالت شهرة واسعة من ناحية ومن ناحية أخرى برز من خالفها، واعتبرها مجرد رموز وإشارات غير مفهومة غير أنّه «ومن قبيل المبالغة القول بأنّ من أئمة النحاة من يعرف النحو ولا يعرفها، أو أنّها منطق وليست نحوا، أو أنّها ليست سوى حواش لجمل الزجاجي، أو تقييدات وإملاءات لابن برّي»[3] إذ يستحيل على عالم النحو أن يقول بعدم فهمه لهذه المقدمة، لأنّها لا تحمل غير قواعد نحوية مختصرة، هذا الأسلوب في الاختصار لم يبتكره أبو موسى الجزولي وإنّما جاء به علماء من المشرق قبله، إذ نجد مثلا كتاب "الجمل" للزجاجي، "الأصول" لابن السراج وغيره من الكتب التي حاول مؤلّفوها عرض القواعد النحوية بشكل مبسّط مختصر، يسهّل على الدارسين فهمه واستيعابه «ومن مظاهر الإبداع فيها ابتكار أسلوب الاختصار الفني وبالرغم ممّا يتعرّض له هذا الأسلوب من النقد، فقد يكون من قبيل المكابرة إنكار ما له من فضل في مساعدة الحفّاظ على الاستحضار، وفي دفع الباحثين إلى التطلع والشرح»[4] هذا

1- عبد الله كنون، **النبوغ المغربي في الأدب العربي**، ج1، ص161.

2- ابن خلكان، **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان**، مج3، ص489.

3- محمد المختار ولد أباه، **تاريخ النحو العربي في المشرق والمغرب**، ص266.

4- المرجع نفسه، ص270.

الأسلوب الفني المختصر الذي جاءت به المقدمة لم يسلم من نقد العديد من النحاة الذين أثروا التعليل في أساليبهم حتى أصبح دارس النحو لا يفهم المراد من القاعدة أو النظرية النحوية لكثرة حشوها بالتعاليل والاستنباطات غير المفيدة، لكن وبعد استحداث أسلوب الاختصار، أصبح من السّهل فهم القواعد وحفظها ومساعدة الباحثين سواء في شرح تلك المختصرات، أو في إبداع غيرها.

يقول محمد المختار ولد أباه: «والمقدمة من بديع المختصرات التي نشأت في هذا العصر وعرفت تطورا كبيرا فيما بعد، وإبداع الجزولي واضح في نظمه وشدّة اختصاره، وفي أسلوبه المشرب بالصّيغ المنطقية الدقيقة. فجاءت وكأنّها مذكرة الحافظ تسعف دارسها باستظهار القواعد الأساسية، في كلمات معدودات، في كل باب من أبوب النحو»[1] على عكس من انتقد المقدمة من النحاة، فهناك من يرى أنّها أروع ما ابتُكر في هذا العصر، نظرا لشدّة اختصارها، وجمال أسلوبها الذي يساعد على فهم الأمور بطريقة أوضح وأسهل، دون اللجوء إلى كثرة التعليل والاستنباط.

تأثّره بالنحو المشرقي: اهتم أبو موسى الجزولي بالنحو المشرقي كغيره من النحاة الذين ألّفوا في هذا الميدان، إذ كان يأخذ من آراء مختلف المدارس فكان يؤيّد أحيانا أقوال البصريين، ويؤيّد أحيانا أخرى أقوال الكوفيين والبغداديين، إذ لم تكن له مدرسة أو مذهب معيّن ينتمي إليه، وإنّما كان ينتقي من آراء مختلف المدارس ما يراه مناسبا ويتماشى مع آرائه، فمن بين الآراء التي كان ينتصر لها نجد اختياره رأي «ابن السراج البصري إلى أنّه لا يجوز تقدم المفعول به على الفاعل إذا حصل لبس مثل: كلّم موسى عيسى»[2] كما كان يذهب أيضا مع «أبي علي الفارسي إلى أنّ نون المثنى والجمع المذكر عوض عن الحركة والتنوين في

1- محمد المختار ولد أباه، **تاريخ النحو العربي في المشرق والمغرب**، ص266.

2- شوقي ضيف، **المدارس النحوية**، ص301، ع/ السيوطي، **همع الهوامع في شرح جمع لجوامع**، ج1، ص161.

المفرد»[1] إلى غير ذلك من الآراء التي أيّد فيها النحاة المشارقة سواء كان ذلك من نحاة البصرة أو الكوفة أو بغداد.

أثر أفكاره: حظيت المقدمة التي ألفها الجزولي باهتمام الكثير من العلماء من مختلف الأقطار فقد شرحها العديد من النحاة في المشرق والمغرب والأندلس، ونجد من بينهم: «الشلوبين (ت645هـ)، وأبا زكريا يحي بن معط بن عبد النور الزواوي صاحب الألفية (ت628هـ) أحمد بن الحسين الخباز الموصلي (ت637هـ)، وأبا العباس تاج الدين أحمد بن محمد الشريشي صاحب كتب الأسرار والعوارف (ت640هـ)، أبا عثمان سعد بن أحمد الجذامي (ت645هـ) كما شرحها ابن عصفور (ت 663هـ) شرحا أكمله تلميذه أبو عبد الله محمد بن علي الأنصاري المعروف بالشلوبين الصغير وابن الموفق (ت661هـ) وشرحها كذلك الأبذي الخشني أبو الحسن علي بن محمد (ت680هـ) شيخ الزبير، وجمال الدين بن مالك، وابن أم قاسم المرادي»[2]، ومن خلال هذا العرض لشُرّاح "المقدمة" نرى أنّها نالت من الشهرة ما يمكّنها من تبوّء مرتبة الصدارة إلى جانب المؤلفات النحوية المختصرة، والمتميّزة مثل: "الأصول" لابن السراج و"الجمل" للزجاجي و"الإيضاح" للفارسي... والتي ساعدت الدارسين وحتى الباحثين، فقد أفادوا واستفادوا، وبفضل ما جاء فيها من الاختصار تمكّنوا من فهم ما كان قد تعسّر عليهم فهمه من قبل. وقد قال فيه مؤلف كتاب "نشأة النحو وتاريخ أشهر النحاة": «صاحب المقدمة المشهورة في النحو، وقد كان بارعا في علم العربية مقدما محكما بفنونها الثلاثة: النحو واللّغة والأدب وكانت له دروس يحضرها فضلاء الطلبة ونبهاؤهم»[3] كان أبو موسى الجزولي كغيره من العلماء والنحويين

1- شوقي ضيف، **المدارس النحوية**، ص301، ع/ المرجع نفسه، ج1، ص48.

2- محمد المختار ولد أباه، **تاريخ النحو العربي في المشرق والمغرب**، ص267.

3- محمد الطنطاوي، **نشأة النحو وتاريخ أشهر النحاة**، ط5. مصر:1973، دار المعارف ص26.

الذين برزوا في القرنين السادس والسابع الهجريين، إذ تميز معظمهم بالتمكّن من علوم العربية، وأحيانا من علوم أخرى كالطّب والفلسفة والحساب وعلم الفلك... فضلا عن مداومتهم على حلقات التدريس والتي كان يحضرها المهتمون باللّغة وفنونها، وبالعلم ومختلف مجالاته. وإضافة إلى الآراء التي انتقاها من المدارس الأخرى، كانت له آراء تفرد بها فمثلا كان يرى «أنّه يجب أن يتحول المفعول الأوّل إلى نائب فاعل ولا تصح نيابة المفعول الثاني»[1] كما كان يرى «أنّه يصح حذف نون الوقاية في من وعن فيقال منى وعنى بالتخفيف»[2] تميّز الجزولي بالمقدمة التي ألّفها تميّزا كبيرا، كان لها تأثير واضح على النحاة الذين جاؤوا بعده خاصة من تلامذته النجباء كالشلوبين مثلا، والذين أخذوا في دراستها وشرحها فقد أبدع الجزولي بأسلوب الاختصار الذي جاء به في المقدمة، لذلك اهتم بها النحويون ذلك الاهتمام البالغ الذي أثروا بفضله المكتبة العربية من شروح لها، ومختصرات على شاكلتها.

3-2- ابن خروف: (ت 609هـ)

مؤلفاته: له من التصانيف «شرح كتاب سيبويه، شرح الجمل للزجاجي وكتاب في الفرائض»[3] قرأ النحو عن إمام نحوي جليل، فكان مثله ملمّا بجوانب هذا العلم «أقرأ النحو بعدّة بلاد وأقام بحلب مدة واختلّ في آخر عمره... له مناظرات مع السهيلي»[4] ظلّ يجوب مختلف البلاد العربية ويلقي الدروس على طلبتها، تمكّن من فرض نفسه، وعلمه ومختلف آرائه في النحو على طلبته، حتى أصبحوا يذكرونه في مختلف مؤلّفاتهم ويستشهدون بآرائه لكثرة علمه وسيلان نهره

1- شوقي ضيف، **المدارس النحوية**، ص301، ع/ السيوطي، **همع الهوامع في شرح جمع الجوامع**، مج1، ص162.

2- المرجع نفسه، الصفحة نفسها، ع/ المرجع نفسه، مج1، ص64.

3- السيوطي، **بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة**، مج2، ص203.

4- المرجع نفسه، ص203.

في علم النحو وعلوم اللّغة لكثرة ما اشتهر به من المؤلّفات النحوية، والآراء المتفردة.

جاء في البلغة: «أخذ كتاب سيبويه عن ابن ملكون وأبي بكر بن طاهر، له ردود في العربية على أبي زيد السهيلي وابن ملكون، وابن مضاء وعني بالرّد حتى على أبي المعالي الجويني* في تصانيفه وردّ الناس عليه لأنّه لم يصب شاكلة المراد»(1) يبدو من خلال كثرة ردوده على علماء ونحاة عصره، أنّه لم يكن ممّن يتقبّلون ما قيل، أو ما جاء به من سبقه أو عاصره بسهولة، فقد كان كثير الانتقاد لهم شديد الاعتزاز بنفسه وبآرائه، ولا يهمّه ما يقوله غيره، سواء أكان انتقادا أو ردّا على قول من أقواله «كان مقرئا مجودا حافظا للقراءات، نحويا ماهرا... مشهورا بالصّدق والعفاف يتكسّب من التجارة، فلم يكن يستقرّ في بلد واحد بل كان كثير التجوال بين رندة واشبيلية وسبتة، وفاس ومراكش. شرحه لكتاب سيبويه يسمى "تنقيح الألباب في شرح غوامض الكتاب"»(2) كان ابن خروف يميل أكثر إلى مذهب البصريين، إلاّ أنّه لم يهمل آراء الكوفيين والبغداديين، فقد كان يأخذ بها عندما يرجّح السماع في مسألة من المسائل النحوية أو يرى أنّ طريقة البصريين في تعليل ظاهرة ما لم تأت وفقا لما تبناه هو من آراء. فقد كانت له آراء خاصّة به انفرد بها كمن سبقوه من نحاة المغرب والأندلس.

منهجه: من أهمّ ما اشتهر به ابن خروف مناظراته مع السهيلي، الذي كان من أئمة النحاة أيضا، فقد كان إمام عصره في العربية، لغويا متمكّنا ونحويا متميّزا. كان موضع الخلاف بينه وبين السهيلي فيما يلي: «لقد ذكر بعض الكتاب

---

*- الجويني: عبد الملك بن عبد الله بن يوسف الجويني المتوفى سنة 478ه. فقيه أصولي، متكلم مفسر، أديب.

1- الفيروزأبادي، **البلغة في تاريخ أئمة اللّغة**، ص164-165.

2- خالد عبد الكريم جمعة، **شواهد الشعر في كتاب سيبويه**، دط. د بلد:1989، الدار الشرقية، ص67-68.

في عقد الكتاب له محجورين ذكورا وإناثا فاحتاج إلى تخصيص أنثى من بينهم فقال: إحدى المحجورين فمنع السهيلي هذا الاستعمال وأجازه ابن خروف.

رأى ابن خروف أنّ: "إحدى المحجورين" تعبير صحيح يعضده السماع والقياس، قال الله تعالى ﴿**قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لأُولاَهُمْ**﴾ [سورة الأعراف من الآية 38] فجمع بين تذكير وتأنيث في مضاف ومضاف إليه وهو بعضه وإحدى المحجورين أحرى لأنّ التأنيث في الآية غير حقيقي.

ردّ السهيلي بقوله: لا دليل في قوله سبحانه ﴿**قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لأُولاَهُمْ**﴾ لأنّه لم يجتمع في الآية مؤنث ومذكر، فغلب المذكر يعني أنّ آحاد الأمم مؤنثات من حيث أن الأمم جمع أمة، وليس في جمع أمة على أمم نقل مؤنث إلى مذكر، ولكن هذا هو باب جمع هذا المؤنث فإذا قلت: أخراهم فلم ينقل كما فعلته في "إحدى المحجورين" لأنّك في إحدى المحجورين نقلت مؤنثا إلى مذكر، وجعلت محجورة محجورا كأنّه شيء محجور»[1] إضافة إلى اختياراته الكثيرة، من آراء مختلف المدارس فقد كان يذهب مذهب سيبويه وأستاذه ابن طاهر وابن الباذش في أنّه «لا يجوز حذف أحد مفاعيل أعلم وأرى بدون دليل»[2] ومن اجتهاداته التي انفرد بها مثلا أنّه كان يرى أنّ «عامل الحال في الجملة الاسمية هو المبتدأ نحو "هو علي شاعرا"»[3] وأنّ «موضع ما خلا في مثل: قام القوم ما خلا محمد نصب على الاستثناء مثل غير»[4] ترك ابن خروف آثارا تشهد له بإمامته ونبوغه في النحو فقد كان إماما فاضلا في علوم العربية، ونحويا بارزا، إذ ورغم كثرة ناقديه

1- محمد المختار ولد أباه، **تاريخ النحو في المشرق والمغرب**، ص 253-256.

2- شوقي ضيف، **المدارس النحوية**، ص301، ع/السيوطي، **همع الهوامع في شرح جمع الجوامع**، مج1، ص158.

3- المرجع نفسه، الصفحة نفسها، ع/ السيوطي، المرجع نفسه، مج1، ص245.

4- نفسه، الصفحة نفسها، ع/ ابن هشام الأنصاري، **مغني اللبيب عن كتب الأعاريب**، ص142

وردودهم عليه، فإنّ ذلك لم يؤثّر على توجّهه وإنتاجه، فاستمرّ في التأكيد على آرائه، والردّ على من خالفوه، ومخالفة آراء بعض سابقيه ومعاصريه.

3-3- ابن معط: (ت 628هـ) نحوي مغربي، أخذ النحو ومختلف العلــوم اللغوية في بلاد المغرب، وغيرها «فقد رحل إلى بلاد مصر، فلقي المشايخ وباحث العلماء وناظرهم»(1) وكان قد نزل دمشق قبلها، وبعد مدّة آثر دخول مصر للقــاء علمائها والأخذ عنهم وإفادتهم أيضا في بعض المسائل والقضايا اللغوية والنحوية.

مؤلفاته: لابن معط تآليف جليلة تشهد على تمكّنه من علم النحو الذي أبدع فيه أيّما إبداع منها «العقود القوانين في النحو حواش على أصول ابن السراج شــرح الجمل في النحو شرح أبيات سيبويه نظما ديوان خطب قصيدة في القراءات السبع ونظمان في العروض، وله أيضا صحاح الجوهري الذي شرع في نظمه، فمات قبل إكماله»(2) درّس بالجامع العتيق فكان أستاذا نابغة، ومدرّسا فاضلا، وشاعرا مجيــدا، فقد درس القراءات والحديث واللّغة لكنّه اشتهر في النحو أكثر.

من أهّم ما ألّف ابن معط ألفيته التي أبدع في نظمها، والتي كانت مصدر إلهام لابن مالك فيما بعد في نظم خلاصته فقد «سبق ابن مالك لهذا العمل الفذ ورغم ما يقال عن عمله فله المبادرة والسبق»(3) فقد كان النظم في ذلك الوقت الطريقة الأسهل والأنسب في تناول القضايا النحوية بشكل يمكن للدارس استيعابها «وكانت هذه الطريقة وعاء العصر في نظم النحو شعرا، وإنّ العصر يغلب عليه الحفظ والرّواية»(4) كان الدارسون قد سئموا من الأسلوب الذي يتناول به النحاة

1- ابن خلكان، **وفيــات الأعيان وأنــباء أبنــاء الزمان**، تح: إحسان عباس. بيروت، دار الثقافة مج 2، ص235.

2- المرجع نفسه، مج2، ص235.

3- صالح بلعيد، **ألفية ابن مالك في الميزان**، دط. الجزائر: 1995، ديوان المطبوعات الجامعية، ص15.

4- المرجع نفسه، ص16.

مختلف القواعد في النحو، من خلال مؤلّفاتهم المطوّلة والتي تحمل الكثير من الحشو والتعليل للظواهر النحوية، هذا ما استرعى ابن معط إلى إيجاد أسلوب جديد، يمكّن من فهم النحو، دون اللجوء إلى المختصرات الأخرى إلاّ أنّ ألفيته التي تسمى "الدرّة الألفية" لم يكتب لها النجاح الذي حظيت به ألفية ابن مالك فيما بعد والتي ألّفها على منوال الدرّة.

لقد كان لابن معط الفضل في ظهور هذا النوع من النظم، بالنسبة إلى ابن مالك إلاّ أنّه لم ينل الشهرة التي نالها ابن مالك الذي جاء بعده، بتأليفه لمنظومته التي سميت بـ "الخلاصة" فقضى على كلّ أمل لألفية ابن معط في البروز والشهرة «لقد حجبت الخلاصة ألفية ابن معط مثل ما وقع لأكثر النصوص النحوية المماثلة حتى كأنّها صارت نسيا منسيا»[1] فعلى الرغم من الفارق الزمني الذي كان بينهما فإنّ ألفية ابن مالك طغت وتمكّنت من الانتشار بسرعة، إذ اعتنقها النحاة والدارسون وأخذوا في حفظ قواعدها، وشرح ما جاء فيها بيد أنّها لم تكن أوّل نظم لقواعد النحو، ولا أوّل ألفية «فقد أورد أبو حيان في تذكرته نظما في النحو لأحمد بن منصور اليشكري، وقال: إنّه ألفان وتسعمائة وأحد عشر بيتا، استطرد منه قرابة مائتي بيت تتناول مسائل الخلاف»[2] ممّا يعني أنّ ألفية ابن معط لم تكن أوّل نظم لقواعد النحو، وإنّما سبقه إلى ذلك اليُشكري الذي لم تتحدث المصادر عن ألفيته، إلاّ عدد قليل، فلم يتعرّض النحاة لها بالشرح والتعليق مثلما فعلوا مع "الخلاصة" التي أشبعوها شرحا وإعرابا، إذ لا تمرّ فترة من الزمن إلاّ ويصدر مؤلّف جديد يتناول الألفية سواء بالشرح أو التعليق أو الإعراب.

لقد تأثّر ابن مالك بألفية ابن معط كثيرا، ويظهر ذلك من خلال المنهج الذي اتّبعه في نظم ألفيته «وإذا كانت ألفية ابن مالك نالت الشهرة المعهودة، فإنّ ذلك لا يضع من قيمة عمل ابن معط الذي أفاد منه صاحب الخلاصة، شكلا ومضمونا،

1- محمد المختار ولد أباه، **تاريخ النحو العربي في المشرق والمغرب**، ص289.

2- المرجع نفسه، ص290. بتصرف.

فلقد جرى على منواله في عدّة أبيات، وفي طريقة النظم كما اقتبس من معانيه وألفاظه الشيء الكثير»[1] ومن أمثلة ذلك قول ابن معط:

القَوْلُ في تَوَابِعِ الاِسم الأَوَّلِ   نَعتٌ وتوكيدٌ وعطفٌ وبدلْ [2]

ويقول ابن مالك:

يَتْبَعُ في الإعرابِ الأسماءَ الأُوَّلْ   نَعْتٌ وتَوْكيدٌ وعَطْفٌ وبدلْ[3]

من خلال البيتين يتّضح لنا أنّ ابن مالك أخذ عن ابن معط الشيء الكثير فقد استفاد من معظم الخطوات التي تتبّعها ابن معط في نظم ألفيته.

منهجه: أما المنهج النحوي الذي تميّز به ابن معط، فقد تحدّث محقق ألفيته "علي موسى الشوملي" عن نماذج ممّا «تابع فيه البصريين، وبعض المسائل التي أخذ فيها برأي الكوفيين، وما نحا فيه نحو البغداديين، وما تفرّد به»[4] فمن خلال ما قاله المحقق، يمكن القول إنّ ابن معط لم يخرج عن مناهج علماء ونحاة عصره في الأخذ بآراء البصريين والكوفيين معا، إضافة إلى الانتقاء من آراء البغداديين ونحاة عصره من الأندلسيين والمغاربة. فممّا اتّبع فيه أهل البصرة استعمال مصطلحاتهم وترجيح آرائهم في بعض مسائل الخلاف، كقوله إنّ "إمّا" حرف عطف:

وأو، وإمّا، فيهما مشهور الشك والإبهام والتخيير

كما تابع سيبويه في إعراب الأسماء الستة فقال:

وستة بالواو رفعا إن تضف   والياء في الجر وفي النصب[5]

1- محمد المختار ولد أباه، **تاريخ النحو العربي في المشرق والمغرب**، ص291.

2- المرجع نفسه، ص291، ع/ علي موسى الشوملي، **شرح ألفية ابن معط**، ج1، ص33.

3- ابن الناظم، **شرح ألفية ابن مالك**، تح: عبد الحميد السيد محمد عبد الحميد، دط. بيروت: 1998، دار الجيل، ص490.

4- محمد المختار ولد أباه، **تاريخ النحو العربي في المشرق والمغرب**، ص291.

5- المرجع نفسه، الصفحة نفسها، ع/ علي موسى الشوملي، **شرح ألفية ابن معط**، ج1، ص250 .781

ولا ننسى أيضا الآراء التي تفرّد بها في مختلف القضايا والمسائل النحوية إذ نجد من المسائل التي تفرد بها: منع تقديم خبر "مادام" على اسمها فقال:

وَلاَ يَجُوزُ أَنْ تُقَدم الخَبر عَلَى اسْمِ مَادَامَ وَجَازَ فِي الآخِرْ

ومنها شروطه في المفعول له، التي قال فيها:

ثُمَّ الذِي سُمّي مَفْعُولاً لَهُ يُنْصَبُ نَحْوِ جِئت زَيْدًا قَتَلَه

مُقَارِنا للفِعلِ فِعْلُ الفَاعِلِ أَعَمُّ مِنْهُ، لاَ بِلَفظِ العَامِلِ[1]

فقد كان لابن معط منهجه الذي ميّزه عن نحاة عصره، فبنظمه لألفيته ورغم عدم انتشارها، إلاّ أنّه كان السبّاق إلى هذا التأليف المميّز.

3-4-الشلوبين: (ت 645هـ) إمام جليل ونحوي مبرز. يقول ابن الزبير في البغية: «كان إمام عصره في العربية بلا مدافع آخر أئمة هذا الشأن بالمشرق والمغرب»[2].

يقول السيوطي: «كان نقّادا للشعر بصيرا بمعانيه، وقد أقرأ نحو ستين سنة حتى لم يتأدب بالأندلس أحد في وقته إلاّ وأسند إليه مباشرة أو بواسطة»[3].

أمّا عبد المنعم خفاجة في كتابه "قصة الأدب في الأندلس"، فيقول عنه إضافة إلى ما قاله الأوّلون: «كان العارفون بقدره من تلاميذه وغيرهم يغالون فيه مغالاة شديدة، وكانت فيه مع ذلك غفلة وصورة بله حتى قالوا: إنّه كان يوما على جانب النهر، وبيده كراريس فوقع منها كراسة في الماء وبعدت عنه فلم تصل إليها يده فأخذ كراسة أخرى، وجذبها بها فتلفت بالماء، وله في هذه الحال حكايات كثيرة»[4] على الرغم من هذا الإجماع على إمامة الشلوبين في النحو ورسوخ قدمه

1- محمد المختار ولد أباه، **تاريخ النحو العربي في المشرق والمغرب**، ص292، ع/ علي موسى الشوملي، **شرح ألفية ابن معط**، ج1، ص582، 860.

2- السيوطي، **بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة**، مج2، ص244.

3- المرجع نفسه، مج2، الصفحة نفسها.

4- عبد المنعم خفاجة، **قصة الأدب في الأندلس**، ص198-199.

في هذا العلم، إلاّ أنّ هناك من تحامل عليه، فالقفطي مثلا في كتابه إنباه الرواة «انتقص شرحه للجزولية قائلا: إنّه ليس فيه كبير أمر، ونسبه إلى الارتزاق بصناعة العربية، ونفى عنه التمكّن فيها»[1] غير أنّ ابن مكتوم صحّح هذه الصورة وأوضح ما فيها من تحامل فقال: «لم يعرف القفطي شيئا من أحوال أبي علي وجهل مكانته في علم العربية»[2] كان الارتزاق بصناعة العربية سمة بعض النحويين الذين وجدوا فيها سبيلا لكسب عيشهم، إلاّ أنّ الشلوبين لم يكن منهم فدفاع ابن مكتوم عنه وشهادة تلاميذه يؤكدان أنّه كان نحويا متميّزا متمكّنا من علوم العربية.

مؤلفاته: له من المصنفات «شرح مقدمة الجزولي شرح كتاب سيبويه شرح جمل الزجاجي سماه الاعتراض والانفصال فيما نسب فيه صاحب الجمل في كلامه إلى الاختلال»[3] اهتمّ الشلوبين بشرح الكتب التي رأى أنّها تحتاج إلى اهتمام أكبر، من أجل فهمها وإدراك ما تحمله من قواعد ومسائل نحوية، فكتاب سيبويه مثلا لم يكن أوّل من اهتمّ به وبشرحه، وإنما سبقه إلى ذلك العمل الكثير من النحويين، كما تلاه الكثير منهم أيضا، وكذلك الأمر بالنسبة لكتاب الجمل ومقدمة الجزولي.

منهجه: كان أبو علي الشلوبين كغيره من نحاة عصره من المغاربة والأندلسيين الذين لم يتشيّعوا لآراء مدرسة معينة، فنجد أنّه في بعض الآراء يؤيد مذهب البصرة وفي آراء أخرى يساند مذهب الكوفة، إضافة إلى آراء من مذهب بغداد ونحاة المغرب والأندلس، إذ كان «يحتج لرأي سيبويه في أن النكرة أصل والمعرفة فرع، قائلا إنّه نظر إلى حال الوجود إذ الأجناس هي الأُوّل ثم

1- القفطي، **إنباه الرواة على أنباه النحاة**، مج2 ، ص232، 234.

2- محمد المختار ولد أباه، **تاريخ النحو العربي في المشرق والمغرب**، ص293.

3- المرجع نفسه، ص295.

الأنواع»[1] أي أن النكرات تكون أولا ثمّ تكون بعدها المعارف. وكان يأخذ بـرأي الرماني في أنّ «خبر المبتدأ بعد لولا إذا كان كونا عاما حذف، وإذا كـان كونـا خاصا وجب ذكره كما جاء في الأثر: لولا قومك حديثو عهـد بالإسـلام لهـدمت الكعبة»[2] كما أنّ له آراء انفرد بها، من ذلك أنّ «"إذ" في مثل "فبينمـا العسـر إذ دارت مياسير" ظرف زمان وعملها محذوف يدل عليه الكلام»[3] كما كان يـذهب أيضا إلى «أنّ "عيونا" في مثل "**وفجّرنا الأرض عيونا**" ليست تمييزا وإنّمـا هـي حال»[4] لقد كان أبو علي الشلوبين على شاكلة الجزولي والسهيلي من ألمع نحـاة المغرب والأندلس درس على يد أبرز نحاة عصره وتخرج عليه أشـهرهم كـابن الضائع، وابن عصفور وغيرهما كثير.

كان كثير الاعتماد على السماع يعتبره «أساسا لاعتبار القاعدة النحوية، وبما أن نشاطه الفكري جاء بعدما استكمل النحويون مباحث السماع الذي نراه يشير إليه بالنظير، فهو ضمن هذا التوجه لا يقبل أية صيغة، أو أي تركيب، ما لم يكـن لـه نظير مسموع عند العرب»[5] فنرى أنّ الشلوبين في هذا الجانب يميل أكثـر إلـى مذهب الكوفيين الذين يعتبرون السماع أساس القاعدة النحوية، إلاّ أنّه لا يؤيّدهم في جميع آرائهم، وإنّما ينتقي من آراء المذاهب الأخرى.

3-5- ابن هشام الخضراوي: (ت 646هـ) تبحّر في علم النحـو، فقـد تتلمذ على أبرز النحاة، وتخرّج عليه أبرزهم أيضا.

1- شوقي ضيف، **المدارس النحوية**، ص302،ع/ السيوطي، **همع الهوامع في شرح جمع الجوامع**، ج1، ص55.

2- المرجع نفسه، ص303، ع/ ابن هشام الأنصاري، **مغني اللبيب عن كتب الأعاريب** ص302.

3- نفسه، الصفحة نفسها،ع/ السيوطي، ، **همع الهوامع في شرح جمع الجوامع**، مج1 ص205.

4- نفسه، ص303، ع/ السيوطي، المرجع نفسه، مج1، ص251.

5- محمد المختار ولد أباه، **تاريخ النحو في المشرق والمغرب**، ص296.

مؤلفاته: له من المصنفات النحوية ما يشهد له بكثرة عطائه ورسوخ قدمه في هذا الفن، فقد صنّف: «فصل المقال في أبنية الأفعال – المسائل النخب – الإفصاح بفوائد الإيضاح – الاقتراح في تلخيص الإيضاح وشرحه غُرر الإصباح في شرح أبيات الإيضاح – النّقض على الممتع لابن عصفور وله نظم ونثر وتصرّف في الأدب»[1] كان إماما مقدما في العربية، عارفا بعلومها وقد نشطت الحركة اللغوية والنحوية في عصره بشكل لافت، تمكّن خلالها من إيجاد سبيل له بين ذلك الكمّ الهائل من النحويين الذين أبدعوا بمختلف المؤلفات والمصنفات التي تميّزوا فيها بآرائهم النحوية الخاصّة.

منهجه: له آراء تفرد بها، وآراء أخرى وافق فيها البصريين والكوفيين وآراء وافق فيها العلماء قبله، وآراء أخرى كانت موضع نقد من العلماء، فنجد أنّه وافق الكوفيين في تثنية المركب المزجي مثل: بعلبك وجمعه، كما أنه كان يتفق مع الشلوبين في أن لو الشرطية لا تدل على امتناع الشرط ولا امتناع الجواب، إنّما تدل على التعليق في الماضي كما دلت إن على التعليق في المستقبل[2] وغيرها من الآراء التي انتصر فيها لآراء مختلف النحاة، والتي وافقت توجّهاته، ومن آرائه الاجتهادية نذكر أنّه كان يذهب إلى أن «لو التي للتمني في مثل "لو تأتيني فتحدثني" ليست شرطية، وإنّما هي قسم برأسها، ولا تحتاج إلى جواب كجواب الشرط، ولكن قد يؤتى لها بجواب منصوب كجواب "ليت"»[3] كما ذهب إلى أن «حتى العاطفة يتحتم أن يكون معطوفها ظاهرا لا مضمرا، كما أنّ ذلك شرط مجرورها»[4] وكان

1- محمد المختار ولد أباه، **تاريخ النحو في المشرق والمغرب**، ص267.

2- شوقي ضيف، **المدارس النحوية**، ص304، ع/ السيوطي، **همع الهوامع في شرح جمع الجوامع**، ج1، ص42

3- المرجع نفسه، الصفحة نفسها، ع/ابن هشام الأنصاري، **مغني اللبيب عن كتب الأعاريب**، ص295.

4- المرجع نفسه، الصفحة نفسها، ع/ المرجع نفسه، ص135.

يرى أنّ «ما في "لاسيما" زائدة لازمة لا تحذف البتة»[1] كان الخضراوي عالما بالأدب والقراءات والنحو، ويعد بحق واحدا من النحاة الأفذاذ الذين أنجبتهم الأندلس، ويبدو من خلال مؤلفاته أنّه قد أعجب بأبي علي الفارسي، وبكتابه "الإيضاح" ، لذلك أخذ في شرحه وتلخيصه وشرح شواهده وغوامضه.

3-6- ابن عصفور: (ت 663هـ) قال ابن الزبير: «أخذ عن الدباج والشلوبين، ولازمه مدة ثم كانت بينهما منافرة ومقاطعة وتصدر للاشتغال مدة بعدّة بلاد وجال بالأندلس، وأقبل عليه الطلبة وكان أصبر الناس على المطالعة لا يمل من ذلك، ولم يكن عنده ما يؤخذ عنه غير النحو ولا تأهّل لغير ذلك»[2]

قال صاحب البلغة: «كان بقية الحاملين للواء العربية بالمغرب كثير المطالعة، له تصانيف حسنة... طاف المغرب كله وأقام بتونس شاغلا للطلبة وكان يملي من صدره»[3]

مؤلفاته: له من التصانيف: «الممتع في التصريف – المقرب وشرحه لم يتم شرح الجزولية- مختصر المحتسب- ثلاثة شروح على الجمل – شرح الأشعار الستة – شرح كتاب سيبويه»[4] إلى غير ذلك من المؤلفات التي أبدع فيها ابن عصفور، وأبهر بها علماء ونحاة عصره، وحتى من جاء بعده.

أجمع معظم من ترجم لابن عصفور على أنّه كان إمام عصره ونحوي زمانه «وهو إن كان لم يكن عنده ما يؤخذ عنه غير النحو، إلاّ أنّه كان في كوكب سمائه وحامل لوائه، ولا يزال اسمه خالدا في كتب هذا الفن»[5] أبدع ابن عصفور من خلال مؤلفاته العديدة في علمي النحو والصرف فكان بذلك لا يختلف عن

1- شوقي ضيف، **المدارس النحوية**، ص304، ع/ السيوطي، **همع الهوامع في شرح جمع الجوامع**، مج1، ص224.

2- السيوطي، **بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة**، مج2، ص210.

3- الفيروز أبادي، **البلغة في تاريخ أئمة اللّغة**، ص170.

4- السيوطي، **بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة**، مج2، ص210.

5- مصطفى صادق الرافعي، **تاريخ آداب العرب**، مج3، ص323.

العلماء والنحاة الذين عاصرهم، رغم أنّه لم يكن يجيد غير النحو، إلاّ أنّ ذلك كان كافيا لبروزه واعتلائه درجة رفيعة مكّنته من إيجاد نفسه بين العلماء.

أعطى ابن عصفور أهمية كبيرة للصرف الذي غض عنه الطرف الكثير من النحاة، فألّف فيه كتابا سماه "الممتع في التصريف"، تناول فيه مختلف أبواب الصرف بطريقة تكاد تكون من أبسط الطرق التي يستطيع الدارسون فهمها واستيعابها في ذلك الوقت «وقد بسط ابن عصفور مسائل التصريف في هذا الكتاب، بسطا مسهما مدعوما بالتعليل والتفسير والحجاج والأدلة والشواهد، فكان من أشهر كتبه ومن أمثل كتب الصرف المطولة»[1] فقد نال شهرة واسعة، ولقي اهتماما كبيرا من طرف الدارسين في عصره وفيما بعد أيضا، لأنّه اعتبر كتابا مميّزا، نَدُرَ تأليف مثله في تلك الحقبة لانصراف النحاة عن ميدان الصرف وصبّ اهتمامهم على ميدان النحو وأبوابه، ومحاولة تيسيره وتسهيله، أو تعقيده أكثر من خلال حشوه بكثرة التعليلات والاستنباطات، هذه شهادة حاجي خليفة على روعة هذا الكتاب، وغيرها كثير لافتقار الناس إلى مثل هذه المؤلفات التي سطعت في سماء المغرب والأندلس وحتى في المشرق العربي، حيث قلّ أن تخلو كتب النحو التي ألفت في عهده من إحدى مسائله.

ويقول محقق كتاب "المقرب": «يعدّ كتاب "المقرب" لابن عصفور صغير الحجم، غزير العلم جامعا لأبواب النحو والتصريف، في أسلوب موجز، وعبارة واضحة، لذا أقبل عليه العلماء بين شارح له ومختصر»[2] وممّا يميّز هذا الكتاب أنّه من كتب النحو المختصرة للمسائل النحوية، اعتمد فيه ابن عصفور الاختصار والوضوح والإيجاز لتقريب الفهم للناشئين والمبتدئين بتيسير القواعد، وتناول

1- ابن عصفور الاشبيلي، **الممتع في التصريف**، تح: فخر الدين قباوة، ط5. طرابلس: 1983 الدار العربية للكتاب ص8، ع/ حاجي خليفة، **كشف الظنون**، ص1822.

2- ابن عصفور الإشبيلي، **المقرب ومعه مُثل المقرب**، ص48.

البعض من أبواب النحو التي يحتاجون إليها، دون التطرق إلى ما قد يعيق فهمهم واستيعابهم ويعقد المسائل عليهم.

في حين نجد أنّ هناك من انتقد هذا الكتاب ومؤلّفه وممّن انتقدوه «أهل قطره الأندلسيون وغيرهم منهم: ابن الضائع، وابن هشام الجزيري، وله عليه: "المنهج العرب في الرد على المقرب" وفيه تخليط كثير وتعسّف، ومنهم أيضا ابن الحاج وأبو الحسن حازم القرطاجني الخزرجي سماه "شد الزيار على جحفلة الحمار" وابن مؤمن القابسي، وبهاء الدين بن النحاس»[1] ذكر صاحب "نفح الطيب" أن كتاب ابن هشام فيه تخليط كثير في رده على المقرب إذ ومهما يكن فيه من نقائص وسقطات فإنّه لن يبلغ ما وصفه به نقّاده لكثرة المعجبين به الذين اهتموا بشرحه ودراسته.

منهجه: عاش ابن عصفور في مرحلة تميّز فيها المغرب والأندلس بازدهار علمي كبير، كان فيه النحويون قد درسوا المذاهب النحوية الشهيرة: المذهب البصري، الكوفي والبغدادي، فاتّخذ معظمهم سبيل الانتقاء من مختلف آراء هذه المذاهب، إلاّ أنّ نزعتهم لمذهب معين كانت تطغى على مختلف آرائهم، فابن عصفور كان يميل كثيرا إلى آراء البصرة، إن لم تكن كلها وذلك لصحتها وشهرتها وتفوّقها «وكثيرا ما يختار مذهب سيبويه إمام البصريين، وينقل عنه في كتبه خاصّة المطوّلة منها»[2] فممّا كان يقف فيه مع سيبويه والبصريين نجد مثلا أنه كان «يرى رأي سيبويه في أن لام المستغاث في مثل "يا لزيد" متعلقة بفعل النداء المحذوف لا بيا كما ذهب إلى ذلك المبرد»[3] كما كان يذهب مذهب الأخفش في «أن "إن" يجوز فيها الكسر، والفتح إذا تلت مذ ومنذ مثل "ما رحلت إلى هذا البلد

1- المقري، **نفخ الطيب من غصن الأندلس الرطيب**، تح: إحسان عباس، دط. بيروت: 1968، دار صادر مج4، ص148.

2- ابن عصفور الإشبيلي، **المقرب ومعه مثل المقرب**، ص50.

3- شوقي ضيف، **المدارس النحوية**، ص307، ع/ ابن هشام الأنصاري، **مغني اللبيب عن كتب الأعاريب**، ص240.

مذ أو منذ أن الله خلقني"»[1] كما كانت له أراء انفرد بها، لم يعتمد فيها على آراء غيره، إلاّ أنّ الأمور التي اختلف فيها مع سيبويه ومذهب البصرة، لم تغيّر من كونه منحازا إليهما «وهو الاعتماد الأساسي على البصرة، دون أن يكون متعصّبا ضدّ الكوفة والبغداديين»[2] يمثل ابن عصفور علما من أعلام النحو في تاريخ المغرب والأندلس، عالما مميّزا جمع بين علوم اللّغة فبرع فيها، وألّف كتبا شهدت له بطول باعه في هذا العلم «وإذا كان ابن عصفور مثار جدل وانتقاد من النحاة فإنّه لا يمكن أن ينكر أنّ له مكانة متميّزة بين علماء اللّغة، فقد عرف مدرّسا بارعا ومؤلفا مجدّدا ومفكّرا منهجيا، فكتابه "المقرب" من أجود المختصرات، ومصنفه "الممتع" أعاد كتابة التصريف فاستحقّ بذلك لقب خاتمة النحاة»[3] تميّزت الفترة الممتدة بين القرنين السادس والسابع الهجريين في المغرب والأندلس، بظهور ألمع النحويين واللّغويين الذين كانت لهم مؤلفات تشهد لهم برسوخ أقدامهم في مختلف العلوم خاصة النحو منها، فابن عصفور على الرغم من انتقاده من قبل الكثيرين فإنّ مؤلفاته المميّزة، واهتمام النحويين باختصارها وشرحها والتّعليق عليها، ردّ كلام النّقاد، وجعله في مرتبة خاتمة النحاة.

3-7- ابن مالك: (ت 672هـ) قال الذهبي: «تصدّر لإقراء العربية وصرف همّته إلى إتقان لسان العرب، حتى بلغ فيه الغاية، وحاز قصب السبق وأربى على المتقدمين، وكان إماما في القراءات وعللها، وأما اللّغة فكان إليه المنتهى في الإكثار من نقل غريبها والاطّلاع على حوشيها، وأمّا النحو والتصريف، فكان فيهما بحرا لا يجارى وحبرا لا يبارى، وأمّا أشعار العرب التي يستشهد بها على اللّغة والنحو، فكان الأئمة الأعلام يتحيرون فيه ويتعجبون من أين

1- شوقي ضيف، **المدارس النحوية**، ص307، ع/ السيوطي، **همع الهوامع في شرح جمع الجوامع**، ج1، ص138.

2- محمد المختار ولد أباه، **تاريخ النحو العربي في المشرق والمغرب**، ص285.

3 - المرجع نفسه، ص287.

يأتي بها»[1] نرى من خلال هذا العرض الموجز لحياة ابن مالك أنّه قد تمكّن من مختلف ميادين اللّغة من نحو وصرف وقراءة وأشعار العرب، حتى أدهش الأئمة الأعلام لكثرة اطّلاعه على غريب اللّغة وحوشيها، ومختلف القراءات وعللها وأخبار العرب ولسانهم، إذ كانوا يتعجبون من كيفية حصوله عليها، وإتقانه لها، مع أنّهم كانوا السبّاقين لدراسة اللّغة وأحوالها ونثر العرب وأشعارها.

وأضاف الذهبي: «وكان نظم الشعر سهلا عليه رجزه وطويله وبسيطه وغير ذلك... هذا مع ما هو عليه من الدّين المتين وصدق اللهجة وكثرة النّوافل وحسن السّمت، ورقة القلب وكمال العقل والوقار والتؤدة»[2] وبالإضافة إلى تمكنه من علوم اللّغة، فقد تمكن أيضا من نظم الشعر بمختلف بحوره زد على ذلك ما تميّز به من جمال الخلُق وتورّع في الدين وقوة العبارة.

كان ابن مالك «أمّة في الاطّلاع على الحديث، فكان أكثر ما يستشهد بالقرآن، وإن لم يكن فيه شاهد عدل إلى الحديث، وإن لم يكن فيه شاهد عدل إلى أشعار العرب، وكان كثير العبادة... وانفرد عن المغاربة بشيئين هما: الكرم ومذهب الإمام الشافعي، توفي ابن مالك ثاني عشر شعبان سنة اثنتين وسبعين وستمائة»[3] تميّز ابن مالك عن غيره من النحاة بكثرة اطّلاعه على الحديث الشريف والاحتجاج به إن لم يجد الشاهد في القرآن الكريم فقد كان أمة في القراءات ورواية الحديث النبوي «وهو يعدّ أوّل من استكثر من رواية الحديث في النحو، وحقّا كان يستشهد به من قبله في مصنفاتهما ابن خروف والسهيلي، بل كان يستشهد به أحيانا أبو علي الفارسي وابن جني وابن بري المصري ولكن هو الذي توسع في الاستشهاد به»[4] لم يكن ابن مالك وحيد عصره في الاستشهاد بالحديث

1- السيوطي، **بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة**، مج1، ص130.

2- المرجع نفسه، مج1، ص131.

3- نفسه، مج 1، ص137.

4- شوقي ضيف، **المدارس النحوية**، ص310.

الشريف في النحو العربي، بل سبقه إلى ذلك نحاة من المشرق، ومن المغرب والأندلس، لقد سار النحاة في هذين القطرين على نهج نحاة المشرق في الاستشهاد بالقرآن الكريم وأشعار العرب واستبعادهم للحديث النبوي الشريف إلاّ أنّ ابن خروف والسهيلي، ثم ابن مالك من بعدهما خالفوا جمهور النحاة في الاحتجاج به.

عاش ابن مالك في المشرق العربي معظم حياته، إذ لم يعد إلى المغرب والأندلس منذ أن رحل عنهما وقد تتلمذ على علماء المشرق، وكان هو أستاذا للدارسين المشارقة، إلاّ أنّ ذلك لم ينسه أصله الأندلسي، فقد كان له الفضل في ذكر أسماء نحاة المغرب والأندلس في المشرق «مثل السهيلي وابن خروف والشلوبين والخضراوي وابن عصفور وغيرهم في كتب النحو المتأخرة، ولأمر ما نجد أسماءهم تتكرّر في شرح ابنه بدر الدين للألفية والمعروف بشرح ابن الناظم، رغم أنّ هذا قد ولد ونشأ بدمشق»[1] لم يتنكّر ابن مالك لهؤلاء النحويين وإسهاماتهم في هذا المجال على الرغم من أنّه لم يجالسهم، ولم يأخذ عنهم، إلاّ الشلوبين، الذي قال إنّه تتلمذ له مدة لا تزيد عن ثلاثة عشر يوما، إذ يقول: «وجلست في حلقة أبي علي الشلوبين نحوا من ثلاثة عشر يوما»[2] إذ أكمل تعليمه في المشرق وأخذ عن شيوخه إلاّ أنّه كان يعّد دائما ضمن علماء الأندلس الذين برعوا في النحو، وجعلوه اختصاصهم، خاصة في القرنين السادس والسابع الهجريين، حيث كانت هذه الفترة من أزهى الفترات التي استطاع فيها النحاة إثبات وجودهم من خلال المؤلفات القيّمة التي نبغوا فيها، والتي شهد لهم الكثير بتميّزها.

يقول سعيد الأفغاني: «وكان خاتمة علماء الأندلس اثنان رزقا الشهرة ورحلا إلى المشرق فبثا علمهما فيه، وكثرت تواليفهما، وكتب لها الذيوع حتى عصرنا هذا، عنيت الإمام ابن مالك الجياني صاحب الألفية، والإمام أبا حيان الغرناطي

1- رضا عبد الجليل الطيار، **الدراسات اللغوية في الأندلس**، ص50.

2- السيوطي، **بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة**، مج1، ص131.

صاحب التفسير الكبير»[1] إذ ورغم أنّ ابن مالك قد أبدع في وسط غير الذي نشـأ فيه، إلاّ أنّه يُذكر دائما ضمن علماء ونحاة المغرب والأندلس.

مؤلفاته: ألّف ابن مالك مجموعة من الكتب كلّها في النحو، تتضمن مختلف أبوابه، نذكر منها «ألفية ابن مالك – تسهيل الفوائد وتكميل المقاصد وهو مختصر كتاب له اسمه كتاب الفوائد – لامية الأفعال – أو كتاب المفتاح في أبنية الأفعال – الكافية الشافية – عدّة الحافظ وعمدة اللافظ– سبك المنظوم وفك المختوم في النحو إيجاز التعريف في علم التصريف– شواهد التوضيح وتصحيح مشكلات جامع الصحيح– كتاب العروض–تحفة المودود في المقصور والممدود – الألفاظ المختلفة– الاعتقاد في الفرق بين الصاد والضاد – الإعلام بمثلث الكلام»[2] إلاّ أنّ الذي اشتهر منها هو كتاب الألفية الذي كثر شرّاحه، في مختلف البلاد العربية إضافة إلى إعرابه وشرح شواهد شروحه ممّا جعله من أكثر الكتب المتناولة درسا وشرحا وتعليقا وهو «مقدمة مشهورة في ديار العرب جمع فيها مقاصد العربية وسمّاها "الخلاصة" في علمي النحو والتصريف، أخذها ابن مالك من الكافية الشافية... جعلها في أرجوزة لطيفة مع الإشارة إلى مذاهب العلماء وبيان ما يختاره من الآراء أحيانا»[3] وهي منظومة شعرية نحوية مختصرة جاءت في أسلوب تعليمي مختصر، تضمّ علمي النحو والصرف، إذ يسهل على الطلبة حفظها واسترجاعها، وتعدّ عند القدماء تيسيرا على الطلاب والناشئة في بدايات حياتهم التعليمة، إذ جاءت في طابع تعليمي «نظرا لما تحمله من توضيح لأصول النحو العربي، دون التعمق في الأشباه والنوادر واللغات بشكل عميق»[4] وقد حظيت

1- سعيد الأفغاني، **من تاريخ النحو**، ص97.

2- السيوطي، **بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة**، مج1، ص136

3- المرادي، **توضيح المقاصد والمسالك بشرح ألفية ابن مالك**، شر وتع: عبد الرحمن علي سليمان، ط1. القاهرة: 2001، دار الفكر العربي، مج1، ص48.

4- صالح بلعيد، **ألفية ابن مالك في الميزان**، ص10.

باهتمام النحاة عبر العصور نظرا لما تحويه من تيسير لقواعد النحو والصرف والطابع التعليمي الذي جاءت به «يستهدف عرض مسائل النحو ليقف عليها الدارس أملا في استيعابها ومراعاتها عند النطق والكتابة للوصول إلى بيان الضوابط الواجب انتحاؤها»[1] وقد حوت الألفية على جل موضوعات النحو والصرف العربيين إذ استهلّها صاحبها بموضوع الكلام وما يتألف منه في قوله:

كَلاَمُنا لَفْظٌ مفيدٌ، كَاستَقِمْ　　　واسْمٌ، وفِعْلٌ، ثمّ حرفٌ: الكلِمْ

وَاحِدُهُ "كَلِمَةٌ"، والقولُ عمٌّ　　　وكلمــــــةٌ بِهَا كلاَمٌ قدْ يؤَمّ [2]

وختمها بموضوع الإدغام، وهو موضوع من مواضيع الصرف الذي عـــادة ما نجد النحاة القدامى يؤخرونه، فيجعلونه خاتمة كتبهم، فيقول:

أوّل مثلين محرّكين فـــــي　　　كلمة ادغم، لا كمثل صفـــــف

وذلك، وكلل، وكبــــــــب　　　ولا كجسّس، ولا كاخصص أبي

ولا كهيلل، وشذّ فـــــي ألل　　　ونحـــوه، فكّ بنقل فقبـــــــل[3].

يشهد معظم النحويين لابن مالك بالنبوغ ، ولألفيته بالتيسير والشهرة، ومـــا كانت الألفية لتنال هذه المكانة لولا وضوحها وسلاسة أسلوبها، على غيرهـــا مـــن المنظومات النحوية الأخرى وقد اشتهر ابن مالك «بمؤلفاته البعيدة المسائل الكثيرة الفوائد استطاع أن يحي من العلوم رسوما دارسة ويبيّن المعالم الطّامسة، ويجمـــع من ذلك ما تفرّق، ويحقق ما لم يكن تبين منه ولا تحقق»[4] عندما ألّف ابن مالـــك منظومته هذه، راعى فيها وضع المبتدئين الذين لا يستطيعون فهم النحو كما جـــاء به النحاة القدامى، إلاّ بعد جهد جهيد ومشقة كبيرة، حتى ليكاد ينفـــر منـــه لكثـــرة التعقيد والتعليل والتأويل، فحاول ابن مالك أن يستغني عن كل هذا ليجعل منه علما

1- صالح بلعيد، **ألفية ابن مالك في الميزان**، ص10.

2- ابن الناظم، **شرح ألفية ابن مالك**، تح: عبد الحميد السيد محمد عبد الحميد، دط. بيروت: 1998، دار الجيل، ص20.

3- المرجع نفسه، ص870.

4- صالح بلعيد، **ألفية ابن مالك في الميزان**، ص12.

ميسّرا مرغوبا فيه كميدان للبحث والدراسة، محبّبا إلى قلوب دارسيه فكان له ما أراد، ووفق إلى حد بعيد في الإلمام بموضوعات النحو والصرف بأسلوب شعري موزون، إذ نظم ألفيته كلّها على بحر الرجز.

ومع هذا الإبداع الذي ظهر به المؤلف، فإنّ هناك من العلماء من كان له رأي آخر، فقد كانت هناك بعض المواقف التي جعلت من الألفية منظومة لا تحمل من اليسر ما يجعلها في متناول المبتدئين على الإطلاق، وذلك لأنّها تحتاج إلى شرح وإيضاح كبيرين «كان لأبي حيان التوحيدي الأندلسي موقف غير محمود من الألفية التي كان ينقّص من قدرها، ويعيب نظمها»[1] ويذهب محمد حسين كامل صاحب كتاب "اللّغة العربية المعاصرة" إلى أنّها مجموعة طلاسم عديمة الوضوح وتحتاج إلى شروحات وافية وعميقة، فقد أضاعت القواعد النحوية، بين سوء النظم و كثرة الشروحات، فلو أنّ ابن مالك لم يأت بهذا النظم لبقيت القواعد النحوية كما جاء بها القدامى، ولا يمكن لأحد المساس بها فعدمها إذن أفضل من وجودها ليجعلها في الأخير ظاهرة من ظواهر الانحطاط اللّغوي[2] ذلك أنّها في رأيه تحتاج إلى شرح وإيضاح للكبار، فضلا عن المبتدئين الذين لا يستطيعون فهم ما ترمي إليه، فهي مجرّد كلمات كتبت في شكل أبيات شعرية غير مفهومة، ولا يمكن استخراج القواعد النحوية منها. فقد تميّز العصر الذي عاش فيه ابن مالك بقلّة الإبداع، إذ كان اهتمام المؤلفين منصبّا على كتب الشروح والتعليقات وكتب الردود.

إلاّ أنّنا ومن خلال عدّنا لمختلف الشروحات التي حظيت بها الألفية، واهتمام العديد من النحويين بها، نرى أنّها من المؤلفات النحوية المهمّة التي ألّفت في ذلك العصر، تكاد تبلغ أهمّية الكتاب لسيبويه لكثرة المهتمين بها وبشرحها، وإعرابها وشرح شواهد شروحها.

1- عبد العال سالم مكرم، **المدرسة النحوية في مصر والشام في القرنين السابع والثامن الهجريين**، ط2. الكويت: 1990، مؤسسة الرسالة، ص172.

2- محمد كامل حسين، **اللّغة العربية المعاصرة**، ص56. بتصرّف.

منهجه: تميز ابن مالك بمنهج نحوي على غرار نحاة المغـرب والأنـدلس الذين نبغوا في هذا الميدان، فكانت لهم آراء تفرّدوا بها، وآراء أخرى تبعوا فيهـا من جاء قبلهم من النحاة، فمنهم من أخلص لمدرسة البصرة، ومنهم من تأثّر بآراء مدرسة الكوفة وآخرون اهتموا بآراء المدرسة البغدادية إضافة إلى الذين مزجـوا بين آراء هذه المدارس جميعا، واتّبعوا سبيل الانتقاء الذي تميّز به معظمهم فكـان ابن مالك من بينهم إذ كانت له «اختيارات كثيرة من مذاهب البصريين والكـوفيين والبغداديين وسابقيه من الأندلسيين، غير آراء اجتهادية ينفرد بها»[1] وكان ينتقـي من الآراء ما كان يرى أنّها الأصلح، ولا يهمّ ما إذا كانت بصـرية أم كوفيـة أم غيرها، فالمهمّ عنده هو تناسبها مع أرائه وعدم تناقضها مـع مختلـف القواعـد والنظريات النحوية التي يتعصّب لها.

كان ابن مالك أمّة في مختلف علوم اللّغة والنحو، لا يستطيع أحد مجاراتـه «استطاع ببراعته أن يجعل من هذا الجمع مزيجا متناسقا ومتوازنا ومتميّزا»[2] مع غوصه في بحر النحو الذي لا نهاية له فأبدع فيه أيّما إبداع، وقد شهد لـه بـذلك علماء عصره، ومن جاء بعده بل وإلى غاية عصرنا هذا فقد تميز بنظم ألفيته التي سمّاها "الخلاصة" والتي جمع فيها قواعد النحو والصرف، فكانت بمثابة المؤلـف الذي ألمّ بمختلف جوانب هذا العلم، الذي لطالما اشتكى منـه دارسـوه، ومعلّمـوه ونفروا منه ومن تعقيداته. حاول ابن مالك أن يأتي بمنهج جديد يسهّل عليهم درسه واستيعابه، فألّف منظومته التي تركت أثرا واضحا في الكثير مـن النحـاة الـذين جعلوا يشرحونها، ويعربون شواهدها مع استخدام آرائـه فـي مختلـف القضـايا والمسائل النحوية التي تفرّد بها.

ومن خلال هذه الآراء، حاول أن يأتي بالجديد، بعيدا عن تكرار مـا قالـه القدامى في النحو وفي مختلف أبوابه شأنه شأن ابن هشام الأنصاري الذي جاء من

1- شوقي ضيف، **المدارس النحوية**، ص310.

2- محمد المختار ولد أباه، **تاريخ النحو في المشرق والمغرب**، ص314.

بعده، إذ أنّهما «جدّدا في النحو بعض التجديد وكانا يميلان إلى التوسـعة...فكانـا مجتهدين إلى حد ما ذوي أثر بالغ في الدّراسات النحوية ومازالت كتبهما تـدرس حتى الآن في معاهد العلم، وخدمت بشروح وحواش وتقديرات كثيرة»[1] فإضـافة إلى منظومته الألفية، التي نالت شهرة واسعة، نجد أنّ كتابه "تسهيل الفوائد وتكميل المقاصد" نال نفس القيمة المميّزة التي نالتها "الخلاصة" يقول عنها أبو حيان فـي البحر المحيط: «إنّ أحسن موضوع في علم النحو، وأجلّه كتاب أبي بشر عمرو بن عثمان بن قنبر سيبويه، وأحسن ما وضعه المتأخرون من المختصـرات وأجمعـه للأحكام كتاب "تسهيل الفوائد" لأبي عبد الله محمد بن مالك الجياني الطائي المقـيم في دمشق»[2] فقد عني به النحاة، وكان موضوع اهتمـامهم، لأنّـه مـن الكتـب المختصرة التي تساعد الدارسين في فهم النحو، وحلّ تعقيداته، التي ما فتئ علماؤه في اختراعها، حتى أصبح علما شائكا، لا يفهمه إلاّ النحوي الفذّ المتخصّص. وقـد كتب فيه أبو حيان «التكميل في شرح التسهيل والتّخييـل الملخّـص مـن شـرح التسهيل، وهو تلخيص لشرح المؤلف، والكتاب الثالث وهو أهمها وأكثرها جمعـا واستيعابا، أعني التذييل والتكميل في شرح التسهيل، ويكفيـه ضـخامة أنّ كتـاب ارتشاف الضرب ليس إلاّ اختصار له»[3] ثم توالى العلماء بعد أبـي حيـان فـي الاعتناء به وشرحه، فقد اعتبروه مرجعا أساسا في الاختصار، يسهّل عليهم فهـم القواعد النحوية وشرحها للدارسين.

ألّف ابن مالك هذا الكتاب لطبقة العلماء الذين نالوا قسطا وافرا مـن علـم النحو، وتمكّنوا من فهم قواعده إلاّ أنّهم يحتاجون إلى إعادة النظر في هذه القواعد الشائكة والمعقدة التي تعسّر فهمها على العديد من الدارسين جيلا بعد جيل. وكلمـا

1- سعيد الأفغاني، **من تاريخ النحو العربي**، ص97-98.

2- محمد المختار ولد أباه، **تاريخ النحو العربي في المشرق والمغرب**، ص315، ع/ أبو حيان **البحر المحيط** ج1، ص106.

3- المرجع نفسه، ص315.

جئنا إلى العصور المتأخرة، صادفتنا عراقيل أكبر، خاصة مع تغيــر المفــردات اللغوية، نتيجة استحداث الكثير منها، لذلك استرعى هذا الوضع تناسقا وتوافقا بين القواعد النحوية مع ما يقتضيه العصر من استعمالات لغوية.

إنّ أهمّ ما ميّز منهج ابن مالك النحوي هو استشهاده بالحديث الشريف، الذي استغنى عنه الكثير من النحاة «إنّ أهمّ ما استحدثه ابن مالك في النحو، توسيع دائرة السماع باعتماده على لغة الحديث الشريف... فقد برهن على أنّ جميــع الصــيغ الواردة في الأحاديث النبوية الشريفة لها شواهد من أشعار العرب، الّتــي أجمــع النحويون على الاستشهاد بها»[1] وبهذا يكون قد خــالف جمهــور النحــاة الــذين استبعدوا الاحتجاج بالحديث الشريف لكون بعض الأحاديث فــي رأيهــم رويــت بالمعنى لا كما جاءت على لسان الّرسول صلى الله عليه وسلم، فــي حــين أنّهــم احتجوا بكلام العرب، مع أنهم لا يعرفون له مصدرا في بعض الأحيان، فقد كانت بعض القبائل العربية متوّغلة في البداوة، تعيش حياة موحشة خاصّــة الصّــعاليك الذين كانوا يجعلون من الكهوف ملاجئ لهم، يحيون فيها حياة اللصوصية ينشدون الشّعر ويُحتجّ به فضلا عن اللّغة التي يستعملونها والتي تحمل في أحيــان كثيــرة ألفاظا غريبة مهجورة لا تستعمل إلاّ في القليل النادر.

أمّا بالنسبة إلى القياس فقد اتّخذ فيه الإمام ابن مالك سبيلا آخر غير الــذي تعوّد عليه الدّارسون وكان طريقا «وسطا بين تساهل الكوفيين وتشدد البصريين»[2] فهو لم ينتصر لآراء مدرسة معينة، بل اتّخذ السّبيل الوسط، إذ لم يعتمد اعتمادا كلّيا على السماع مثل الكوفيين، ولا مال كل الميل إلى القياس الذي جعله البصــريون قاعدة تقوم عليها استنتاجاتهم واستنباطاتهم.

أمّا فيما يخصّ التعليل « فإنّ ابن مالك لم يتكلّف اســتخراج علــل بعيــدة للقواعد النحوية، فهو في هذا المجال أقرب إلى المنهج اللغــوي، وإلــى الســليقة

1- محمد المختار ولد أباه، **تاريخ النحو العربي في المشرق والمغرب**، ص316.

2- المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

العربية، وكان أكثر ما يعلل به أحكامه إفادة الخطاب والابتعاد عن اللبس في المعنى والتناسب في الألفاظ»[1] وبما أنّ ابن مالك اتّخذ السبيل الوسط في مختلف الآراء التي جاء بها، فهو في التعليل أيضا لم يذهب به المذاهب المختلفة، ولم يعتمد المغالاة في استنباط العلل، وإنّما جعل التعليل لأحكامه بالبحث عن المعنى الحقيقي بالابتعاد عن كل ما قد يفسده أو يغيّر معناه إلى معنى آخر، قد يؤدي إلى الوقوع في الخطأ، وتفسير الظواهر النحوية بغير معناها الأصلي الذي تحمله.

ويعد كتاب "الخلاصة" لابن مالك من أهم ما ألّف في القرن السابع الهجري فقد لقي شهرة واسعة النطاق، كتلك الشهرة التي لقيها "الكتاب" لسيبويه، الذي ظل ولوقت طويل يحتل مرتبة راقية من بين التآليف النحوية العديدة «لم يأت كتاب أفضل منه (الكتاب) ولا مؤلّف يتجاوزه علما، حتى القرن السابع الذي ظهر فيه ابن مالك بمنظومته المعروفة (الألفية)» [2] وقد وضع ابن مالك كتابه هذا بأسلوب سهل، يمكن لدارسي النحو فهم ما جاء فيه من قواعد نحوية تعسّر عليهم فهمها من قبل خاصّة من خلال "الكتاب" وعلى مرّ العصور بقيت الألفية محتفظة بشهرتها تدرّس في مختلف المعاهد، ويقبل عليها الدّارسون بحثا عن فهم أفضل واستيعاب أكبر لمختلف النظريات النحوية «سبعة قرون مرّت ومازلنا مع ابن مالك، ولنا أن نتساءل عن سر نجاح النموذج النحوي الذي اصطفاه هذا الإمام وما هي العوامل التي كتبت له الثبات والاستمرار، فقد يتبادر إلى الذهن أنها نتيجة منهجه العام في التحرر من القيود المذهبية وسعة باعه في اللّغة العربية، التي مد آفاق السماع فيها بالحديث وبمروياته الشعرية الكثيرة، مع سلامة ذوقه في الاختيار والتعبير، وتوخّي الوضوح والضّبط في المقاييس والأحكام في عمله»[3] إذ ومع مرور الوقت نجد أنّ ألفية ابن مالك مازالت تشهد انتشارا واسعا واهتماما بالغا من قبل الدارسين والمعلمين، تدرس في مختلف

1- محمد المختار ولد أباه، **تاريخ النحو العربي في المشرق والمغرب**، ص318.

2- صالح بلعيد، **الإحاطة في النحو**، دط. الجزائر: 1994، ديوان المطبوعات الجامعية، ص62.

3- محمد المختار ولد أباه، **تاريخ النحو في المشرق والمغرب**، ص316.

المعاهد والكليات، وتقوم عليها شروح وتعليقات، وقد ترجمت إلى لغات أجنبية عديدة منها ترجمة المستشرق بنتو إلى الفرنسية[1] فهذا النحوي الفذّ الذي أنجبتــه الأنــدلس، والذي عدّه كثير من العلماء المتميزيّن كانت له إسهامات كبيرة فــي تيســير النحــو وتسهيله على الدّارسين الذين سئموا تعقيده وصعوبة فهم قواعده فجعلوا ينفرون منــه ومن مغالاة علمائه في استنباط علله، إلاّ أنّ ظهور الألفية التــي نظمهــا صــاحبها خصّيصا لدارسي النحو ساهم كثيرا في عودة الحياة لهذا العلم.

3-8- ابن الضائع: (ت 680هــ) قال ابن الزبير: «بلغ الغاية فــي فــنّ النحو، ولازم الشلوبين، وفاق أصحابه بأسرهم، وقرأ ببلده أيضا الأصلين، وكــان متقدما في هذه العلوم الثلاثة، وأمّا العربية والكلام فلم يكن في وقته مــن يقاربــه فيهما، وأمّا فهمه وتصرفه في كتاب سيبويه فما أراه سبقه إلى ذلك أحد»[2] إذ لــم يختلف ابن الضائع عن نحاة عصره في قدرة استيعابه لكتاب سيبويه وغيره مــن الكتب النحوية المشرقية.

مؤلفاته: يقول السيوطي: «له في مشكلات كتاب سيبويه عجائــب...أملــى على إيضاح الفارسي وردّ اعتراضات ابن الطراوة عليه، واعتراضاته على سيبوبه وردّ على ابن عصفور معظم اختياراته، وله شرح الجمل، وشرح كتــاب ســيبويه جمع فيه بين شرحي السيرافي وابن خروف باختصار»[3] اهتم أغلب نحاة المغرب والأندلس بشرح كتاب سيبويه، وفي القرن السابع الهجري «انتهت الرياسة إلى أبي الحسن الإشبيلي المعروف بابن الضائع المتوفى سنة (680هــ) وقد شرحه (ويعني الكتاب) وكان له في مشكلاته عجائب»[4]

1- المرادي، **توضيح المقاصد والمسالك بشرح ألفية ابن مالك**، مقدمة التحقيق، ص48. بتصرف.

2- السيوطي، **بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة**، مج2، ص204.

3- المرجع نفسه، ص204.

4- مصطفى صادق الرافعي، **تاريخ آداب العرب**، ج3، ص316.

جاء في البغية: «وأمّا فهمه وتصرفه في كتاب سيبويه فما أراه سبقه إلى ذلك أحد»[1] كانت لابن الضائع آراء حول كتاب سيبويه وغيره من الكتب المشرقية الأخرى التي أبدع في إقرائها للطلاب في المغرب والأندلس.

منهجه: أخذ من «آراء المذاهب والنحاة، فأيّد البعض، وردّ على البعض الآخر فنراه يردّ على ابن عصفور ما ذهب إليه من أنّ لام المستغاث لأجله في مثل "يا لزيد لعمرو" متعلقة بفعل محذوف تقديره أدعوك لعمرو حتى لا تتعلق بالفعل النائبة عنه يا، لأنّه مسلّط على المستغاث باللاّم والعامل الواحد في رأيه لا يصل بحرف واحد مرتين. وأجاب ابن الضائع بأنّهما مختلفتان معنى، ولذلك يصحّ اتّصاله بهما كما في نحو "وهبت لك دينارا لترضى"»[2] كان ابن الضائع يوافق السهيلي في «وجوب التعاند في معطوفي "لا" مثل جاءني رجل لا امرأة»[3] ووافق ابن هشام الخضراوي في أنّ «لو التي للتمني في مثل لو تأتيني فتحدثني لا تحتاج إلى جواب كجواب لو الشرطية»[4].

كان ابن الضائع كغيره من نحاة المغرب والأندلس لغويا جليلا ونحويا مبرّزا، شرح كتاب سيبويه فجاء فيه بما أدهش غيره ممن شرحوه وكانت لهم عليه تعليقات سواء أكان ذلك في طريقة شرحه، أو طريقة تحليله واستنتاجاته، أو في طريقة تناوله لأبواب النحو المختلفة فاستحق بذلك، أن يكون نحوي عصره، لما بذله من جهود كبيرة في ميدان اللّغة والنحو.

4- نحاة آخرون: لم يقتصر النبوغ العلمي في المغرب والأندلس خلال القرنين السادس والسابع الهجريين على النحاة الذين سبقت الإشارة إليهم، وإنّما يوجد نحاة آخرون عنوا بعلم النحو وعلوم العربية، إلاّ أنّ إسهاماتهم لم تكن ذات

1- السيوطي، **بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة**، مج2، ص204.

2- شوقي ضيف، **المدارس النحوية**، ص318، ع/ ابن هشام الأنصاري، **مغني اللبيب عن كتب الأعاريب**، ص242.

3- المرجع نفسه، ص319، ع/ السيوطي، **همع الهوامع في شرح جمع الجوامع**، مج2 ص137.

4- نفسه، الصفحة نفسها، ع/ ابن هشام الأنصاري، **مغني اللبيب عن كتب الأعاريب**، ص295.

شأن كبير في هذا الميدان، باستثناء بعض المؤلفات، وبعض العلماء الذين تخرجوا على أيديهم.

ويمكن القول إنّ هذه الطائفة من النحاة كانت متمكّنة من علم النحو، لأنّ معظمهم قد درسوا على أيدي علماء بارعين كابن الطراوة والشلوبين وغيرهما ونذكر من بين هؤلاء ما يلي:

– **عبد الرحمن بن محمد بن عبد الرحمن بن عيسى أبو القاسم الأموي الاشبيلي النحوي المعروف بابن الرماك:** (ت541هـ) كان أستاذا في العربية مدقّقا قيّما بكتاب سيبويه، أخذ عن ابن الطراوة وابن الأخضر[1]

– **أحمد بن حسن السيد الجراوي المالقي أبو العباس:** (ت560هـ) من كبار النحاة والأدباء بالأندلس درس النحو والأدب كثيرا وكان شاعرا كاتبا بليغا روى عن ابن الطراوة، سار إلى مراكش فأدّب بني عبد المؤمن، فسما قدره وعظم صيته[2]

– **إبراهيم بن محمد بن منذر بن سعيد بن ملكون الحضرمي الاشبيلي أبو إسحاق:** (ت584هـ) قال ابن الزبير: أستاذ نحوي جليل، روى عنه ابن خروف والشلوبين وغيرهما ألّف شرح الحماسة[3].

– **قاسم بن علي بن محمد بن سليمان الأنصاري البطليوسي الشهير بالصفار:** (ت630هـ) جاء في البلغة: صحب الشلوبين وابن العصفور، وشرح كتاب سيبويه شرحا حسنا، يقال إنّه أحسن شروحه ويردّ فيه كثيرا على الشلوبين بأقبح رد[4]

– **أبو بكر بن يحي بن عبد الله الجذامي المالقي النحوي المعروف بالخفاف:** (ت657هـ) قرأ النحو على الشلوبين، وكان نحويا بارعا، ورجلا

1- السيوطي، **بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة**، مج1، ص86.

2- المرجع نفسه، مج2، ص302.

3- نفسه، مج1، ص431.

4- نفسه، مج2، ص256.

صالحا مباركا، صنّف شرح كتاب سيبويه شرح إيضاح الفارسي، شرح لمع ابـن جني، وينسب إليه الكتاب المجهول في الفقه على مذهب مالك، فإنّه وجد في كتبـه بخطه غير منسوب، فيرون أنّه من تصنيفه، ويقال: إنّه صنف شـرح الإيضـاح واللمع لصدر الدين وتقي الدين ابني القاضي تاج الدين، لأنّه كان منقطعـا إلـيهم وعليه قرأوا النحو بخطّه كثير من كتب النحو، مات بالقاهرة سنة سبع وخمسـين وستمائة[1]

– **أبو الحسين عبيد الله بن أحمد بن أبي الربيع السـبتي:** يقـول محمـد المختار ولد أباه: «مثال نموذجي للوحدة العلمية بين العدوتين، وقد قضى النّصـف الأوّل من حياته في مسقط رأسه اشبيلية، وبعد سقوطها عام (646هـ) انتقل إلـى سبتة فقضى بها بقية عمره»[2] كان عمدته في فنّ النحو الشلوبين، فقد كان كثيـر الاعتداد بآرائه والإشادة بعلمه وفضله، وقرأ عليه كتاب سيبويه.

تصدّر ابن أبي الربيع لتدريس النحو، وهو ما يزال غلاما يافعا بـأمر مـن شيخه الإمام الشلوبين الذي كان يبعث له بصغار الطلبة. له شـرح علـى كتـاب سيبويه وشرح على إيضاح الفارسي وشرح على جمل الزجاجي[3] هـذه الطائفـة وغيرها من النحاة برزت خلال القرنين السادس والسابع الهجـريين وكـان لهـا حضور قويّ في الميدان العلمي، سواء بالتدريس أو بالمؤلفات العديدة التي تمكّنوا من تأليفها في هذه الحقبة، إلاّ أنّ ما يبدو واضحا وجليّا من خـلال ترجمـاتهم أنّ المصادر لم تذكر إن كانت لهم آراء في النحو تفرّدوا بها، وما إذا كان لهم مذهب معيّن ينتمون إليه، سواء المذهب البصري، أو الكوفي أو البغدادي بعـد دخولهـا المغرب والأندلس.

1- السيوطي، **بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة**، مج1، ص473.

2- محمد المختار ولد أباه، **تاريخ النحو في المشرق والمغرب**، ص302.

3- المرجع نفسه، ص303. بتصرف.

تحدّثت كتب التراجم عن العديد من النحاة المغاربة والأندلسيين الذين عاشوا في الفترة الممتدة ما بين (500 و700هـ)، والتي كان فيها النحو العربي قد بلغ أوجّه، بفضل اهتمامهم الكبير به وبالكتب المشرقية الأولى التي ألفت فيه كالكتاب لسيبويه، الذي يعدّ الأصل الأوّل لهذا العلم وعليه بدأت الدراسات بالتعمق فيه بشرحه الشروح المختلفة، والتعليق عليه وحفظه من طرف العديد من النحاة سواء أكان ذلك في المشرق أو في المغرب والأندلس، ثمّ الكتب المختصرات وغيرها من المؤلفات التي كانت تميّز حلقات التدريس، التي كان يحضرها عامة الناس، إذ لم يكن العلم مقتصرا على فئة معينة كأبناء الخلفاء والأمراء والطبقات الراقية وإنّما كل من أراد التعلم كان له ذلك، فبرع العلماء من مختلف المستويات الاجتماعية التي كانت تعيش في المغرب والأندلس.

جدول رقم (05): أوجه التشابه والخلاف بين آراء نحاة المغرب والأندلس خلال القرن السابع مع نظرائهم في المشرق العربي.

أهم نحاة القرن السابع الهجري	منهجه	أوجه التشابه مع المشارقة	أوجه الخلاف مع المشارقة
أبو موسى الجزولي	- الانتقاء من آراء مختلف المدارس (البصرة الكوفة - بغداد) إضافة إلى بعض الآراء التي تفرد بها.	- كان ينتصر لرأي ابن السراج البصري إلى أنّه يجوز تقدم المفعول به على الفاعل إذا حصل لبس مثل: كلّم موسى عيسى. - كان يذهب مع أبي علي الفارسي إلى أنّ نون المثنى والجمع المذكر عوض عن	- يصح حذف نون الوقاية في من وعن فيقال: مني وعني بالتخفيف. - يرى أنه يجب أن يتحول المفعول الأول إلى نائب فاعل ولا تصح نيابة المفعول الثاني.

		الحركة والتنوين في المفرد.	
ابن خروف	- الانتقاء من آراء مختلف المدارس (البصرة الكوفة - بغداد) إضافة إلى بعض الآراء التي تفرد بها.	- كان يذهب مذهب سيبويه وأستاذه ابن طاهر وابن الباذش في أنّه لا يجوز حذف أحد مفاعيل أعلم وأرى بدون دليل.	- يرى أنّ عامل الحال في الجملة الاسمية هو المبتدأ نحو: "هو عليّ شاعرا". - إنّ موضع ما خلا في مثل: قام القوم ما خلا محمد نصب على الاستثناء مثل غير.
ابن معط	- الانتقاء من آراء مختلف المدارس (البصرة الكوفة - بغداد) إضافة إلى بعض الآراء التي تفرد بها.	- اتبع أهل البصرة في أن "إمّا" حرف عطف و أو، وإما فيهما مشهور الشك والإبهام والتخيير.	- منع تقديم خبر "مادام" على اسمها فقال: ولا يجوز أن تقدم الخبر على اسم مادام وجاز في الآخر.
الشلوبين	- الانتقاء من آراء مختلف المدارس (البصرة الكوفة - بغداد) إضافة إلى بعض الآراء التي تفرد بها.	- كان يحتج برأي سيبويه في أنّ النكرة أصل والمعرفة فرع قائلا: إنه نظر إلى حال الوجود إذ الأجناس هي الأول ثم الأنواع. - كان يأخذ برأي الرّماني في أنّ خبر	- كان يرى أنّ "إذا" في مثل: فبينما العسر إذا دارت مياسير ظرف زمان وعملها محذوف يدل عليه الكلام. - كان يذهب إلى أنّ "عيونا" في مثل: وفجّرنا الأرض عيونا

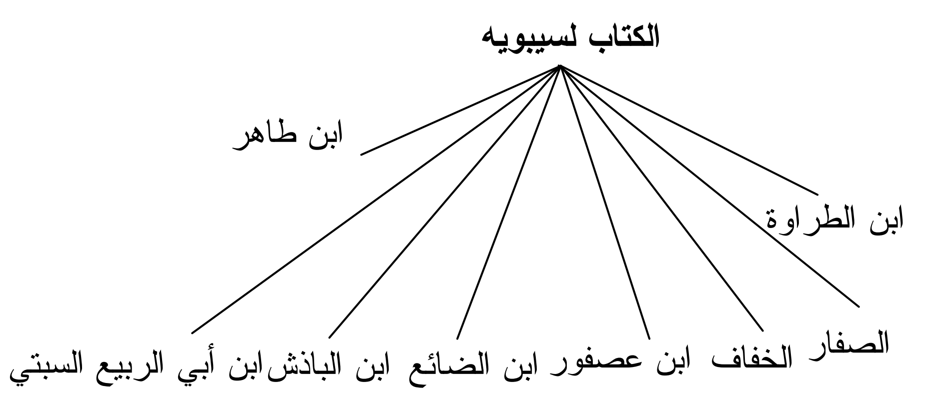
		المبتدأ بعد "لولا" إذا كان كونا عاما حذف وإذا كان كونا خاصّا وجب ذكره كما جاء في الأثر: لولا قومك حديثو عهد بالإسلام لهدمت الكعبة.	ليست تمييزا وإنّما هي حال.
ابن هشام الخضراوي	-الانتقاء من آراء مختلف المدارس (البصرة -الكوفة بغداد) إضافة إلى بعض الآراء التي تفرد بها.	- وافق الكوفيين في تثنية المركب المزجي مثل: بعلبك وجمعه.	- كان يذهب إلى أنّ "لو" التي للتمني في مثل: لو تأتيني فتحدثني ليست شرطية وإنّما هي قسم برأسها ولا تحتاج إلى جواب كجواب الشرط، ولكن قد يؤتى لها بجواب منصوب كجواب ليت. - كما ذهب إلى أنّ "حتى" العاطفة يتحتم أن يكون معطوفها ظاهرا لا مضمرا، كما أنّ ذلك شرط مجرورها.
	- الانتقاء من آراء مختلف المدارس (البصرة الكوفة- بغداد) إلا	-كان يرى رأي سيبويه في أنّ "لام المستغاث" في مثل: يا لزيد متعلقة بفعل	

ابن عصفور	أنه كان يميل كثيرا إلى آراء البصرة.	النداء المحذوف لا بيا كما ذهب إلى ذلك المبرد. - كان يذهب مذهب الأخفش في أن "إنّ" يجوز فيها الكسر والفتح إذا تلت مذ ومنذ مثل: ما رحلت إلى هذا البلد مذ أو منذ أنّ الله خلقني.	

5-أهم ما ميّز نحاة القرن السادس عن نحاة القرن السابع الهجريين: لم يتميّز نحاة القرن السادس عن أصحابهم في القرن السابع الهجريين في كثير من الأمور، إذ لم يقتصر علم معظمهم على النحو فقط، وإنّما اهتموا بمختلف العلوم فقد كانوا أئمة في اللّغة والنحو كما اهتموا بالحديث والفقه والأصول والآداب والتفسير والشعر، وغيرها من علوم العربية التي كانت من أبرز اهتماماتهم.

أخذ بعضهم النحو عن بعض فابن خروف مثلا أخذ عن ابن طاهر، كما أخذ ابن معط عن الجزولي وابن هشام الخضراوي عن ابن خروف، وابن عصفور وابن الضائع عن الشلوبين.

توجّه معظمهم إلى شرح كتاب سيبويه، فقد تعرّض ابن الطراوة لبعض آرائه بالنقد، وكانت لابن طاهر طُرر عليه، كما شرحه أيضا كلّ من ابن الباذش ابن خروف، الصفار، ابن الحاج الشلوبين، ابن الضائع وابن أبي الربيع السبتي والخفاف، كما نالت الكتب المختصرات نفس الاهتمام. وهذا رسم بياني نبين فيه أهم شرّاح "الكتاب" لسيبويه:



لم يكن الاستشهاد بالحديث الشريف مقتصرا على نحاة قرن معيّن، وإنّما احتجّ به ابن الطراوة والسهيلي في القرن السادس، وابن خروف وابن مالك في القرن السابع، لكن هذا الأخير أكثر من الاستشهاد به حتى أصبح اسمه مقترنا بالحديث الذي امتنع معظم النحاة في المشرق والمغرب والأندلس عن الاحتجاج به.

إلاّ أنّنا نجد بعض الفروق التي ميّزت نحاة قرن عن آخر، فابن مضاء القرطبي الذي ظهر خلال القرن السادس قلب الموازين جميعها في علم النحو حيث أدخل المذهب الظاهري إلى هذا العلم واتبع بذلك سبيل ابن حزم، الذي كان قد طبّق هذا المذهب في الفقه، كما نجد السهيلي أيضا في القرن السادس أكثر من التعليل والاستنباط، وبالغ في استخراج العلل الثواني والثوالث إلى أن وصل إلى السوادس متأثّرا في ذلك بالأعلم الشنتمري الذي كان شغله الشاغل هو استنباط العلل التي كان يرى أنّها مهمّة لا يمكن لطالب النحو الاستغناء عنها.

ثمّ نجد من بين نحاة القرن السابع الهجري ابن عصفور، الذي لم يعرف عنه غير النحو، إلاّ أنّ ما ميّزه أكثر هو ردّه الاعتبار لعلم الصّرف، الذي صنّف فيه كتابه "الممتع في التصريف" وكان بذلك الوحيد الذي ألّف مصنفا خاصا بهذا العلم.

ومن الأمور التي ميّزت نحاة القرن السابع عن السادس بروز ظاهرة نظم القواعد النحوية التي كان ابن معط السّباق إليها بنظمه "الدرة الألفية" ثمّ جاء بعده

ابن مالك، الذي نظم أيضا خلاصته التي ذاع صيتها، واشتهرت في مختلف الأقطار العربية وحتى الغربية، وكتب لها النجاح بالاهتمام الكبير الذي أولاه لها النحاة، منذ أن ألّفت وإلى غاية عصرنا الحاضر.

كانت هذه المسائل أهم ما ميّز نحاة القرن السادس عن نحاة القرن السابع الهجريين في المغرب والأندلس، لكن ما يمكن قوله هو أنّ النحو العربي قد لاقى إقبالا واسعا من طرف العلماء في هذين القطرين، منذ أن دخل كتاب الكسائي إليهما، ثمّ بعده كتاب سيبويه.

ولئن كان علم النحو العربي من أهمّ العلوم التي تفنّن النحاة في درسها وتدريسها، فإنّ إنتاجهم من المؤلّفات والمصنّفات قد فاق كلّ التصورات خلال هذين القرنين، اللذين نبغ فيهما أهّم النحاة الذين بقيت آثارهم تُدرس وتُدرّس، كما وجدت آراؤهم النحوية التي جاءوا بها آذانا صاغية تأخذ بها وتنتصر لها.

الفصل الثالث

أثر نحاة المغرب والأندلس
في النحو العربي

مدخل:

استطاع نحاة المغرب والأندلس أن يختطّوا لأنفسهم طريقا يبعد إلى حدّ ما عن التأثير المشرقي، إذ يمكن القول إنّ القرنين السادس والسابع الهجريين يمثلان قمّة ازدهار النشاطين النحوي واللّغوي، فقد اعتمد معظمهم على منهج الانتقاء من آراء المذاهب المختلفة: البصرة، الكوفة وبغداد. فعرفوا استقلالا في البحث والتأليف، وكان إنتاجهم العلمي وفيرا، ليس في علم النحو فقط، وإنّما في مختلف الميادين، التي دأبوا على البحث فيها خاصّة العلوم الدينية واللغوية، التي تفانوا في دراستها من أجل خدمة اللّغة العربية وترقيتها.

لقد كانت مؤلّفاتهم العديدة في النحو، وغيره من العلوم وفيرة ممّا أكسبهم فضلا كبيرا على التراث العربي، فقد كان إنتاجهم الكبير تعويضا لما فقده المشرق من علوم ومعارف حين تهاوت الخلافة الإسلامية، فبحلول القرن السادس الهجري اعتمد نحاة المغرب والأندلس على أنفسهم بشكل يثير الإعجاب، فدرسوا ودرّسوا وألّفوا كتبا دوّت بشهرتهم في الآفاق وقبل نفس القرن (السادس الهجري) «ظهر في الأندلس نحاة استقلوا عن المشرق، وأظهروا شخصية للنحو الأندلسي، لا تقل عن شخصيته في المشرق»[1] اعتمد نحاة المغرب والأندلس بشكل أساسي على المشرق، حين بدأوا يشتغلون بعلم النحو، ولكن بمرور الوقت حاولوا تغيير نظرة النحاة المشارقة إليهم على أنّهم تابعون لهم، فكان هدفهم أن يضيفوا إلى النحو جديدا يمكّنهم من القول إنّ لهم آراء اجتهادية خاصّة بهم، بعيدة عن التأثير المشرقي في هذا العلم وقد تمثّلت هذه الآراء خاصّة في ثورة ابن مضاء القرطبي الكبيرة على نظرية العامل النحوي، والمطالبة بإلغائه، وابن مالك الذي كان يدعو إلى تيسير النحو وذلك في كتابه "التسهيل" وفي نظم ألفيته أيضا، أمّا أبو علي الشلوبين فقد عرض في كتابه "التوطئة" أهمّ مناهج تسهيل النحو، وتخفيف أعبائه وتذليل الصعوبات التي عقّدته، وجعلت الدارسين ينفرون منه.

1- عبد القادر رحيم الهيتي، **خصائص مذهب الأندلس النحوي خلال القرن السابع الهجري**، ص37.

لكن ما يبدو واضحا وجليّا هو أنّ نحاة المغرب والأندلس، اعتمدوا بشكل كبير على مذهب البصرة وكتاب سيبويه سواء في تدريسهم أو في كتب النحو التي ألّفوها، إلاّ أنّهم لم يهملوا آراء مذهب الكوفة وبغداد، خاصّة في موضوع التيسير «لكنّهم لا يخضعون خضوعا كاملا للنحو المشرقي، بل يضيفون إليه ما يتوصّلون هم إليه»[1] فعلى الرغم من اعتمادهم الكبير على كتاب سيبويه، فإنّ ذلك لم يمنعهم من اعتماد آراء أخرى من مذهب الكوفة وبغداد لكنهم لم يكونوا مخلصين كل الإخلاص لهذه المذاهب وإنّما كانوا ينتقدون بعضها، ويخالفون بعضها الآخر حتى أنّ كتاب سيبويه، الذي اعتبره القدامى قرآن النحو، لم تسلم بعض آرائه من النقد «رغم أنّ النحويين الأندلسيين الأوائل كانوا أكثر إقبالا على الكوفة بسبب إقبالهم على القراءات، فإنّ كتاب سيبويه احتلّ عندهم مكان الصدارة، من حيث الدرس والحفظ والشرح، والتعليق عليه، فشرحه عدد كبير، منهم: أبو بكر الخشني، ابن الطراوة، ابن خروف وابن الباذش وابن الضائع وغيرهم»[2] لقد نال كتاب سيبويه من الشهرة في المغرب والأندلس ما ناله في المشرق العربي، نظرا لأهميّته الكبيرة، بسبب احتوائه على جميع أبواب النحو وقواعده زيادة على أنّه أوّل كتاب يؤلّف في النحو، فقد اعتُمد أصلا من أصول النحو يعود إليه كل نحوي راغب في درس وتأليف كتاب في هذا الميدان، إذ ورغم معارضة ونقد كثير منهم لبعض آرائه فإنّهم يضطرّون دائما إلى العودة إليه لأنّه كتاب شامل لجميع ما قيل في النحو العربي، وبعد دخوله إلى المغرب والأندلس سارع النحاة إلى احتضانه والاهتمام به فتركوا كتب النحو الكوفي جانبا الّتي كان لها السبق في دخول هذه البلاد على يد جودي بن عثمان الموروري.

1- عبده الراجحي، **دروس في المذاهب النحوية**، دط. مصر: 1992، دار المعرفة الجامعية ص216.

2- المرجع نفسه، ص215.

1- تأثير كتاب سيبويه في نحاة المغرب والأندلس: كان كتاب سيبويه، ولا يزال أهمّ ما كتب في النحو العربي، منذ نشأته الأولى على يد أبي الأسود الدؤلي (ت69هـ) الذي كان له الفضل في ظهور هذا العلم، إذ ساهم بشكل كبير في الحفاظ على سلامة اللّغة العربية، والقرآن الكريم من اللّحن، هذه الظاهرة التي شاعت بسبب دخول الأعاجم في الإسلام، ومن العرب أنفسهم لاسيما الذين كانوا يسكنون الحدود مع الفرس، وغيرهم من الأمم المجاورة، التي لم تكن تعرف من العربية غير اسمها.

أثار كتاب سيبويه ضجّة كبيرة لدى جمهور النحاة في عصره وفيما بعد فانكبّوا عليه بالشرح والتعليق، وبقوا على تلك الحال حتى انتقل النحو إلى المغرب والأندلس «لكن الهمم لم تنصرف إلى استظهاره إلاّ في القرن الخامس، كأنّهم جعلوا ذلك منافسة... ومن ذلك الوقت ابتدأوا يقرؤونه ويشرحونه، ويملون عليه التعاليق»[1] فأصبح الاهتمام به وبشرحه بالغا لأنّ النحو في المغرب والأندلس بدأ يعرف طريقه إلى التطور ابتداء من القرن الخامس الهجري، أمّا القرنان السادس والسابع الهجريان فقد ظهر خلالهما ألمع النحاة وأجلّهم، فساروا على نهج علماء ونحاة المشرق في الاهتمام بكتاب سيبويه، نذكر من بينهم:

1-1- ابن الطراوة: صاحب كتاب يسمى "المقدمات إلى علم الكتاب، وشرح المشكلات على توالي الأبواب"، وهذا الكتاب كما يقول محمد إبراهيم البنا: «ليس هو شرحا لكتاب سيبويه ولكنّه يشتمل على مسائل تعرّف بمنهجه، وتحلّ مشكلاته وكأنّه جعله مدخلا للذين يريدون أن يدرسوا "الكتاب" دراسة فقه وإمعان، على أنّه يبدو أنّ ابن الطراوة لم يقصر كتابه على هذه الغاية، بل كان معنيا إلى ذلك ببيان آرائه ما خالف فيها سيبويه أو غيره»[2] عني ابن الطراوة في هذا المؤلف بشرح منهج سيبويه في تأليفه للكتاب، وشمل على مسائل تحلّ مشكلاته

1- مصطفى صادق الرافعي، **تاريخ آداب العرب**، ج3، ص315.

2- محمد إبراهيم البنا، **ابن الطراوة وأثره في النحو**، ص47.

المعقّدة يساعد فيها الدارسين المهتمين به وبفهمه إلاّ أنّه تعرّض فيه إلى ذكر آرائه أيضا، وهي التي خالف فيها سيبويه وغيره من النحاة إضافة إلى تفرّده ببعض الآراء التي خالف فيها جمهور النحاة من المشرق والمغرب والأندلس.

1-2- ابن الباذش: كانت لابن الباذش شروح كثيرة على مختلف المصنّفات المشرقية والمغربية، إذ يقول عنه القفطي في إنباه الرواة: «صنّف شروحا على كتب مختلفة للبصريين والبغداديين مثل كتاب سيبويه وكتاب المقتضب للمبرد، شرح أصول ابن السراج، شرح الجمل للزجاجي، شرح الإيضاح للفارسي، شرح الكافي للنحاس»[1] غير أنّ أهم كتاب قام بشرحه هو كتاب سيبويه، الذي يعدّ الأصل الأوّل لعلم النحو، وعليه أقام النحاة مختلف قواعدهم ونظرياتهم.

1-3- ابن طاهر: درس معظم نحاة القرنين السادس والسابع الهجريين كتاب سيبويه، فكان هناك من اهتم بشرحه والتعليق عليه، ومن اهتمّ بتدريسه فقط مثل ابن طاهر إذ أنّه «اشتهر بتدريسه للكتاب وله عليه حواش اعتمدها تلميذه ابن خروف في شرحه للكتاب»[2] كان اهتمام ابن طاهر بكتاب سيبويه منصبّا على كيفية شرحه، وفهم ما جاء فيه من أجل إدراك الدارسين واستيعابهم لقواعد النحو التي جاءت فيه، والتي تعدّ أساس هذا العلم وعليه بُني.

1-4- ابن خروف: شرحه لكتاب سيبويه يسمى «تنقيح الألباب في شرح غوامض الكتاب»[3] حاول فيه حلّ بعض المسائل الغامضة التي تعسّر فهمها على الدارسين، وقد اعتمد ابن خروف في تأليف كتابه على شرح أستاذه ابن طـــاهر الذي لم يبخل على تلاميذه بما لديه من معارف، مكّنت ابن خروف من فهم كتاب سيبويه، وشرحه فيما بعد.

1- القفطي، **إنباه الرواة على أنباه النحاة**، مج 2، ص227.

2- شوقي ضيف، **المدارس النحوية**، ص298.

3- خالد عبد الكريم جمعة، **شواهد الشعر في كتاب سيبويه**، ص68.

1-5- ابن عصفور: يقول عنه السيوطي: «له من التصانيف: المقرب وشرحه ــ شرح الجزولية- ثلاثة شروح على الجمل ــ وشرح كتاب سيبويه...» [1] فقد تميّز في شرحه وخالف جمهور النحاة ممّن سبقه إلى شرح هذا الكتاب سواء أكان ذلك في طريقة تناوله لآراء سيبويه، أو في نقدها والتعليق عليها.

1-6- ابن الضائع: أمّا ابن الضائع، فيقول عنه السيوطي في البغية : «وله في مشكلات كتاب سيبويه عجائب وقد جمع فيه بين السيرافي وابن خروف باختصار»[2]

ويقول فيه أيضا: «وأمّا فهمه وتصرّفه في كتاب سيبويه، فما أراه سبقه إلى ذلك أحد»[3] هؤلاء الشرّاح الذين اهتموا بكتاب سيبويه، كان لهم في مسائل النحو شؤون، وفي قواعده تخريجات برعوا في شرح الكتاب والتعليق عليه، وساهموا في تسهيله وتيسيره على الدارسين، الذين رأوا أنّ تعقيدا وإبهاما يطغى عليه، ممّا ساعد وشجّع على النفور منه، ومن النحو عامة. لأنّ النحو العربي يعتمد أساسا على كتاب سيبويه، وبعض المختصرات، مثل كتاب "الإيضاح" للفارسي، "الجمل" للزجاجي و"أصول" ابن السراج وغيرها من المختصرات.

2- خصائص النحو في المغرب والأندلس: انتقل النحو المشرقي إلى المغرب والأندلس كغيره من العلوم اللغوية والدينية الأخرى، واهتمّ به العلماء أكثر من غيره، لأنّ اللّغة العربية تحيا بفضله واهتمام العلماء به يعني الاهتمام باللّغة العربية والقرآن الكريم.

انتشر النحو العربي بمختلف مذاهبه المشرقية في المغرب والأندلس، وبلغ قمّة تطوّره وازدهاره خلال القرنين السادس والسابع الهجريين، بسبب كثرة مريديه، الذين تمكّنوا منه ومن أصوله، وخرجوا عن مناهج المشارقة إلى مناهج

1- السيوطي، **بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة**، مج2، ص210.

2- المرجع نفسه، مج2، ص204.

3- نفسه، الصفحة نفسها.

خاصّة بهم، فكانت لهم آراء وتخريجات، فهذا المقري يرى أنّ «النحو الأندلسي بلغ قمّته في القرن السابع الهجري، وأنّ نحاته أصبحوا يضاهون أئمة النحو في المشرق»[1] تمكّن نحاة المغرب والأندلس من فرض أنفسهم في علم النحو، لأنّ اهتمامهم الكبير به جعل منهم نحاة من الدرجة الأولى فتمكّنوا من فرض آراءهم المختلفة، سواء كانت آراء اجتهادية خاصّة بكل نحوي أو انتقادات لآراء بعض نحاة المشرق، فأصبح النحو بذلك يتميّز عندهم بخصائص، غير التي تميّز بها عند غيرهم، نذكر منها: كثرة استشهادهم بالحديث النبوي الشريف، واتّجاههم إلى تيسير النحو، إضافة إلى استحداثهم مدرستين نحويتين.

2-1-استشهادهم بالحديث الشريف:

أ – أسبابه:

أ-1- التحديد الزمني للاستشهاد بكلام العرب: حدّد علماء النحو العربي عصر الاستشهاد بكلام العرب بنهاية القرن الثاني الهجري بالنسبة إلى الحضر وأواخر القرن الرابع الهجري بالنسبة إلى البدو، وعندما جاء نحاة الأندلس في القرنين السادس والسابع الهجريين، لم يجدوا أمامهم غير الحديث النبوي الشريف الذي رفضه المشارقة «جاء نحاة القرن السابع، ولم يكن أمامهم مجال للرّواية عن العرب المعاصرين لهم، وذلك نتيجة لتحديد فترة الاستشهاد بكلام العرب شعرا ونثرا»[2] احتج نحاة المغرب والأندلس بالحديث الشريف وكان بالنسبة إليهم منبعا مهمّا من منابع الاحتجاج، لأنّه كلام أفصح العرب كلام المصطفى صلى الله عليه وسلم، حتى وإن كان قد روي بالمعنى، لأنّ هذا لا يعني فساد لغته، لأنّ رُواته لم

1- المقري، **نفخ الطيب من غصن الأندلس الرطيب**، تح: إحسان عباس، دط. بيروت: 1988، دار صادر، مج1، ص206.

2- عبد القادر رحيم الهيتي، **خصائص مذهب الأندلس النحوي خلال القرن السابع الهجري** ص177، ع/ حسن عباس، **اللّغة والنحو**، ص24.

يكونوا إلاّ عربا خُلّصا، سواء كانوا من أصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم، أو ممّن عاش بعدهم بفترة زمنية قصيرة.

أ-2- انتشار المذهب المالكي في المغرب والأندلس: جاء في المعجب: «حاول الموحدون فرض مذهب أهل الظاهر في الأندلس، لكن كثيرين تمسّكوا بمذهب الإمام مالك، وكان هذا المذهب يعتمد اعتمادا كبيرا على الحديث النبوي الشريف حتى لقب بمذهب أهل الحديث»(1)

وجاء في مقدمة ابن خلدون أنّ مالكا رحمه الله تعالى «اختُصّ بمذهبه أهل المغرب والأندلس وإن كان يوجد في غيرهم، إلاّ أنّهم لم يتقلدوا غيره إلاّ في القليل»(2)

ويقول عبد الكريم بكري: «ظلّ المذهب المالكي سيّدا في المغرب والأندلس على الرُّغم من مزاحمة بقية المذاهب له، إذ ظلّ المغاربة مالكيين لا تؤثر فيهم المذاهب المستجدّة الوافدة، إلاّ في القليل الذي لا يعتدّ به»(3)

ويقول محمد عيد أيضا: «ظلّ المذهب المالكي منفردا في الأندلس والمغرب دون منازع حتى جاء القرن الخامس الهجري، وفيه كان ابن حزم الظاهري (ت456 هــ)، وقد نشأ أوّلا شافعيا، ثم انتقل إلى مذهب الظاهرية، فأرسى دعائم مذهب الظاهر، ووطّد أركانه، وتعرّض في سبيله للأذى والنفي»(4) فمن خلال هذه الأقوال نرى أنّ المغاربة والأندلسيين لم يستغنوا عن مذهب الإمام مالك على الرُّغم مما جدّ عندهم من مذاهب سواء كانت المذاهب الثلاثة المتبقية: مذهب الإمام حنبل -مذهب الإمام الشافعي- ومذهب الإمام أبي حنيفة، أو المذهب الظاهري الذي جاء

1- عبد القادر رحيم الهيتي، **خصائص مذهب الأندلس النحوي خلال القرن السابع الهجري**، ص177،ع/ المراكشي، **المعجب في تلخيص أخبار العرب**، ص203.

2- ابن خلدون، **المقدمة**، دط. بيروت: دسنة، دار الجيل، ج1، ص497.

3- عبد الكريم بكري، **أصول النحو العربي في ضوء مذهب ابن مضاء القرطبي**، ص38.

4- محمد عيد، **أصول النحو العربي في نظر النحاة ورأي ابن مضاء وضوء علم اللّغة الحديث** دط. القاهرة: 1989، عالم الكتب، ص27.

به ابن حزم الأندلسي والذي أعاد القول بظاهر النصوص بالرجوع إلى الكتاب والسنة، دون البحث في استنباط واستخراج العلل.

لكن دفاع ابن حزم الشديد عن المذهب الظاهري، وظهور ابن مضاء من بعده ليدعو أيضا إلى الأخذ بظاهر النصوص في النحو العربي، وليس في الفقه لم يغيّر من تمسّك المغاربة والأندلسيين بمذهب الإمام مالك، إلاّ القليل النادر، الذين تأثّروا بالمذهب الظاهري.

استشهد نحاة المغرب والأندلس بالحديث النبوي الشريف، وكان ذلك نتيجة تأثّرهم بمذهب الإمام مالك، الذي لم يكن يعتمد في الاستشهاد بكلام العرب والقرآن الكريم فقط، الذي رفضه الكثير بحجة أنّه مروي بالمعنى وليس كما جاء على لسان الرسول صلى الله عليه وسلم.

أ-3- اهتمام نحاة المغرب والأندلس بالحديث الشريف: كان أهل العلم في المغرب والأندلس شديدي الاهتمام بالاحتجاج بالحديث النبوي الشريف لأنّ نحاة المشرق لم يولوه المكانة المناسبة من جهة، ومن جهة أخرى ليخالفوا مناهجهم، فقد اعتبروه «منبعا من منابع الثقافة للعالم الإسلامي وخاصّة لأهل المغرب والأندلس»[1] اعتمدوا عليه اعتمادا كبيرا محاولين بذلك الإتيان بالجديد، غير الذي تعودوا عليه من خلال ما وصلهم، أو ما تعلّموه من المشارقة.

أ-4- عدم تمكّنهم من مشافهة الأعراب: كان لبعد المسافة بين المشرق والمغرب أثر كبير في نفسية المغاربة والأندلسيين «وذلك نتيجة لتوقّف الاستشهاد بكلام العرب وتحديده بفترة زمنية معينة، ولبعد نحاة الأندلس عن مناطق الأعراب الذين كان نحاة المشرق القدماء يأخذون عنهم»[2] فهم ليسوا عربا ونظرا لتأخّر دخول الإسلام والعربية إلى بلادهم لم يعرفوا العرب الخلّص لا في الجاهلية ولا

1- عبد القادر رحيم الهيتي، **خصائص مذهب الأندلس النحوي خلال القرن السابع الهجري** ص171.

2- المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

في الإسلام، هؤلاء الأعراب تمكّن بعض النحاة المشارقة من العيش معهم والاحتكاك بهم وأخذ العربية الفصيحة عنهم للاستشهاد بها، ممّا حزّ في نفوس علماء المغرب والأندلس، ولم يجدوا أمامهم غير الحديث الشريف، الذي لم يستخدمه النحاة المشارقة إلاّ القليل النادر منهم، كبديل لهم عمّا حرموا منه من مشافهة الأعراب والأخذ عنهم لأنّ الحديث الشريف، وإن روي بالمعنى، فإنّ رواته كانوا يتميّزون بالفصاحة، لأنّ معظمهم عاش في زمن الرسول صلى الله عليه وسلم أو بعده بقليل.

ب- أهمّ النحاة الذين استشهدوا بالحديث: اهتمّ نحاة المغرب والأندلس بالنحو العربي للأسباب التي سبق ذكرها، فكانت لهم إسهامات كبيرة في مجال النحو واللّغة، بفضل العناية الكبيرة التي أولوها له، وبفضل الجهود الكبيرة التي بذلوها، والآراء الاجتهادية التي تميّزوا بها، والجديد الذي جاءوا به في مجال النحو وهو الاحتجاج بكلام المصطفى صلى الله عليه وسلم، والذي رفضه معظم نحاة وعلماء المشرق العربي، الذين فضلوا الاستشهاد بكلام العرب شعره ونـــثره والقرآن الكريم واستبعدوا الحديث الشريف بحجّة أنّه مروي بالمعنى، فمن أهم النحاة الذين استشهدوا بالحديث الإمام السهيلي ابن خروف وابن مالك، فالإمام السهيلي مثلا ارتبط اسمه بالكتاب الذي ألّفه في ذكر أخبار المصطفى صلى الله عله وسلم والذي سماه "الروض الأنف"، وكان الحديث الشريف مصدرا مهمّا للاستشهاد بالنسبة إلى الإمام السهيلي.

يقول ابن الضائع: «وابن خروف يستشهد بالحديث كثيرا، فإن كان على معنى الاستظهار والتبرك بما روي عنه صلى الله عله وسلم فحسن، وإن كان يرى أنّ من قبله أغفل شيئا وجب عليه استدراكه فليس كما أرى»(1) إذ يعدّ ابن خروف من نحاة الأندلس النابغين، والذين كانت لهم آراء في النحو تفرّدوا بها ومن

1- السيوطي، **الاقتراح في علم أصول النحو**، تح: محمود سليمان ياقوت، دط. مصر: 2006، دار المعرفة الجامعية، ص54.

المهتمين بكتاب سيبويه وشرحه، إلاّ أنّه خالف مذاهب الأوّلين ونحاة عصره أيضا في كثرة الاستشهاد بالحديث النبوي الشريف.

أمّا ابن مالك فقد كان من طبقات الشافعية، بعد أن كان على مذهب الإمام مالك قبل أن يرحل إلى المشرق، وكان محدثا «روى له السيوطي بعض الأحاديث ولعل كتابه "شواهد التوضيح والتصحيح لمشكلات الجامع الصحيح" أقوى دليل على اهتمامه بالحديث»[1]

وقد سبقت الإشارة إلى اهتمام ابن مالك بالحديث الشريف من خلال منهجه الذي انفرد به عن كثير من النحاة خاصّة من المشارقة الذين عاصرهم وعاش معهم، فقد كان معظمهم ممّن ينفر من الاحتجاج بالحديث مقتدين في ذلك بعلماء اللّغة والنحو الأوائل الذين أثروا الاستشهاد بكلام العرب شعره ونثره، والقرآن الكريم مستبعدين الحديث الشريف، غير أنّ هناك من النحاة من يظهر من حين لآخر، ويخرج عن العرف اللغوي المتعارف عليه، ويحتجّ بكلام الرسول صلى الله عليه وسلم، فالإمام السهيلي وابن خروف وابن مالك جعلوا من الاستشهاد بالحديث ميزة تبعدهم عن التبعية للمشارقة في علم النحو فكانت لهم آراؤهم الخاصّة بهم في هذا الجانب الذي اعتبر دائما من العلوم اللغوية العربية التي لا يمكن لغير العرب فهمها والإبداع فيها.

اهتمّ نحاة المغرب والأندلس خلال القرنين السادس والسابع الهجريين بالنحو العربي أكثر من العلوم العربية الأخرى، فأبدعوا من خلال ما ألّفوه من كتب ومصنفات، أصبح المشارقة يعتمدون عليها بعدما أدركوا تميّزها وتفوّق مؤلفيها على العراقيل والصعوبات التي واجهتهم، من ظروف سياسية متقلبة ومحاولات النصارى المتكررة لاستعمار بلدانهم، أضف إلى ذلك اللّغة العربية التي لم تكن لغتهم الأصلية.

1- المقري، **نفخ الطيب من غصن الأندلس الرطيب**، مج2، ص286.

2-2- اتجاههم إلى تيسير النحو:

أ- تيسير النحو عند القدماء والمحدثين: المراد بالتيسير هو: «تبسيط الصورة التي تعرض فيها القواعد على المتعلم، أي التبسيط في كيفية تعليم النحو لا في النحو نفسه، لأنّه علم محض، ولا يعقل حذف بعض قوانينه وعلله»[1] فصعوبة النحو تكمن في كيفية تعليمه لا في قواعده، وتيسيره يعني تسهيل طريقة عرضه وتدريسه على الطلاب، فقد تعقد أكثر بغلو النحويين في مزجه بالفلسفة والمنطق. وفكرة تيسير النحو لم تكن خاصّة بعلماء ونحاة المغرب والأندلس كابن مضاء وابن مالك مثلا، وإنّما هي وليدة القرون الأولى من نشأته، فقد روي أنّ أسلوب الأخفش كان غريبا معقدا وغير مفهوم، وقد لامه الجاحظ على ذلك، ودعاه إلى تبسيطه وتسهيله فقال: «أنا رجل لم أضع كتبي هذه لله وليست هي من كتب الدين ولو وضعتها هذا الوضع الذي تدعوني إليه، قلّت حاجتهم إليّ فيها وإنّما كانت غايتي المنالة وما كسبت في هذا التدبير إذ كنت إلى التكسّب ذهبت»[2] نرى أنّ الدعوة إلى التيسير لم تكن وليدة القرون المتأخرة، وإنّما هي قديمة قدم هذا العلم فالجاحظ (ت 255هـ) عندما دعا الأخفش (ت213هـ) إلى تبسيط طريقته في تناول المسائل النحوية كان يدرك تماما أنّه تمادى في تعقيدها، ومن المستعصي على الدارسين فهمها بسهولة، إلاّ أنّ الأخفش رفض ذلك بدعوى أنّه تعمّد التعقيد بحجة أنّ علمه ليس في متناول الجميع، ولكي يفهموه يجب أن يعودوا إليه ويطلبوا شرحه وتبسيطه.

1- التواتي بن التواتي، "**هل النحو العربي في حاجة إلى تيسير؟**"، مجلة اللسانيات، الجزائر: 2003، مركز البحوث العلمية والتقنية لترقية اللّغة العربية، ع8، ص3.

2- الجاحظ، **الحيوان**، تح: عبد السلام محمد هارون، ط3. بيروت: 1969، دار الكتاب العربي ج1، ص91-92.

وكان أبو علي الفارسي (ت 377هـ) أيضا ينكر على الرماني غلوّه في مزج النحو بالفلسفة إذ يقول: «إن كان النحو ما يقوله أبو الحسن الرماني فليس معنا منه شيء وإن كان النحو ما نقول فليس معه منه شيء»[1]

ويقول أبو البركات ابن الأنباري: «كنّا نحضر عند ثلاثة مشايخ من النحويين فمنهم من لا نفهم من كلامه شيئا، ومنهم من نفهم بعض كلامه دون البعض ومنهم من نفهم جميع كلامه، فأمّا من لا نفهم من كلامهم شيئا فأبو الحسن الرماني، وأمّا من نفهم بعض كلامه دون البعض فأبو علي الفارسي، وأمّا من نفهم جميع كلامه فأبو سعيد السيرافي»[2] نلاحظ أنّ نحو الرماني لم يكن يفهمه كثير من الدارسين فليس أبو علي الفارسي وحده من أنكر عليه الغلو في التعقيد، وإنّما غيره كثير، أمّا أبو علي الفارسي فلم يكن ممّن يغالون كثيرا، ولم يكن من الميسرين أيضا وإنّما كان يحاول توصيل علمه إلى الدارسين بطرائق لم يكن لهم بها أن يفهموا ما يقول، إلاّ أنّ ذلك لا يحدث دائما، وإنّما يفهمون بعضه، ولا يفهمون بعضه الآخر، أمّا أبو سعيد السيرافي فكان غاية في الفهم والتيسير، فقد كان كل كلامه مفهوما وكل قواعده سهلة ميسرة يفهمها ويدركها الجميع، لأنّه اعتمد على السهولة في توضيح مسائله النحوية واللّغوية، رغم أن القواعد واحدة.

على الرغم من نضوج واكتمال علم النحو العربي، وبروز العديد من النحويين الذين برعوا في دراسته وتدريسه، من خلال الحلقات التي كان يرتادها الكثير من الدارسين، ومن خلال المؤلفات الضخمة التي صنفوها في هذا العلم إلاّ أنّه «مع ذلك لا يخلو من تعقيدات جمة تشكل عقبات أمام الطلاب والدارسين، وقد لازمت هذه الصعوبات تدريس النحو في العقود الأولى، فكان يقال لمن أراد قراءة كتاب سيبويه "هل ركبت البحر؟" كناية عما تحتاج إليه هذه الدراسة من جهد ومشقة

1- ابن الأنباري، **نزهة الألباء في طبقات الأدباء**، تح: إبراهيم السامرائي، ط3. الأردن: 1985 مكتبة المنار، ص55.

2- المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

ولذلك تتابعت مؤلفات كثيرة استهدفت الإيضاح والاختصار»[1] فصعوبة النحو إذن لم تكن وليدة القرون المتأخرة، وإنّما كانت منذ نشأته الأولى، برز من النحويين من دعا إلى تيسيره، فكتاب سيبويه مثلا لم يكن في وسع جميع دارسي النحو فهمه واستيعابه وإنّما المتمدرسون فقط، لأنّه يحتاج إلى جهد كبير ودرس مستمر وذاكرة قوية ونباهة قياسية كي يتمكن الدارس في الأخير من هذا الكتاب المعجزة الذي أبهر الكثير من دارسيه ومدرّسيه. تتالت عليه الشروح والتعليقات، وألّفت الكتب والمصنفات تعنى بإيضاح ما جاء فيه من مسائل شائكة، وقواعد معقدة.

ظلّ النحو العربي منذ أوّل كتاب ألف فيه يحتاج إلى التيسير والتبسيط فظهرت مؤلفات ومصنفات فيه فازدادت قواعده تعقيدا وأبوابه تضخما «كانت الدعوات إلى الإصلاح والتجديد في النحو تختلف تبعا لاختلاف الدوافع التي تدفع أصحابها إليها، والتقدم الفكري الذي يلابس العصر الذي فيه يعيشون، بالرغم من أنّ نظام قواعده العربية بناه نحاة العرب على أساس الرّواية اللّغوية، فظهرت الدعوة الأولى بالشكوى من غلو النحاة في التعقيد والإبهام وفي فلسفة النحو ومنطقته»[2] اختلفت دوافع الدعوة إلى تيسير النحو باختلاف العصور واختلاف دارسيه في التطور الفكري الذي يميّز الأجيال الواحد بعد الآخر، إذ نرى أنّه كلما ابتعدنا عن عصر تأليف "الكتاب" لسيبويه، والكتب المصنفة في علم النحو بعده نجد أن الدعوة إلى التجديد والتبسيط تزداد، ونقد المسائل والقواعد النحوية يزداد أيضا بسبب كثرة دارسي هذا العلم، وتضخّم المؤلفات، وتعدّد الآراء والمذاهب فيه. فكلّ مذهب يحاول الانتصار وفرض آرائه على الآخر وجلب أكبر عدد من المؤيّدين، بما يحدثه من إضافات وحشو وتعليلات وأحيانا حذف بعض النظريات.

أمّا في المغرب والأندلس فالدعوة إلى التيسير ظهرت مع ابن حزم الأندلسي أوّلا، ثم تبنى هذه الفكرة ابن مضاء الذي ثار على نحو المشرق محاولا بناء نحو

1- ابن الأنباري، **نزهة الألباء في طبقات الأدباء** ، ص56.

2- التواتي بن تواتي، "**هل النحو العربي في حاجة إلى التيسير؟(1)**"، مجلة اللسانيات، ص44.

جديد يخلو من التعقيدات التي ملأت كتب ومصنفات القدامى«وهذه التعقيدات التي أثارت حركات متتالية، كان أشهرها ثورة "ابن مضاء" وما تلاها من محاولات لتسهيل علم النحو وتبسيطه، ومن المعروف أنّ حركة ابن مضاء استلهمها من آراء ابن حزم الظاهري الذي أراد أن يفرق بين ما على كل طالب أن يعرفه من النحو وبين ما يكفي من النحو للعلماء»[1] لقد ناشد الكثير من اللغويين والنحويين لتيسير المادة النحوية لكونها متشعبة ويصعب على الدارس فهمها بسهولة، وطالبوا بما هو سهل ومرن، ومتداول يمكن للدارس أن يلم بها دون اللجوء إلى الكتب المصادر والمختصرات، وذلك بالابتعاد عن التعليل والتأويل وتوهم النحويين بإضافة الجديد الذي ما هو إلاّ حشو أدّى إلى تضخّم المؤلفات والمصنفات في هذا الميدان.

فابن مضاء عندما دعا إلى إلغاء بعض النظريات النحوية، تأثّر في ذلك بابن حزم الظاهري الذي قال بفساد العلل، وطالب بالابتعاد عنها ورفضها، فأراد أن يفرق بين ما على الطالب معرفته من النحو، إذ عليه بالكتب المختصرات، وبين ما يكفي من النحو للعلماء الذين يريدون التخصص في هذا العلم، فلا بأس في رأيه من دراسة كتاب سيبويه.

ظلّت الدعوة إلى تيسير النحو العربي قائمة في بلاد المغرب والأندلس فقد كان معظم مدرسي هذا العلم يحاولون إيجاد أبسط الطرق في التعليم والتدريس «مميّزات التعليم في بلاد الأندلس والمغرب العربي الجنوح إلى التبسيط ولذلك عوامل متعددة أبرزها إدراك العلماء لوظيفة النحو الأساسية المتمثلة في تصحيح استعمال العربية نطقا وقراءة وكتابة، وهذا لا يتحقق بالأمالي المطوّلة والمؤلّفات الضخمة التي تنوء بحملها الأذهان المبتدئة، بل يكفي اليسير منها، ممّا يسهل حفظه وتمثله»[2] أدرك نحاة المغرب والأندلس أنّ وظيفة النحو الأساسية هي تصحيح

1- محمد المختار ولد أباه، **تاريخ النحو في المشرق والمغرب**، ص28.

2- نعمان بوقرة، "**قراءات في تيسير تعليم النحو عند المغاربة والأندلسيين**"، أعمال ندوة تيسير النحو، الجزائر: 2001، منشورات المجلس الأعلى للغة العربية، ص164.

استعمال العربية نطقا وقراءة وكتابة، خاصّة وأنّ اللّحن بدأ يفشو وشاعت الأخطاء في كتابتها، وفي قراءة القرآن أيضا ذلك أنّ اللّغة العربية لم تكن لغتهم التي ورثوها عن أجدادهم، وإنّما اكتسبوها بفضل الفتوحات الإسلامية، وهجرة الكثير من العرب إليهم، فرأوا أن الأمالي المطوّلة، والمؤلفات الضخمة لا يمكن للدارس المبتدئ أن يفهمها أو يحفظها بل يكفيه من الكتب المختصرات ما ينمّي ذاكرته ويسهل عليه حفظه من القواعد الأساسية التي يحتاج إليها في دراسته، وفي حياته أيضا «ويظل النحو العربي بحاجة إلى أياد أمينة ونفوس صادقة، تكشف عن خفايا لغتنا وأسرارها، وتجلي الغامض منها»[1] فالنحو العربي منذ كتاب سيبويه وهو يتعقد أكثر فأكثر، بسبب ضخامة المؤلفات التي صنفت فيه وحشوها بالتعليلات والاستنباطات غير المفيدة، ومغالاة النحويين في صناعة وتعقيد مسائله وقواعــده كل هذا جعل بعضهم يفكر جديّا في إيجاد طرائق ووسائل ميسرة وسهلة مناسبة لتعلّم وتعليم النحو من أجل فهم أكبر لأسرار اللّغة العربية، التي نزل بها القرآن الكريم على خاتم النبيين محمد صلى الله عليه وسلم.

وفي عصرنا الحاضر ظهرت الدعوات إلى تجديد النحو وتسهيله على يد طائفة من النحويين الذين تأثّروا بآراء ابن مضاء القرطبي، فطالبوا بإلغاء بعض النظريات النحوية ودعوا إلى تصنيف النحو تصنيفا جديدا يمكن به للدارس في هذا العصر فهم قواعده، وحل مسائله، لأنّ الفرق كبير وشاسع بين نحاة القرون الأولى من أمثال: سيبويه ومن عاصره ومن جاء بعده، وبين نحاة القرون المتأخرة الذين لا يملكون قدرة استيعاب وفهم الأوّلين، فنجدهم متخصصين في علم واحد أو علمين على الأكثر أمّا في القديم فقد كان معظم العلماء ملمّين بمختلف العلوم اللغوية والمعارف، إذ نجد الواحد منهم: فقيها وأديبا ونحويا وشاعرا ويمكن أن

1- ناصر لوحيشي، "**الدرس النحوي مشكلاته ومقترحات تيسيره**"، أعمال ندوة تيسير النحو الجزائر: 2001 منشورات المجلس الأعلى للغة العربية، ص110.

يكون طبيبا ورياضيا أيضا، ومتخصصا في علم الفلك، إذ نادرا ما نجد عالما لا يتقن إلاّ ميدانا واحدا، وهذه ميزة ميّزت القدماء عن المحدثين.

ب- دوافع التيسير: منذ دخول الإسلام والعربية إلى المغرب والأندلس وأهلها وعلماؤها يحاولون الإلمام بمختلف جوانب هذه اللّغة، وهذا الدين الجديد فأعطوها اهتماما بالغا «لقد كانت عجمة لسان سكان الأندلس حافزة إياهم على إقبالهم أكثر من غيرهم على تعلم لغة القرآن، منذ بدأ نور الإسلام ينتشر بين ظهرانيهم»[1] فبدأوا بتعلم اللّغة العربية، وبدأت مختلف العلوم بالانتشار خاصّة العلوم الدينية واللغوية، فكان على النحاة إيجاد طريق، يسهل على الدارسين فهم قواعد النحو، وتعلم اللّغة العربية ومن الأسباب التي جعلت العلماء يفكّرون بجدية في تيسير مسائل النحو، وفكّ القيد الذي أصبح يلابسها، نذكر:

- **توعّر مسالك النحو، وتعقّد نظرياته:** عندما دخلت كتب النحو المشرقية إلى المغرب والأندلس «مع تلاميذ النحاة الأوائل، من أمثال الخليل وسيبويه ويونس بن حبيب، غدت القيروان وفاس وقرطبة تعج بعلماء النحو واللّغة»[2] فحاول نحاة المغرب والأندلس منذ دخول كتب الكوفيين والبصريين، وحتى البغداديين إليهم تيسير النحو وتبسيط قواعده وأحكامه، لتوعّر مسالكه وتعقيدها من طرف النحاة المشارقة الذين كانوا يغالون في الصناعة، فانكبّوا على الكتب النحوية المشرقية يشرحونها ويعلقون عليها، ويختصرونها، خاصّة كتاب سيبويه الذي شرحه معظم نحاتهم باعتباره أهم الكتب، أضف إلى ذلك الكتب المختصرات كالجمل للزجاجي أصول ابن السراج وإيضاح الفارسي.

- **نفور الدارسين من علم النحو، واهتمامهم أكثر بالعلوم الدينية:** اهتم الدّارسون في القرنين السادس والسابع الهجريين بالعلوم والدراسـات الدينية أكثر

1- محمد الطنطاوي، **نشأة النحو وتاريخ أشهر النحاة**، ص23.

2- المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

من علم النحو إذ لم يكن بإمكان جميع الدارسين فهمه واستيعابه، ولجلب أكبر عدد منهم، حاول علماؤه إيجاد طرق مناسبة تمكّنهم من استبدال النفور بالإقبال.

– **ظهور بعض النحاة في المغرب والأندلس أصبحوا يغالون في صناعة النحو واستنباط علله:** فلم يكتفوا بالعلل الثواني والثوالث، وإنّما لجأوا إلى العلل السوادس وغيرها كالأعلم الشنتمري والإمام السهيلي، اللّذين أنكر عليهما ابن مضاء هذه المغالاة.

– **تذليل الصعاب أمام دارسي النحو العربي:** من أجل فهم أكثر، واستيعاب أكبر، وقواعد أوضح، جاء النحاة بمختلف كتب التيسير، ليسهل على الناشئة دراسة هذا العلم والأخذ به، كما يمكنهم تدبر مسائله من أجل الحفاظ على اللّغة العربية في أوطان لم تكن هي لغتهم الأصلية وإنّما اكتسبوها بفضل الفتوح الإسلامية، وهجرة الكثير من سكان القبائل العربية من المشرق من أجل إرساء قواعد الدين الإسلامي في هذه البلاد الذي ظل تربص النصارى بها زمنا طويلا، حتى قضى على العرب والمسلمين بها.

ج– طرائق التيسير:

ج–1–تأليف المتون والمنظومات النحوية: اهتمّ نحاة القرنين السادس والسابع الهجريين بتأليف المتون، والمنظومات النحوية، كطريقة من طرق التيسير التي دأبوا عليها، والتي جمعت قواعد النحو فكانت المقدمة الجزولية أوّل ما ألّف من المنظوم في المغرب والأندلس «والمقدمة من بديع المختصرات التي نشأت في هذا العصر، وعرفت تطورا كبيرا فيما بعد، وإبداع الجزولي واضح في نظمه وشدة اختصاره»[1]

ويقول عبد القادر رحيم الهيتي: «إنّ الجزولية جاءت موجزة غاية الإيجاز ومشتملة على كثير من قواعد النحو العربي، وخالية في الغالب من الأمثلة

1- محمد المختار ولد أباه، **تاريخ النحو في المشرق والمغرب**، ص266.

الموضّحة لقواعدها»[1] ولئن كان هدف الجزولي من نظم هذه المقدمة التي عرفت "بقانون النحو" هو تيسير قواعد النحو، وتسهيل فهمها على الدارسين، فإنّ طريقة الاختصار التي اتبعها لم تمكّن دارسيها من فهمها، وإدراك معانيها «ويبدو أنّ الجزولي لم يتحقق له ما كان يهدف إليه عند كتابة هذه المقدمة من تيسير للنحو العربي، إذ نجده يعيد كتابتها أكثر من مرة محاولا تبسيطها، وذلك عندما وجد أنّ أئمة اللّغة لم يستطيعوا فهمها الفهم الكامل»[2] أعاد الجزولي كتابة مقدمته، كما أعاد شرحها وتنقيحها، لأنّ الكثير من أئمة النحو واللّغة لم يفهموا ما جاء فيهـا حتى أن بعضهم قال إنّها منطق وليست نحوا كما أن الكثير من نحاة القرن السابع الهجري قد شغلتهم فأخذوا في شرحها والتعليق عليها، فقد تداولت في معظم المجالس العلمية، لأنّها كانت تعد كتاب العصر الذي لم يؤلف مثله من قبل.

ثمّ يأتي تلميذه ابن معط، ويؤلف منظومته المشهورة بـ "الدرة الألفية في علم العربية" وكان من قبل قد شرح مقدمة شيخه الجزولي، فقد حظيت ألفية ابن معط باهتمام نحاة القرنين السادس والسابع الهجريين فقد تناولها كثير من العلماء بالدرس والشرح والتفصيل والتعليق، وقد تأثّر بها ابن مالك كثيرا عندما ألّف منظومته «كان أثر هذه المنظومة واضحا عند ابن مالك في ألفيته المعروفة "بالخلاصة" وقد فاق تأثّره بها غيره ممّن جاء بعد ابن معط»[3] جاءت ألفية ابن معط بأسلوب عذب وسلس، مما جعلها تنال مكانة مهمة لدى الدارسين والمعلمين فقد اهتمّوا بها اهتماما بالغا، نظرا لكونها من المنظومات التعليمية، التي تساعد على سهولة الحفظ والرّواية.

1- عبد القادر رحيم الهيتي، **خصائص مذهب الأندلس النحوي خلال القرن السابع الهجري** ص206.

2- القفطي، **إنباه الرواة على أنباه النحاة**، مج2، ص338.

3- عبد القادر رحيم الهيتي، **خصائص مذهب الأندلس النحوي خلال القرن السابع الهجري** ص212-213.

أمّا ألفية ابن مالك فلم ينل غيرها المكانة الراقية التي بلغتها رغم أنّ المبادرة والسبق كانت لابن معط، فقد قال ابن مالك في مقدمة ألفيته:

وتَــقْتَــضِي رضـًـا بغـيــر سُخْــطِ   فَـــائِقَــةً ألــفيَّــةَ ابــن مُعْــطِ

وهــو بـسَبْــقٍ حائــزٌ تـفْضـيـلا   مســتوْجبٌ ثنــائيَ الجمـيـلاَ

واللهُ يَقْــضي بــهِـبَـاتٍ وَافــرَهْ   لي، ولــهُ فــي دَرَجَــاتِ الآخِــرَةْ [1]

جاءت ألفية ابن مالك على نمط تعليمي، نظرا لما تحمله من توضيح وتبسيط لقواعد النحو العربي، دون الدخول في متاهات التعليم والتعقيد، الذي مس كثيرا من مسائل هذا العلم «النمط التعليمي كان سمة العصر نظرا لتعقيد بعض مسائل النحو من قبل بعض النحاة المتأخرين، الذين فسدت ملكة لسانهم، وقد وضع ابن مالك ألفيته لهذا الغرض»[2] جاء نحاة المغرب والأندلس بنظم المتون، في وقت كان فيه الدارسون بحاجة إلى نمط جديد لدراسة النحو، يستطيعون به فهم هذا العلم الذي أصبح صناعة في أيدي الكثير من النحاة يسعون به إلى كسب الشهرة من جهة وإلى التكسب من جهة أخرى، فظهرت المختصرات والمتون، التي قضت على الكثير من الحشو الذي كان يعاني منه النحو العربي، التي اقتصرت على المبادئ والقواعد الأساسية التي يحتاجها الدارسون والمهتمون بهذا العلم، الذي استطاعت اللّغة العربية بفضله أن تحافظ على مكانتها، وتحمي القرآن الكريم من اللحن الذي أصبح يتهدده بفعل الاختلاط مع الأعاجم، ودخول الكثيرين في الإسلام.

ج-2- إلغاء بعض النظريات النحوية: رفض بعض نحاة المغرب والأندلس بعض النظريات النحوية التي ساهمت في تعقيد النحو العربي، ومحاولة منهم لتيسير هذه القواعد النحوية طالبوا بإلغاء بعض النظريات منها: العلل الثواني والثوالث.

1- ابن الناظم، **شرح ألفية ابن مالك**، تح: عبد الحميد السيد محمد عبد الحميد، دط. بيروت: 1998، دار الجيل، ص19.

2- صالح بلعيد، **ألفية ابن مالك في الميزان**، ص10.

يقول عبد القادر رحيم الهيتي «رفض نحاة القرن السابع التعليل، الذي أفسد النحو العربي ونفروا منه، حتى أنّهم وصفوه بأنّه هذيان من القول، وخروج عن منهج التعليم»[1] إلاّ أنّ الثورة على العلل النحوية كانت قبل القرن السابع الهجري حين ظهر ابن حزم الأندلسي ودعا إلى إلغائها لأنّها فاسدة ويأتي بعد ذلك ابن مضاء القرطبي، ويؤكد على فسادها، ليؤكد بذلك رأي ابن حزم، لكنه لا يكتفي برفض العلل فقط، وإنّما دعا أيضا إلى إلغاء نظرية العامل وإبطال القياس، وإلغاء التمارين غير العملية وإسقاط كل ما لا يفيد في النطق.

أمّا فيما يخصّ العلل، فلم يقل بفسادها كلها، وإنّما رفض العلل الثواني والثوالث منها واستبقى على العلل الأول، لأنّه لا يمكن الاستغناء عنها «العلل الأول المقبولة عنده هي التي بمعرفتها تحصل المعرفة بالنطق بكلام العرب المدرك بالنظر، فهي لخدمة النص اللغوي لمعرفة صحة نظمه، وطريقة نطقه فنطق العرب، واستقراء كلامهم هما أساس العلل النحوية المقبولة»[2] العلل المقبولة عند ابن مضاء هي العلل التي لا يمكن رفضها أبدا، ولا إلغاؤها، لأنّه بفضلها تحصل المعرفة بكلام العرب والتي تجعلنا نعرف أن كل فاعل مرفوع وكل مفعول منصوب، أمّا العلل الثواني والثوالث فيجب أن تسقط من النحو لأمرين:

1- «لا حاجة لكلام العرب إليها، فإذا قال قائل: لم رفع الفاعل؟ فالصواب أن يقال له: كذا نطقت به العرب، ثبت ذلك بالاستقراء من الكلام المتواتر.

1- عبد القادر رحيم الهيتي، **خصائص مذهب الأندلس النحوي خلال القرن السابع الهجري** ص189.

2- محمد عيد، **أصول النحو العربي في نظر النحاة ورأي ابن مضاء وضوء علم اللّغة الحديث** ص135.

2- إنّ هذه العلل ترد لأمور لا شأن لها باللّغة، فهي إمّا أن تقطع تطلع السائل بعد العلة الأولى ـــ أو لسدّ ضرورة ذهنية مفتعلة ـــ أو سفسطة لا قيمة لها إطلاقا»[1].

يرى ابن مضاء أنّ العلل الثواني والثوالث لا حاجة إليها، ولا فائدة ترجى منها فهي تزيد من تعقد النحو، وكثرة التعليل والتأويل تفسد على الطالب متعة الدرس، فيجب الاكتفاء بالعلل الأول دون غيرها.

ويأتي ابن الضائع فيما بعد ليرفض هذه العلل أيضا «حينما تكون سببا في خلافات لا تجدي وفي تقديرات كثيرة لا تفيد، وحينما ينتج عن تلك العلل مسائل فرضية تدخل المتعلم في متاهات وتعقيدات لا حاجة له بها»[2] وهو يقصد العلل الثواني والثوالث التي اجتهد بعض النحاة في استنباطها واستخراجها فهي تسبب الكثير من الخلافات في تفسير بعض الظواهر النحوية، لذلك وجب حذفها من النحو، لأنّها لا تسبب غير التعقيد والتشويش على الطالب في فهم المسائل النحوية بطريقة صحيحة.

وإضافة إلى العلل الثواني والثوالث، وغيرها ممّا رفضه نحاة المغرب والأندلس نجد نظريات أخرى حاول ابن مضاء إلغاءها أيضا، لأنّها في نظره تسبب العسر، وتصعب أكثر قواعد النحو فيزداد تعقدها، ومن ثم نفور الدارسين منها «وقد رأى أن مصدر هذا الاستغلاق نظرية العامل، وما يدمج فيها من علل وأقيسة، فنادى في النحاة والناس من حولهم: حطموا كل ما لا يفيد نطقا»[3] أراد ابن مضاء أن يلغي ويهدم نظرية العامل، إضافة إلى إلغاء القياس، والتمارين غير العملية، إلاّ أنّ هذه الإلغاءات طالب بها ابن مضاء فقط، ولم يؤيده أحد في عصره

1- محمد عيد، **أصول النحو العربي في نظر النحاة ورأي ابن مضاء وضوء علم اللّغة الحديث** ص135.

2- عبد القادر رحيم الهيتي، **خصائص مذهب الأندلس النحوي خلال القرن السابع الهجري** ص191.

3- ابن مضاء القرطبي، **الرد على النحاة**، ص47.

ولا بعده إلى غاية عصرنا الحاضر الذي لقيت فيه نظرياته قبولا واسعا من قبل النحاة والمجامع اللغوية، أراد بهذا أن يصنف النحو تصنيفا جديدا، يمكن درسه وفهمه دون تقديرات وتأويلات.

رغم أنّ نظرية العامل هي الأصل الأوّل من أصول النحو العربي، التي بنى عليها النحاة أسسه، إلاّ أنّ إلغاءها في نظر ابن مضاء ليس إلغاء للنحو وإنّما تيسير وتسهيل له على الناشئين الذين يريدون خوض غمار هذا الميدان بالبحث والدراسة.

ج-3-شرح الكتب المطولة والمختصرات: من بين طرق التيسير التي اعتمدها نحاة المغرب والأندلس، شرح الكتب المطولة والمختصرات، التي ألّفها المشارقة، أو المغاربة والأندلسيون فمن أهمّ الكتب التي نالت شهرة واسعة واهتماما بالغا لديهم كتاب سيبويه الأصل الأوّل في النحو العربي الذي اعتمده الكثير في البحث والدراسة، فانكبوا عليه بالشرح والتعليق يشرحون غوامضه ويذلّلون صعابه ويعلّقون على بعض الآراء التي خالفوا فيها سيبويه، ويقترحون آراء جديدة، يرون أنّها الأنسب والأسهل وكان من بينهم خلال القرنين السادس والسابع الهجريين: ابن الطراوة، ابن خروف، الشلوبين وابن الضائع.

أمّا الكتب المختصرة، فقد اهتموا منها أكثر بكتاب "الجمل" للزجاجي "إيضاح" الفارسي و"أصول" ابن السراج، هذه الكتب الثلاثة كانت لها ميزات خاصّة جعلتها تحتل مكانة كبيرة لدى الشارحين من المغاربة والأندلسيين لأنّها في الأصل اختصارات تسهيلا وتيسيرا على الدارسين لفهم أكثر واستيعاب أكبر لقواعد النحو ومسائله الشائكة، وعندما دخلت إلى المغرب والأندلس أخذ النحاة في شرحها والتعليق عليها أيضا لتبسيط الفهم.

فكتاب "الجمل" للزجاجي شرحه ابن السيد البطليوسي في كتاب سمّاه "إصلاح الخلل الواقع في كتاب الجمل" وله أيضا شرح على أبياته سماه "الحلل في شرح أبيات الجمل"، وابن الباذش له شرح ناقص مات قبل أن يكمله، ابن خروف

وابن معط لهما شرحان عليه، وابن عصفور له ثلاثة شروح: "الكبير، الأوسط والصغير"، ونجد ابن الضائع في الأخير له شرح عليه.

أمّا كتاب "الإيضاح" لابن السراج فاهتمّ به ابن الباذش أيضا وابن عصفور وابن هشام الخضراوي له كتاب سماه: "الإفصاح بفوائد الإيضاح"، وله أيضا "الاقتراح في تلخيص الإيضاح وشرحه" وأيضا كتاب "غرر الإصباح في شرح أبيات الإيضاح".

فنلاحظ أنّ كتاب "الجمل للزجاجي" حظي باهتمام معظم نحاة المغرب والأندلس خلال القرنين السادس والسابع الهجريين، إذ لم يكتفوا بشرحه وشرح أبياته، وإنّما بنقده أيضا كما فعل ابن السيد البطليوسي.

اهتمّ نحاة المغرب والأندلس خلال القرنين السادس والسابع الهجريين بالكتب المشرقية التي نالت شهرة واسعة في بلدانها وخارجها أيضا، فمن كتاب سيبويه الذي يعد الأصل، والذي قرأه وشرحه واعتمده الكثير من النحاة إلى أصول ابن السراج، إيضاح الفارسي وجمل الزجاجي وغيرها من الكتب المختصــرات التي ألفت شرحا وتسهيلا لقواعد النحو المستقاة من كتاب سيبويه، فشرح هذه الكتب والتعليق عليها جعل النحو العربي أكثر مرونة وسهولة، وأصبح له مريدون أكثر من القرون التي سبقت، فدرسوه وألّفوا فيه المصنفات والشروح والمختصرات أيضا، فكانت لهم إسهامات كبيرة اعتمدها النحاة في عصرهم، وفي العصور التي تلته.

كان لنحاة المغرب والأندلس إسهامات كبيرة في ميدان اللّغة والنحو، فقد تميّز معظمهم بالنبوغ وكان لهم فيما بعد تأثير واضح على من خلفهم من النحويين سواء كان ذلك في أوطانهم أو خارجها، وقد برز كثير منهم في المشرق وفاقوا علماءه، الذين اعتبروا دائما أن النحو علم مشرقي لا يمكن للمغربيين والأندلسيين أن يخوضوا فيه، وفي مسائله، التي بالغوا في تعقيدها بسبب كثرة التعليل والتأويل.

كان علماء المغرب والأندلس خلال القرنين السادس والسابع الهجريين يهتمون بالنحو العربي أكثر من غيره من العلوم اللغوية والدينية الأخرى، فقد كان

جلّ تركيزهم على منافسة المشارقة في هذا العلم الذي بث فيهم حبّ اللّغة العربية والقرآن الكريم.

وقد أشار طه حسين في إحدى جلسات المجمع اللغوي بالقاهرة إلى «أنّ الأندلس تقع في الغرب، وأنّه لو أتيح لهذا الغرب أن يستمر في نقده للمناهج الشرقية لأدى ذلك إلى تغيير جوهري في نمط الحياة عند العرب»[1] كان نحاة المغرب والأندلس بين مؤيد لمناهج المشرق في كثرة التعليل كالأعلم الشنتمري والإمام السهيلي «حتى ليكاد النحو عندهم لا يتجاوز حدود ما مارسه المبرد والزجاج والزجاجي وأبو علي الفارسي وأصحابهم، ولم يلاحظ فيما صنفوا أو قالوا شيئا جديدا، يمكن أن يعد إضافة، فليس في نحوهم أصالة ولا إبداع، كل ما هناك شروح لمؤلفات القدماء كالمقتضب والجمل والإيضاح وغلو في التعليل حتى صار النحو عندهم كما صار عند معاصريهم من المشارقة علم القياس والتعليل. فإذا أراد أحدهم أن يظهر على معاصريه، ظهر عليهم بما يخترع من علل وبما يجرد من قياس، ويعتقد ذلك كمالا في الصنعة وبصرا بها على حد قول ابن مضاء في غمزه الأعلم والسهيلي»[2] اجتهد الأعلم في اختراع العلل واستنباطها، ولم يكتف بالثواني والثوالث، بل تعدى ذلك إلى العلل السوادس، وكان الإمام السهيلي على شاكلته مولعا بها وباستخراجها، فهما لم يخرجا عن مناهج المشارقة، بالنسبة إلى هذه الظاهرة بل أيّداها وعملا بها، ومن جانب آخر نجد أن ابن مضاء عارضها بشدة محاولا بذلك هدم نظرياتهم، والإتيان بقواعد جديدة. وبين مؤيد ومعارض نجد من حاول تيسير القواعد النحوية دون اللجوء إلى هدم ما جاء به القدامى من المشارقة، ولكن بسلوك منهج جديد يتمثل في نظم تلك القواعد كابن معط وابن مالك، إلاّ أنّ معظمهم تميّزوا بمبدأ الانتقاء من آراء مختلف المذاهب المشرقية (البصرية ـــ الكوفية والبغدادية).

1- عبده الراجحي، **دروس في كتب النحو**، دط. بيروت: 1975، دار النهضة العربية، ص172.

2- مهدي المخزومي، **الدرس النحوي في بغداد**، ص177.

-**ابن مضاء:** من خلال اطّلاعنا على مؤلفات المحدثين، نجد أن معظمهم قد تأثروا بآراء ابن مضاء، وابن مالك اللّذين حاولا دراسة علم النحو بأسلوب جديد ميسر، يسهل على الدارسين استيعاب مسائله وقواعده، وهذا ما ينشده المحدثون في دراساتهم.

كانت لابن مضاء آراء اعتمدها المشارقة، فحاول أن يأتي بنحو جديد يسهل على الطلبة والدارسين فهم قواعد النحو بشكل أفضل، فجاء بنظريات جديدة تدعو إلى إلغاء بعض النظريات القديمة، التي جعلت مسائل النحو تزداد صعوبة وتعقيدا «صيحة ابن مضاء هي أخطر صيحة في النحو العربي، وهو أوّل عمل جديد نراه بعد "كتاب سيبويه" الرائع، كتاب ابن مضاء كتاب صغير لكنه يحمل قيمة منهجية ذات دلالة عميقة، إنّه لا يدعو إلى نسق الماضي، ولا يدعو إلى تحطيم النحو إلاّ أنّه يجرد النحو من صناعة النحويين»[1] دعا ابن مضاء في كتابه "الرد على النحاة" إلى التخلي عن مناهج المشارقة في معالجة القضايا النحوية، التي اعتبرها مغالاة في صناعة النحو، حيث تمادى النحويون كثيرا في التعليل والتأويل لكثير من قواعده، ويعد كتاب "الرد على النحاة" لابن مضاء القرطبي أوّل كتاب يخرج فيه صاحبه عما هو مألوف ومتداول لدى النحويين، فبعد كتاب سيبويه الذي يعد قرآن النحو كما يقال عنه، لم يأت أحد بالجديد في هذا الميدان غير الشروح والتعليقات، ومن خرج عن هذا الإطار فإنّه يخرج عن آراء المذاهب المنتشرة في ذلك الوقت كالمذهبين البصري والكوفي اللّذين اختلفا في كثير من الأمور الجوهرية كاعتماد البصرة على القياس مثلا وتعويل الكوفة على السماع.

دعا ابن مضاء إلى سلوك منحى جديد، يبتعد إلى حد ما عن منحى القدماء من المشارقة والمغاربة والأندلسيين، فهو لا يدعو إلى هدم النحو، وإنّما إلى تجريده من صناعة النحويين الذين غالوا وتمادوا كثيرا في التعليل والتأويل والاستنباط غير «أنّ صيحة ابن مضاء هذه لم يكن لها من أثر على القرون اللاحقة من بعده، فقد

1- شعبان عوض محمد العبيدي، **النحو العربي ومناهج التأليف**، ص437.

رأينا نحويين يغالون في الصناعة النحوية»[1] لم يهتم نحاة عصر ابن مضاء ولا الذين جاءوا بعده بما قاله أو كتبه، وإنّما واصلوا في تأليفاتهم لكتب النحو على مناهج القدماء من المشارقة وغيرهم، فكانت صرخة ابن مضاء حبــرا على ورق لم تنل من الاهتمام والرعاية ما نالته في عصرنا هذا «لم نر لما فعله ابن مضاء من أثر يذكر في هذه العصور، حتى بداية هذا القرن فرأينا التفكير من بعض الأساتذة والباحثين تدعو إلى تيسير النحو العربي، ورأينا في العقد الرابع من هذا القرن وما بعده إحياء وبعثا لما فعله ابن مضاء، وقد أماتته القرون، وقد تحول هذا الإحياء إلى كتب وكتابات»[2] شغلت فكرة التيسير أذهان أساتذة النحو في العصور المتأخرة، لما طال هذا الميدان من كثرة التعقيد والتعليل حتى تشعبت وتوعّرت مسالكه، وأصبح دارسوه ينفرون منه. فكان لظهور كتاب ابن مضاء بعد تحقيقه من طرف الأستاذ شوقي ضيف فضلا كبيرا في عودة المهتمين بهذا العلم، الذي أصبح علما يهجره دارسوه قبل أن يكملوا تعليمه، يقول إبراهيم مصطفى: «اتصلت بدراسة النحو في كل معاهده التي يدرس فيها بمصر، وكان اتصالا طويلا وثقيلا ورأيت عارضة واحدة، لا يكاد يختص بها معهد دون معهد، ولا تمتاز بها دراسة عن دراسة، هي التبرم بالنحو والضجر بقواعده، وضيق الصدر بتحصيله»[3] كانت هذه حال معظم دارسي النحو نظرا لما طال هذا العلم من مغالاة في صناعته من النحويين الذين بالغوا في الاهتمام به بطرق لم تزده إلاّ تعقيدا. ونظرا لنفور الدارسين منه واعتباره علما شائكا لا يمكن فهمه، والخوض فيه، فكر نحاة العصور المتأخرة في الاستعانة بكتاب "الرد على النحاة" محاولين إيجاد طرق أسهل لتدريس النحو «إذا كان النحاة القدماء لم يلتفتوا فيما يبدو إلى صيحة ابن مضاء الداعية إلى هدم أركان النحو وصياغته في منهج جديد، فإنّ النحاة المحدثين

1- ا شعبان عوض محمد العبيدي، **النحو العربي ومناهج التأليف**، ص437.

2- المرجع نفسه، ص438.

3- إبراهيم مصطفى، **إحياء النحو**، ط2. القاهرة: 1992، دار الكتاب الإسلامي، ص ب.

قد تلقفوا نظريته هذه، واتخذوها طريقا لدراسة اللّغة وقواعدها بمنظور مبتدع جديد»[1] تأثر النحاة المعاصرون بآراء ابن مضاء الداعية إلى إلغاء كثير من النظريات التي بنى عليها القدامى نحوهم فأرادوا بذلك دراسة جديدة وتصنيف جديد للنحو، يمكنهم من تيسير قواعده واستقطاب أكبر عدد من دارسيه ومحبيه، وقد كان من أوائل المتأثرين بمنهج ابن مضاء محقق كتابه "الرد على النحاة" شوقي ضيف والأستاذ إبراهيم مصطفى الذي كان «من أوائل الداعين إلى تجديد النحو العربي فقد ظهر كتابه "إحياء النحو"... ودعا فيه ــ كما دعا ابن مضاء من قبل ذلك ــ إلى هدم نظرية العامل وأنكر أن يكون الرفع والنصب والجر أثرا للعامل»[2] وأمّا شوقي ضيف فيقول في كتابه "تجديد النحو": «كنت أخذت قديما في وضع تصنيف جديد للنحو بمبدأ إلغاء الإعرابين التقديري والمحلي، وكنت أستضيء في ذلك بآراء ابن مضاء القرطبي في كتابه "الرد على النحاة"»[3] كان لإبراهيم مصطفى وشوقي ضيف تأثر واضح بآراء ابن مضاء القرطبي من خلال آرائهما التي تدعو إلى تيسير النحو، وهجر كل تعقيد لمسائله وذلك بإلغاء ما يمكن الاستغناء عنه، دون أن يؤثر على قواعده الأصلية.

ألّف إبراهيم مصطفى كتابه "إحياء النحو"، وشوقي ضيف "تجديد النحو" ودعوا فيهما إلى إيجاد سبيل أكثر وضوحا وسهولة لتدريس النحو العربي، كي يتمكن طالبوه من دراسته وفهم قواعده، التي طالما اشتكى منها دارسوها ومدرسوها «ويبدو أن لجنة تيسير النحو المكلفة من طرف وزارة المعارف والتي كان الأستاذ إبراهيم مصطفى أحد أعضائها قد سلكت كذلك طريق ابن مضاء في نقد نظرية العامل ورفضه الضمائر المستترة...» [4] كانت الدعوة إلى تيسير النحو

1- عبد الكريم بكري، **أصول النحو العربي في ضوء مذهب ابن مضاء الظاهري**، ص176.

2- المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

3- شوقي ضيف، **تجديد النحو**، دط. القاهرة: 1982، دار المعارف، ص23.

4- عبد الكريم بكري، **أصول النحو العربي في ضوء مذهب ابن مضاء القرطبي**، 178.

العربي في العصور المتأخرة متأثرة بآراء ابن مضاء، الذي أحسّ في القرن السادس الهجري، أنّ النحو في حاجة إلى تبسيط، وأنّ أصحابه قد تمادوا كثيرا في جعله علما يكاد يخضع لقواعد منطقية وفلسفية.

يقول إبراهيم مصطفى: «كان سبيل النحو موحشا شاقا، وكان الإيغال فيه ينقض قواي نقضا ويزيدني من الناس بعدا، ومن التقلب في هذه الدنيا حرمـــانا ولكن أملا كان يزجيني ويحدو بي في هذه السبيل الموحشة، أطمع أن أغيّر منهج البحث النحوي للغة العربية، وأن أرفع عن المتعلمين إصر هذا النحو، وأبدلهم منه أصولا سهلة يسيرة تقربهم من العربية وتهديهم إلى حظ من الفقه بأساليبها»[1] كان إبراهيم مصطفى يرى أنّ النحو في حاجة إلى من يخرجه من الحالة المستعصية التي كان يعيشها بسبب هجر الكثيرين، وتنكرهم له واختيارهم سبلا للعلم مغايرة لسبيله، فاهتموا بميادين أخرى غيره وأهملوه، وأعرضوا عنه ورأوا أنه لا يمكن الخوض فيه والعناية به، ما دام بهذا الشكل المعقد فحاول أن يجد منهجا جديدا يتناول من خلاله قواعد النحو بشكل أبسط يحبّبهم فيه وفي لغته، ويمكّنهم من فهم أغواره.

كانت فكرة تيسير النحو ولا تزال نقطة اهتمام الكثير من النحويين وعلماء اللّغة في العصر الحاضر، فهناك ندوات تقام، ومجامع لغوية تعمل على إيجاد أنجع السبل من أجل هذا الهدف الذي عمل ابن مضاء من أجله في القرن السادس الهجري، ونحاة وعلماء العصر الحاضر الذين كانت لهم إسهامات شتى متأثرين فيها بآراء ابن مضاء.

– **ابن مالك:** أمّا ابن مالك فقد كانت ألفيته التي تسمى "الخلاصة" مصدر تشجيع لكثير من الدارسين على طلب علم النحو «وقد أقبل الناس إقبالا زائدا يحفظونها، ويتعرفون أحكامها ولذا أكثر العلماء من شرحها»[2] اهتمّ العلماء والنحاة

1- إبراهيم مصطفى، **إحياء النحو**، ص أ.

2- محمد عبد المنعم خفاجة، **قصّة الأدب في الأندلس**، ص220.

بالألفية اهتماما بالغا، فأقبلوا على شرحها والتعليق عليها وإعرابها كاهتمامهم بالكتاب لسيبويه الذي ظلّ زمنا طويلا، وما يزال أهم مصدر يعتمده النحاة في بحوثهم ودراساتهم.

كانت ألفية ابن مالك قد نالت من الشروح ما يكفي لتسهيل وتبسيط أكثر لقواعد النحو في عصر ابن مالك، وفيما بعد، وإلى غاية عصرنا الحاضر، مازال الاهتمام بها كبيرا في الجامعات والمعاهد التي تدرس النحو العربي، ومن شرّاحها نجد:

1- محمد ابن ناظمها المتوفى سنة 676هـ بدمشق.

2- عبد الله بن عبد الرحمن المشهور بابن عقيل المتوفى بالقاهرة سنة 698هـ.

3- حسين بن قاسم المصري المتوفى سنة 749هـ، وقد شرح التسهيل أيضا.

4- أبو زيد عبد الرحمن المكودي المتوفى سنة 801هـ.

5- أبو الفضل عبد الرحمن جلال الدين السيوطي المتوفى سنة 911هـ.

6- بدر الدين علي الأشموني المتوفى سنة 900هـ.

7- وقد شرحها ابن مالك نفسه، قال الذهبي في كتابه "تاريخ الإسلام" في ترجمة ابن مالك "وله الخلاصة وشرحها".

8- شرح الألفية للشيخ محمد أبي الفتح أبي الفضل الحنبلي النحوي المتوفى سنة 709هـ.

9- شرح للعلامة محمد بن أحمد الشربيني الشافعي المعروف بالخطيب المتوفى سنة 977هـ يسمى "فتح الخالق المالك في حلّ ألفاظ ألفية ابن مالك".

10- شرح الشيخ بدر الدين محمد بن محمد الرضي الغزي المتوفى سنة 1000هـ، وله ثلاثة شروح، منثور ومنظومان.

11- شرح للعلامة الشيخ عبد الرحيم بن عبد الرحمن بن محمد بن علي بن مكيّ بن أحمد المشهور بالسيوطي الجرجاوي الواعظ من علماء القرن الرابع عشر الهجري يسمى "غنية السالك على ألفية بن مالك"[1].

12- دروس في شرح الألفية لعبده الراجحي 1980.

13- هداية السالك إلى ألفية ابن مالك لصبحي التميمي 1990. وغيرهم كثير ممّن اهتم بالألفية وشرحها وشرح شروحها، وقد دوّنوا على هذه الشروح حواشي منها:

- «حاشية ابن أحمد قاسم العبادي المتوفى سنة 992هـ على شرح ابن الناظم.
- حاشية الشيخ أحمد السجاعي المتوفى سنة 1197هـ بمصر على شرح ابن عقيل.
- حاشية الشيخ محمد الحضري الدمياطي المتوفى سنة 1289هـ.
- حاشية الشيخ محمد الحفني المصري المتوفى سنة 1190هـ بمصر على شرح الأشموني.
- حاشية الشيخ محمد الصبّان المصري المتوفى سنة 1216هـ على شرح الأشموني أيضا ويقرأها المنتهون بالأزهر»[2] إلى غير هؤلاء ممّن كانت لهم حواش على الألفية وشروحها.
- وفي إعراب الألفية نجد:

▪ «كتابا للشيخ شهاب الدين أحمد بن الحسين الرملي الشافعي المتوفى سنة844هـ.

▪ كتابا للشيخ خالد بن عبد الله الأزهري المتوفى سنة 905هـ، مجلّد سمّاه "تمرين الطلاّب في صناعة الإعراب"»[1] أمّا شرح شواهد الألفية فنجد منها

1- المرادي، **توضيح المقاصد والمسالك بشرح ألفية ابن مالك**، مج1، ص48- 49، 54، 56-59.

2- محمد عبد المنعم خفاجة، **قصّة الأدب في الأندلس**، ص220.

كتابين «كبيرا وصغيرا للشيخ أبي محمد محمود بن أحمد العيني المتوفى سنة 855هـ، سمّى الكبير "بالمقاصد النحوية في شرح شواهد شروح الألفية"، وقد اشتهر بالشواهد الكبرى جمعها في شروح التوضيح، وشرح ابن المصنف وابن أم قاسم المرادي وابن عقيل ورمز إليها بالظاء (لابن الناظم) والقاف (لابن أم قاسم) والهاء (لابن هشام) والعين (لابن عقيل)» [2] إلى غير ذلك من الشروح والحواشي التي أصبحت المكتبات العربية تزخر بها وبمحتواها الذي يسّر الكثير من المسائل التي كانت تعتبر عند الدارسين معقّدة وصعبة.

فقد اتّسمت المؤلفات النحوية قبل عصر ابن مالك بالصعوبة والتعقيد، وهجر المألوف من المصطلحات والصيغ، أمّا بعد عصر ابن مالك «فإنّ لغة التأليف قد جنحت إلى اليسر والسهولة ومالت إلى اللّين والإسجاح»[3] نظرا لما أصبح يعانيه الكثير من الطلبة من عدم فهمهم للمعاني الصحيحة التي يرمي إليها مؤلفو الكتب النحوية، فقد كان على النحاة أن يجدوا سبلا أخرى تمكّنهم من طرح أفكارهم، دون أن يتعرّضوا للنقد، بسبب الغموض والإبهام اللذين تعاني منهما مؤلّفاتهم.

فجاء ابن مالك ليغيّر نظرة الدارسين إلى النحو، ويسهّل ما كان صعبا «ويرجع سرّ السهولة واليسر، وقرب المأخذ في جميع ما ألفه ابن مالك – بالإضافة إلى موهبته الفذّة، وطبيعته السهلة–إلى ما مرّ به التأليف من مراحل جعلته أكثر صقلا، وأيسر أسلوبا، وأقرب تناولا»[4] لقد مرّ التأليف في اللّغة العربية بعدّة مراحل، منذ بدأ العرب في تأليف الكتب والمعاجم، فكانت لغة التأليف في عصر الخليل وسيبويه، غير اللّغة التي ألف بها ابن مالك ومن عاصره كتبهم

1- المرادي، **توضيح المقاصد والمسالك بشرح ألفية ابن مالك**، ص59.

2- المرجع نفسه، ص59.

3- ابن الناظم، **شرح ألفية ابن مالك**، ص8.

4- المرجع نفسه، ص9.

لأنّ اللّغة تتغيّر بتغيّر الأجيال وتتطوّر بتطوّر الإنسان، وبظهور مصطلحات جديدة وهجر أخرى بسبب عدم الحاجة إليها.

فكان لظهور الجديد تأثير إيجابي على اللّغة العربية، التي أصبحت أكثر مرونة وسهولة تستجيب لمتطلّبات العصر الذي تعيشه، فما كان للمؤلفين إلاّ أن يعيشوا عصرهم، ويستخدموا مصطلحاتهم، التي أصبحت سهلة وميّسرة، مفهومة وقريبة إلى أذهان الدارسين، إضافة إلى هذا فإنّ طبيعة ابن مالك السهلة فرضت عليه استخدام أسلوب مميّز في تأليف كتبه، التي نالت من الشهرة والبروز والتميّز ما ناله كتاب سيبويه في عصره والعصور التي جاءت من بعده.

كان لابن مضاء تأثير كبير على نحاة العصور المتأخرة، الذين ساروا على خطاه في تيسير قواعد النحو، بالاستغناء عمّا يمكن الاستغناء عنه، أمّا في عصره والعصور التي جاءت بعده بقليل، فلم يكن أحد يهتّم بما قاله أو ألفه، وكانت الحجة في ذلك أن كتابه "الرد على النحاة" لم يحققه ولم يعلّق عليه أحد، إلى غاية عام 1947م عندما حقّقه شوقي ضيف، أمّا كتاباه الآخران "تنزيه القرآن عمّا لا يليق بالبيان" و"المشرق في النحو" فلم يعثر لهما على أثر يذكر، نظرا لعدم اهتمام نحاة عصره بهذه الكتب، إذ أنّهم عدّوا ابن مضاء من النحاة الخارجين عن العرف اللغوي، بنقده لكثير من مسائل النحو ونظرياته، التي تعتبر أساس النحو الذي بني عليه.

أمّا ابن مالك فقد شهدت ألفيته انتشارا وشهرة واسعين، منذ تأليفها، وإلى غاية عصرنا الحاضر فقد بدأ النحاة بشرحها وإعرابها ووضع حواش على شروحها، وإعراب شواهدها فلم يخل عصر من العصور من عناية بها، ممّا يؤكد على أن طريقة ابن مالك في نظم ألفيته نالت إعجاب النحاة وعلماء اللّغة على مرّ العصور، فأبدع النحاة في تبسيط قواعدها وتيسير مفاهيمها، وتنافسوا على شرحها وشرح شروحها، ممّا ولّد نوعا من الشعور بحب التفوق وتقديم الأفضل للدارسين والمهتمين بعلم النحو، وبألفية ابن مالك التي قدمت لهم نحوا مبسطا وميسرا.

تمكّن بعض نحاة المغرب والأندلس من أمثال ابن مضاء وابن مالك من التأثير على النحاة الذين جاءوا من بعدهم، وذلك ما نجده مبسوطا في مختلف كتب النحو، سواء أكان ذلك في المشرق أو في المغرب والأندلس، فقد كان الاهتمام بكتبهما، والانتصار لآرائهما كبير جدّا، ممّا يؤكّد رسوخ قدمهما في هذا الفن، الذي يصعب على النحوي النبوغ فيه نبوغا تامّا لصعوبته وتوعّر مسالكه. فالنحو العربي وإن كتبت وألفت فيه المصنفات الضخمة والمجلدات، وجاء النحاة بمختلف القواعد والنظريات فإنّه يبقى علما يحتاج دائما إلى البحث والدراسة، نظرا لما يحمله من اختلافات في الآراء ووجهات النظر فكل مذهب يرى الصواب فيما يقول، ولكل مذهب مريدوه ومنتقدوه.

2-3- استحداثهم لمدرستين نحويتين:

أ- المدرسة الأندلسية: دخل النحو الأندلس بعد أن استقرّت مختلف العلوم العربية، على أيدي علماء رحلوا من المشرق إليها، وآخرون دخلوا منها إلى المشرق، اكتسبوا خلالها علوم العربية فدرسوا ودرّسوا، ثمّ عادوا إلى موطنهم لنشر ما تعلموه، إلاّ أنّ هناك من آثر البقاء أمثال ابن مالك الذي بقي في دمشق بعد أن رحل إليها طالبا علومها المختلفة، وغيره كثير ممّن لم يعد إلى موطنه بعد ما اكتسب ما كان بحاجة إليه.

تمكّن نحاة الأندلس من خلال المؤلفات المميّزة التي ألفوها في ميدان النحو العربي ومن خلال الآراء المختلفة التي تفرّدوا بها من إنشاء مدرسة نحوية، أبدع فيها الكثير من العلماء، إلاّ أنّ هناك من ينكر وجودها أمثال مهدي المخزومي في كتابة "الدرس النحوي في بغداد" إذ يقول: «ففكرة المدرسة الأندلسية في أكبر الظن كانت مستوحاة من عمل الزبيدي في طبقاته، لأنه خصّص للنحويين واللغويين الأندلسيين مكانا خاصا في طبقاته بآراء البصريين والكوفيين فأوهم بوجود مذهب أندلسي»[1] كما أنّ شعبان عوض محمد العبيدي أنكر أيضا وجود مدرسة أندلسية

1- مهدي المخزومي، **الدرس النحوي في بغداد**، ص181.

في النحو، حيث قال في كتابه "النحو العربي ومناهج التحليل والتأليف": «إنّه كان يمكن القول بوجود مذهب أندلسي في النحو العربي، لو أن بعض المحاولات التي قام بها بعض الأندلسيين والمغاربة قدّر لها الاستمرار، من هذه المحاولات الثورة على الأصول النحوية المعروفة من قياس وتعليل وتمارين غير عملية، كما فعل ابن مضاء في كتابه الصغير "الرد على النحاة"[1] وبما أنّ الثورة التي قام بها ابن مضاء على النحو المشرقي لم يكتب لها النجاح، فإنّ القول بوجود مذهب أندلسي أو مدرسة نحوية أندلسية في نظر المؤلف ليس له أساس من الصحة، وكأنّ المدرسة الأندلسية كانت ستقوم فقط على آراء هذا العالم أو النحوي، فماذا عن آراء النحاة الآخرين التي تفرّدوا بها، والتي ميّزتهم عن غيرهم من نحاة المشرق خاصّة خلال القرنين السادس والسابع الهجريين «ففي الفردوس المفقود قامت حضارة علمية راقية أنتجت الموشحات وأبدعت في فنون القول والعمارة، وأعطت للنحو العربي علماء متميّزين لهم صيتهم في المشرق مثل ابن مالك وأبي حيان وغيرهما... ويبقى أن هذه المدرسة لها صفة لا توجد في المدارس السالفة، وهي أنّها بحثت في النحو بدافع خدمة اللّغة العربية والدين الإسلامي»[2] فبما أنّ اللّغة العربية ليست لغة أهل الأندلس ولا الدين الإسلامي كان دينا لهم، فإنّه بعد فتح المسلمين لهذه البلاد، اجتهد أهلها بشكل كبير لتعلّم اللّغة العربية من أجل فهم القرآن الكريم، والحفاظ عليه، في بلد لم يعهد به كدين للدولة وسكانها الذين لم يتوانوا عن الترحيب بالعرب والإسلام.

وإضافة إلى اهتمام علماء الأندلس بالنحو العربي لفهم وخدمة اللّغة والقرآن الكريم فإنّ هناك ميزة أخرى ميّزت بعض العلماء أمثال ابن مالك وابن خروف اللذين خالفا من سبقهم من النحاة في الاستشهاد بالحديث الشريف الذي ابتعد عنه كثير منهم، خاصّة من المشارقة الذين اعتمدوا في الاحتجاج أكثر على كلام العرب

1- شعبان عوض محمد العبيدي، **النحو العربي ومناهج التحليل والتأليف**، ص191-192.

2- صالح بلعيد، **أصول النحو العربي**، دط. الجزائر:2005، دار هومة، ص157.

والقرآن الكريم، كما أنّ الألفية التي نظمها ابن مالك ساهمت كثيرا في حفظ القواعد النحوية، لأنّ وضع المتون وشروحها كان له أثر كبير وواضح في تغيير طرائق تدريس النحو وتناول مسائله، إذ أصبح من السهل على الدارسين فهم تلك القواعد التي كانوا ينفرون منها بسبب صعوبة فهمها وإدراكها.

كما أنّ الاجتهادات التي قام بها النحاة في الأندلس تنصبّ معظمها في محاولة تيسير النحو العربي، الذي شابه كثير من التعقيد، سواء أكان ذلك على أيدي نحاة المشرق، أو نحاة الأندلس الأوائل الذين ساروا على نهج المشارقة في كثرة التعليل والتأويل، أمثال الأعلم الشنتمري والسهيلي... إذ نستطيع القول إنّ المنهج الذي اعتمده معظم نحاة الأندلس يتجه إلى التيسير، وذلك بإلغاء بعض المسائل والقواعد التي عسّرت فهم النحو، ووضع المتون وشروحها، إضافة إلى كثرة الاستشهاد بالحديث الشريف، هذه المسائل التي اعتمدوها ساهمت بشكل كبير في تغيير كثير ممّا كان يعتبر تعقيدا، كما أنّها اعتبرت ممّا ميّز نحاة الأندلس عن غيرهم، فكوّنوا مدرسة نحوية ساروا فيها على نهج نحاة البصرة خاصّة، إضافة إلى اختيارهم من آراء نحاة المدارس الأخرى.

ب- المدرسة المغربية: اهتم النحاة في المغرب بالنحو العربي اهتماما بالغا ما جعلهم يتبوّأون المراتب الأولى، إلى جانب العلماء الكبار في المشرق العربي وما جعلهم أيضا يؤسّسون مدرسة نحوية يتميّزون فيها بآرائهم، التي خالفوا فيها من سبقهم إلى جانب ابتكارهم لأسلوب جديد حيث تميّز المغاربة بتأليف المنظومات النحوية والتي ساعدت كثيرا في حفظ القواعد، لأنّ الشعر يساعد على الحفظ أكثر من النثر، إذ نجد أنّ ابن معط هو أوّل من ألّف في نظم القواعد، وكانت ألفيته التي تسمى "بالدرة الألفية" هي أوّل ما صنّف في هذا الميدان وقد استعان بها ابن مالك فيما بعد في تأليف خلاصته، التي نالت من الشهرة ما لم تنله الدرّة في ذلك الوقت وفيما بعد أيضا، ثم نجد الجزولي في تأليفه لمقدمته، قد أضاف للنحو العربي أسلوبا جديدا في الاختصار، فقد اعتبره بعض المؤلفين رأس المدرسة المغربية «ففي

الميدان اللغوي والنحوي نرى أنّه قد تأسّست أوّل مدرسة للدراسات النحوية بالمغرب على يد أبي موسى الجزولي، فلقد كان إماما في النحو»[1] هذان العالمان الكبيران كان لهما أثر كبير في الدراسات النحوية العربية، أضف إلى ذلك مجموعة أخرى من العلماء كان لهم حضور قوي في هذا الميدان، لذلك اعتبر الكثير من المؤلفين أنّ هناك مدرسة نحوية مغربية تفرّد علماؤها بآراء ومناهج ناشدوا من خلالها بعض التيسير النحوي، والذي دعا إليه نحاة المدرسة الأندلسية، وذلك عن طريق حفظ المتون والمنظومات النحوية، هذه الطريقة ساعدت كثيرا في حفظ القواعد، خاصّة عند المبتدئين الذين رأوا أنّها الطريقة المثلى لتمكينهم من حفظ ثمّ فهم القواعد النحوية بشكل جيّد، بعيدا عن التعقيد والتعسير، فكانت المنظومات النحوية في الأساس فكرة مغربية، اجتهد علماؤها في محاولة لتيسير علم النحو الذي وصل إليهم بعد الفتوح الإسلامية بزمن ليس ببعيد، بعد العلوم الدينية التي كانت أوّل ما اهتم به العلماء، وذلك من أجل فهم القرآن فهما صحيحا وتطبيق ما جاء به الدين الإسلامي من قوانين شرّعها، كانت لا تعرف في المجتمع المغربي إلاّ بعد دخول المسلمين والعرب إلى هذا البلد.

انفرد النحاة المغاربة ببعض الآراء النحوية كغيرهم ممّن كان لهم اجتهاد وتأليف في هذا الميدان، فاستحقّوا بذلك أن تكون لهم مدرسة نحوية تسمى "بالمدرسة المغربية" إلاّ أنّ هناك من ضمّها إلى الأندلس واعتبرهما مدرسة واحدة كمحمد الطنطاوي في كتابه "نشأة النحو وتاريخ أشهر النحاة" إذ يقول: «بذلك استحدثوا مذهبا رابعا عرف بمذهب المغاربة والأندلسيين، ظهرت مبادؤه من أوائل القرن الخامس الهجري، الذي يعدّ فجر النهضة النحوية في هذه البلاد»[2] إذ لم يكن العلماء في أوّل الأمر يعترفون إلاّ بالمدارس الثلاثة: البصرية –الكوفية والبغدادية ثمّ أضافوا فيما بعد المدرسة المصرية، الأندلسية والمغربية فكان لكلّ مدرسة

1- محمد تاويت، **محمد الصادق عفيفي، الأدب المغربي**، ص130.

2- محمد الطنطاوي، **نشأة النحو وتاريخ أشهر النحاة**، ص198.

علماؤها الذين أبدعوا في دراسة النحو وتدريسه، وفي تصنيف الكتب ونقد من سبقهم من نحاة، فعلماء المغرب ونحاتها كان لهم توجّه خاص، إذ لم يهتموا باستنباط واستخراج العلل، التي جعلت من النحو العربي علما ينفر منه الدارسون نظرا لصعوبته، وإنّما حاولوا إيجاد سبيل آخر لتقريبه منهم وتحبيبه إليهم، فتوصّلوا إلى تأليف المنظومات النحوية التي سهّلت حفظ القواعد، كما كان تيسير النحو الهدف الأساس الذي عمل من أجله علماء المغرب، الذين تمكّنوا من ترك بصماتهم واضحة وراسخة، في علم وصل إليهم بعدما أُلّفت فيه العديد من الكتب والمصنّفات الضّخمة في المشرق العربي وحتى في الأندلس.

النتائج العامة: توصلت من خلال تناولي لهذا الفصل إلى النتائج التالية:

– حاول نحاة المغرب والأندلس الإتيان بطرائق جديدة، مكّنتهم من تيسير بعض القواعد النحوية، التي بقيت صعبة لوقت طويل، إذ ساهم نحاة كثيرون في تعقيدها على الدارسين الذين أصبحوا ينفرون منه ومن دراستها.

– ساهم نحاة المغرب والأندلس بشكل كبير في الحفاظ على اللّغة العربية والقرآن الكريم وذلك من خلال اهتمامهم بالنحو العربي، الذي كان يعدّ الدافع الأساسي لظهوره.

– تميّز النحو العربي في المغرب والأندلس بخصائص هامّة، لم يتميّز بها عند ظهوره في أوّل الأمر في المشرق العربي.

– تأليف المتون والمنظومات النحوية التي سهلت حفظ القواعد.

الخاتمة:

عرفت العلوم اللغوية والنحوية في المغرب والأندلس خلال القرنين السادس والسابع الهجريين ازدهارا وتطورا كبيرين، نظرا لما نالته من الاهتمام البالغ من طرف اللغويين والنحاة، الذين برعوا في الإلمام بجوانب مختلف العلوم العربية وقد توصلت من خلال تناول هذا البحث المتواضع إلى النتائج التالية:

- صعوبة الظروف السياسية وتدهورها، والصراع الشديد حول السلطة خاصة منذ عهد ملوك الطوائف، وإلى غاية نهاية العهد الموحدي قد ساهم كثيرا في تطور الحركة العلمية ونبوغ العديد من العلماء، سواء كان ذلك في المغرب أو في الأندلس.

- عدم اهتمام العلماء في المغرب والأندلس بالفلسفة والتنجيم، نظرا لمحاربة أهل الفقه لهذا النوع من الدراسات، واهتمامهم بالعلوم اللغوية كالفقه والنحو والتفسير قبل كل شيء.

- تراجع التأليف المعجمي في المغرب والأندلس خلال القرنين السادس والسابع الهجريين إذ لم تشهد هذه الفترة نبوغ الكثير من المؤلفين في هذا الميدان نظرا لاهتمام العلماء بميادين لغوية أخرى.

- بروز ظاهرة جديدة في تفسير القرآن الكريم في المغرب والأندلس خلال هذه الحقبة، وهي التفسير النحوي لآيات القرآن، إذ لم يكتف ابن عطية مثلا في تفسيره "المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز" بتفسيرها فقهيا، وإنّما أعرب معظمها.

- ظهور قائمة كبيرة من المؤلفين في الدراسات اللغوية العربية المختلفة كالحديث، والتفسير وكتب الشروح والسيرة النبوية ولحن العامة وغيرها من الميادين اللغوية الأخرى.

- نبوغ عدد كبير من النحاة، الذين أثروا ميدان النحو العربي بمؤلفاتهم المتعددة.

- تميّز نحاة المغرب والأندلس بانتقائهم من آراء المدارس المختلفة من البصرة والكوفة وبغداد وحتى مصر.

- ميل نحاة المغرب والأندلس لآراء نحاة البصرة أكثر من آراء نحاة المدارس الأخرى، رغم أنّهم عرفوا نحو الكوفة قبل نحو البصرة، لأنّ جودي بن عثمان عندما هاجر إلى المشرق نقل معه كتاب الكسائي.

- أهم ما ميّز نحاة المغرب والأندلس خلال القرنين السادس والسابع الهجريين هو تفرّدهم ببعض الآراء النحوية، التي خالفوا فيها جميع النحاة السابقين من مشارقة ومغاربة وأندلسيين.

- كثرة التآليف في ميدان النحو العربي، بالنسبة إلى الميادين اللغوية الأخرى.

- اهتمام معظم النحاة بكتاب سيبويه سواء كان ذلك بالقراءة أو الشرح أو الحفظ أو التعليق إضافة إلى الكتب المختصرات ككتاب (الجمل) للزجاجي (الإيضاح) للفارسي و(الأصول) لابن السراج وغيرها من المؤلفات.

- ظهور ابن الطراوة كأوّل نحوي أندلسي كتب في النحو العربي كتابة متخصصة، إذ كان النحاة قبله مجرد رواة لمختلف الكتب المشرقية، ممّا جعل بعض تلامذته، الذين ساروا على نهجه يعترفون له بمنهج خاص به في النحو.

- ظهور ابن مضاء الذي خرج عن العرف النحوي، ونادى بهدم النحو المشرقي، الذي كان آنذاك يزداد صعوبة وتعقيدا بمرور الزمن، لكثرة النحاة المولعين باختراع العلل الثواني والثوالث وغيرها.

- عدم اهتمام النحاة بكتاب (الرد على النحاة) لابن مضاء القرطبي في عهده، وفي العصور التي تلته، فقد انتقده الجميع ولم يجد استحسانا عند النحاة لأنهم اعتبروه هدما لكتاب سيبويه الذي يقوم على نظرية العامل، أمّا في العصر الحديث فقد وجد مؤلف ابن مضاء من يهتم به وبآرائه التي جاء بها كشوقي ضيف، وإبراهيم مصطفى وغيرهما.

– وجوب الاستغناء عن العلل الثواني والثوالث ليس قول ابن حزم، فهو ليس خاصّا بعلماء المغرب والأندلس، وإنّما قال به العلماء منذ عهد الخليل.

– أهمّ ما ميّز النحو العربي في المغرب والأندلس خلال القرنين السادس والسابع الهجريين هو اتجاه النحاة إلى تيسير النحو، نظرا للتعقيد الكبير الذي شابه على مر العصور، ممّا سبب نفور الدارسين منه ومن تعلمه.

وبصفة عامة يمكن القول إنّ الميدان النحوي في المغرب والأندلس، قد ازدهر بشكل كبير خلال القرنين السادس والسابع الهجريين، سواء كان ذلك بعدد النحاة الذي فاق القرون التي سبقت، أو بعدد المؤلفات إذ لا نستطيع الإنكار أن التأليف النحوي وصل إلى أوجّه خلال هذين القرنين.

أمّا فيما يخص الصعوبات التي واجهتني خلال تناولي هذا البحث، فهي قلة المصادر التي تتحدث عن بعض النحاة، الذين تعرضت لهم بالدراسة، إضافة إلى قلة الكتب التي تشمل الدراسات المعجمية في المغرب والأندلس خلال القرنين السادس والسابع الهجريين.

ولقلة الدراسات التي أقيمت حول النحو العربي في المغرب والأندلس، يبقى باب البحث مفتوحا، لمن أراد التوسع أكثر في هذا المجال، والوصول إلى نتائج من شأنها أن تبيّن المكانة الحقيقية لعلماء ونحاة هذين القطرين، الذين يحتاجون إلى جهود أكبر، وبحث أطول، ودراسة أعمق يستنتج من خلالها مدى ما لهم من أثر كبير على النحو العربي بصفة خاصة، والدراسات اللغوية العربية بصفة عامة.

قائمة المصادر والمراجع

القرآن الكريم

رواية حفص عن عاصم.

1- المعاجم:

1. أبو الحجاج يوسف محمد البلوي، **ألف باء**، ط2. بيروت: 1985، عــالم الكتب، ج1.

2- المصادر والمراجع:

1. ابن الأنباري، **نزهة الألباء في طبقات الأدباء**، تح: إبراهيم السامرائي ط3. الأردن: 1985 مكتبة المنار.
2. ابن الناظم، **شرح ألفية ابن مالك**، تح: عبد الحميد السيد محمــد عبــد الحميد دط. بيروت: 1998، دار الجيل.
3. ابن حزم، **جمهرة أنساب العرب**، تح وتع: عبد السلام محمد هــارون دط. القاهرة: 1962، دار المعارف.
4. ابن حويلي الأخضر ميدني، **المعجم اللغوي العربي من النشــأة إلــى الاكتمال**، دط. الجزائر: 2003، دار هومة.
5. ابن خلدون، **المقدمة**، دط. بيروت: دس، دار الجيل، ج1.
6. ابن خلكان، **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان**، تح: إحســان عبــاس دط. بيروت: 1970 دار الثقافة مج3.
7. ابن سعيد، **المغرب في حلى المغرب**، تح: شوقي ضيف، ط2. القاهرة: 1964، دار المعارف، ج1.
8. ابن عصفور الاشبيلي، **الممتع في التصريف**، تح: فخر الــدين قبــاوة ط5. لبنان: 1983 دار العربية للكتاب.

9. ــــــــــــــــ، **المقرب معه مثل المقــرب**، تح وتع: عادل أحمد عبد الموجود، علي محمد معــوص ط1. بيــروت: 1998، دار الكتــب العلمية.

10. ابن عطية، **المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز**، تح وتع: الرحالي الفاروق عبد الله بن إبراهيم الأنصاري، ط1. الدوحة: 1981، ج1.

11. ــــــ، **المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز**، تح: عبد الســلام عبد الشافي ط1. لبنان: دس، دار الكتب العلمية، ج1.

12. ابن كثير، **تفسير القرآن العظيم**، تح: محمد ناصر الدين الألباني ط1. الجزائر: 2004 دار الإمام مالك، ج1.

13. ابن مضاء القرطبي، **الرد على النحاة**، تــح: شــوقي ضــيف، ط2. القاهرة: 1982 دار المعارف.

14. إحسان عباس، **تاريخ الأدب الأندلسي عصــر ســيادة قرطبــة**، ط7. لبنــان: 1985 دار الثقافة.

15. أحمد أمين، **ظهر الإســلام**، ط4. القــاهرة: 1966، مكتبــة النهضــة المصرية، ج3.

16. أحمد مختار عمر، **البحث اللغوي عند العرب**، ط4. الكويــت: 1982 عالم الكتب.

17. ألبير حبيب مطلق، **الحركة اللغوية في الأندلس**، دط. بيروت: 1967 المكتبة العصرية.

18. الجاحظ، **الحيوان**، تح: عبد السلام هارون، ط3. بيروت: 1969، دار الكتاب العربي ج1.

19. ــــــ،**البيان والتبيين**، شر: علي أبو ملحم، ط2. بيــروت: 1992 دار مكتبة الهلال مج1.

20. حليمة أحمد عمايرة، **الاتجاهات النحوية لدى القدماء دراسة تحليليـــة في ضوء المناهج المعاصرة**، ط1. عمان: 2006، دار وائل للنشر.
21. خالد عبد الكريم جمعة، **شواهد الشعر في كتاب سيبويه**، ط2. د بلـــد: 1989، الدار الشرقية.
22. رضا عبد الجليل الطيار، **الدراسات اللغوية في الأندلس**، دط. بيروت: 1980، دار الطليعة للطباعة والنشر.
23. سعيد الأفغاني، **من تاريخ النحو**، دط. بيروت: د س، دار الفكر.
24. السيوطي، **الاقتراح في علم أصول النحو**، تح: محمود سليمان يـــاقوت دط. مصر: 2006 دار المعرفة الجامعية.
25. ـــــــــــ، **بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة**، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، دط. بيروت: دس المكتبة العصرية، مج1، مج2.
26. شعبان عوض محمد العبيدي، **النحو العربي ومناهج التأليف والتحليل** دط. ليبيا: 1989 منشورات جامعة قاز يونس.
27. شوقي ضيف، **المدارس النحوية**، ط2. القاهرة: 1972، دار المعارف.
28. ـــــــــــ، **تجديد النحو**، دط. القاهرة: 1982، دار المعارف.
29. صالح بلعيد، **الإحاطة فـــي النحـــو**، دط. الجزائـــر: 1994، ديـــوان المطبوعات الجزائرية.
30. ـــــــــــ، **ألفية ابن مالك في الميـــزان**، دط. الجـــــزائر: 1995 ديوان المطبوعات الجامعية.
31. ـــــــــــ، **الصرف والنحو**، دط. الجزائر: 2002، دار هومة.
32. ـــــــــــ، **أصول النحو العربي**، دط. الجزائر: 2005، دار هومة.
33. الطبري، **مختصر تفسير الطبري**، تح: محمد علي الصابوني، صـــالح أحمد رضا ط2. الجزائر: 1987، مكتبة رحاب، مج1.
34. طه الحاجري، **ابن حزم صورة أندلسية**، دار الفكر العربي.

35. طه حسين، **المجموعة الكاملة**، ط1. بيـروت: 1981، دار الكتـاب اللبناني، مج16.
36. عبد العال سالم مكرم، **المدرسة النحوية في مصر والشام في القرنين السابع والثامن الهجريين**، ط2. الكويت: 1990، مؤسسة الرسالة.
37. عبد العزيز عبد الله، **تطور الفكر واللغة في المغـرب الحـديث**، دط. بيروت: دس دار لسان العرب.
38. عبد القادر رحيم الهيتي، **خصائص مذهب الأندلس النحوي خلال القرن السابع الهجري** ط2. ليبيا: 1993، جامعة قاز يونس.
39. عبد الكريم بكري، **أصول النحو العربي في ضوء مذهب ابن مضـاء القرطبي** ط1. الجزائر: 1999، دار الكتاب الحديث.
40. عبد الله شريط، **تاريخ الثقافة والأدب في المشـرق والمغـرب**، ط3. الجزائر: 1983 المؤسسة الوطنية للكتاب.
41. عبد الله كنون، **النبوغ المغربي فـي الأدب العربـي**، ط3. بيـروت: 1975، مكتبة المدرسة ودار الكتاب اللبناني، ج1.
42. عبده الراجحي، **دروس في كتب النحـو**، دط. بيـروت: 1975، دار النهضة العربية.
43. ـــــــــــ، **دروس في المذاهب النحوية**، دط. مصر: 1992، دار المعرفة الجامعية.
44. علي بن سعيد، **المغرب في حلى المغرب**، تح: شـوقي ضـيف، ط2. القاهـرة: 1964، دار المعارف، ج1.
45. الفيروز أبادي، **البلغة في تاريخ أئمة اللّغة**، تح: محمد المصري، دط. دمشق: 1972 منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي وإحياء التراث.
46. القفطي، **إنباه الرواة على أنباه النحاة**، تح: محمد أبو الفضل إبـراهيم ط1. القاهرة: 1986، دار الفكر العربي، مج2.

47. محمد إبراهيم البنا، **أبو الحسين بن الطراوة وأثره في النحو**، ط1. تونس: 1980، دار بوسلامة للطباعة والنشر والتوزيع.
48. محمد أحمد أبو الفرج، **المعاجم اللغوية في ضوء دراسات علم اللّغة الحديث**، ط1. بيروت: 1966، دار النهضة العربية.
49. محمد الطنطاوي، **نشأة النحو وتاريخ أشهر النحاة**، ط5. مصر: 1973، دار المعارف.
50. محمد المختار ولد أباه، **تاريخ النحو العربي في المشرق والمغرب** دط. د بلد: 1996 منشورات المنظمة الإسلامية للتربية والثقافة والعلوم.
51. محمد بن تاويت، محمد الصادق عفيفي، **الأدب المغربي**، ط2. بيروت: 1969، دار الكتاب اللبناني.
52. محمد حسين آل ياسين، **الدراسات اللغوية عند العرب إلى نهاية القرن الثالث** ط1. بيروت: 1980، دار مكتبة الحياة.
53. محمد عبد الله عنان، **عصر المرابطين والموحدين في المغرب والأندلس**، ط1. القاهرة: 1964، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ق1، ق2.
54. محمد عبد المنعم خفاجة، **قصة الأدب في الأندلس**، دط. بيروت: 1962، مكتبة المعارف.
55. محمد عيد، **أصول النحو العربي في نظر النحاة ورأي ابن مضاء وضوء علم اللّغة الحديث**، ط4. القاهرة: 1989، عالم الكتب.
56. محمود سليمان ياقوت، **النحو العربي، تاريخه، أعلامه، نصوصه مصادره**، دط. د بلد: 1994، دار المعرفة الجامعية.
57. المرادي، **توضيح المقاصد والمسالك بشرح ألفية ابن مالك**، شر وتح: عبد الرحمان علي سليمان، ط1. القاهرة: 2001، دار الفكر العربي.

58. مصطفى صادق الرافعي، **تاريخ آداب العرب**، ط4. بيروت: 1994 دار الكتاب العربي ج1، ج3.

59. المقري، **نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب**، تح: إحسان عباس دط. بيروت: 1968 دار صادر، ج3.

60. ـــــــ، **نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب**، 1988، دار صادر ج1.

61. مهدي المخزومي، **الدرس النحوي في بغداد**، دط. بغداد: 1974 مطبعة السعون.

62. يوسف عيد، **النشاط المعجمي في الأندلس**، ط1. بيروت: 1992، دار الجيل.

3-المجلات:

1. **مجلة الفيصل**. السعودية: 1986، مجلة ثقافية شهرية، ع 110.
2. **مجلة اللسانيات**. الجزائر: 2000، مركز البحوث العلمية والتقنية لترقية اللّغة العربية ع8.
3. **مجلة أعمال ندوة تيسير النحو**. الجزائر: 2001، منشورات المجلس الأعلى للّغة العربية.

فهرس المواضيع

مقدمة.. 03

مدخل.. 09

الفصل الأول:

اتجاهات الدرس اللغوي في المغرب والأندلس

خلال القرنين السادس والسابع الهجريين.

مدخل.. 23

الدراسات اللغوية في المغرب والأندلس.............................. 27

1- الدراسات المعجمية... 30

1-1- ترتيب المعاجم في المغرب والأندلس.......................... 34

1-2- معجم ألف باء.. 39

2- الدراسات الفقهية... 54

2-1-التأليف في التفسير... 54

2-2-كتاب المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز.................. 55

الفصل الثاني

التأليف النحوي وأهم النحاة في المغرب

والأندلس خلال القرنين السادس والسابع الهجريين

مدخل.. 73

1- دوافع التأليف النحوي في المغرب والأندلس.......... 76
1-1- تطويراللّغة وحمايتها من اللحن.......... 76
1-2- الرد على المشارقة.......... 77
1-3- التراجع الكبير الذي أصاب الدراسات اللغوية والنحوية في المشرق.......... 77
1-4- شرح الكتب وتبسيطها وتسهيل فهما للدارسين.......... 78
2- أهم نحاة المغرب والأندلس خلال القرن السادس الهجري.......... 78
2-1- ابن السيد البطليوسي.......... 78
2-2- ابن الطراوة.......... 79
2-3- ابن الباذش.......... 84
2-4-ابن طاهر.......... 85
2-5-السهيلي.......... 86
2-6- ابن مضاء.......... 90
3-أهم نحاة القرن السابع الهجري.......... 110
3-1-أبو موسى الجزولي.......... 110
3-2-ابن خروف.......... 114
3-3-ابن معط.......... 117
3-4-الشلوبين.......... 120
3-5-ابن هشام الخضراوي.......... 122

3-6-ابن عصفور.. 124
3-7-ابن مالك 127
3-8- ابن الضائع.. 137
4- نحاة آخرون.. 138
5- أهم ما ميّز نحاة القرن السادس عن نحاة القرن السابع........... 144

الفصل الثالث

أثر نحاة المغرب والأندلس في النحو العربي

مدخل.. 149
1- تأثير كتاب سيبويه على النحاة في المغرب والأندلس 151
1-1- ابن الطراوة.. 151
1-2-ابن الباذش... 152
1-3- ابن طاهر.. 152
1-4-ابن خروف.. 152
1-5-ابن عصفور... 153
1-6-ابن الضائع... 153
2- خصائص النحو في المغرب والأندلس 153
2-1-استشهادهم بالحديث النبوي الشريف........................... 154
2-2-اتجاههم إلى تيسير النحو...................................... 159
2-3-استحداثهم لمدرستين نحويتين.................................. 181

الخاتمة... 186
قائمة المصادر والمراجع.. 189
الفهرس.. 195